

البياسنة سنة الثالثة

حياة

التوبة والسقاوة

لندي





عملية مما كبر الفكرة والغيرة
الباثنية الثالثة
بابا الإسكندرية ويطحن لرو الكثرة المرسية

قصة هذا الكتاب

ليست التوبة يا إخوتي هي عمل المبتدئين في الحياة مع الله ، إنما التوبة هي للجميع ، حتى للقديسين ، وهي جزء من صلواتنا اليومية .

كل إنسان محتاج إلى التوبة ، مهما عظم مركزه ، ومهما علا قدره وارتفع في الحياة الروحية . كلنا محتاجون إلى التوبة ، بل إننا محتاجون إليها في كل يوم ، لأننا في كل يوم نخطيء . ولا يوجد إنسان بلا خطية ، ولو كانت حياته يوماً واحداً على الأرض .

بالتوبة نهى أنفسنا لسكنى الرب . وبالتقاة نعين الله أى نراه (متى ٨: ٥) .

التوبة هي بدء الطريق إلى الله ، وهي رفيق الطريق حتى النهاية . ولذلك كانت التوبة من أولى الموضوعات التي ألقيت فيها محاضرات عديدة من بداية عملي كأسقف للتعليم من حوالي عشرين سنة . عشرات المحاضرات ألقيتها عن التوبة في القاعة المرقسية بدير الأنبا رويس ، وفي اجتماعات الشباب والأسرات الجامعية . كما ألقيت محاضرات أخرى مركزة في كنيسة الملاك بدمهور ، وفي كنيسة مارجرجس بالحلة الكبرى ، وفي بعض البلاد الأخرى ، وبخاصة في السنوات من ١٩٦٥ إلى ١٩٦٩ .

وكنت أشتهى منذ زمان ، أن يصدر كتاب عن حياة التوبة . ولقد جمعت محاضراته فعلاً ، وقدم للمطبعة في أغسطس ١٩٧١ ، وتم طبع ثلاث ملازم منه . ثم جاءت مسؤوليات البطريكية فشتلني عنه وعن إصدار أى كتاب آخر لمدة طويلة ، كانت فيها أعباء العمل متشعبة جداً لم تعطني فرصة للكتابة على مدى سنوات . إلى أن شاء الله أخيراً أن أقدمه للمطبعة بعد اثنتي عشرة سنة .

وبسبب تأخير صدور كتاب (حياة التوبة) هذا ، كان كثير من أحبائي يستعجلوني ، قائلين في لطف : ها قد تأخرت توبتنا بتأخر صدور الكتاب . أفترضى

أن تحمل مسؤولية هذا التأخير أمام الله ؟ وكنت أجيهم بالعبارة التي أكررها باستمرار « صلوا لكيما يعطيني الرب وقتاً » ...

ثم أعطاني الرب وقتاً ، وقدمت الكتاب إلى المطبعة ، وها هو قد وصل أخيراً إلى يديك . ولعل تأخره كان فرصة لأن أضيف إليه محاضرات أخرى ألقيتها في الكاتدرائية الكبرى فيما بعد في السبعينات .

وبعد ، أنظنون أنني استطعت جمع كل ما قلناه عن التوبة ؟

كلا ، بلا شك . فموضوع التوبة متسع ومتشعب ، وقد دخل في موضوعات أخرى كثيرة من الحياة الروحية ، ودخل في تأملاتنا عن المزامير وقطع الأجيبة ، وسفر الرؤيا ، وسفر النشيد ، ورومية ١٢ ، ورجال الكتاب المقدس ، وفي محاضراتنا عن الخلاص ...

وقد أصدرنا بعض كتب أخرى صغيرة ، غير هذا الكتاب ، تحت عنوان « سلسلة حياة التوبة والنقاوة » .

صدرت منها كتب (اليقظة الروحية) ، (السهر الروحي) ، (الرجوع إلى الله) ، وكتاب (مخافة الله) في طريقه إلى المطبعة أيضاً .

على انني لكى أستكمل لك هذه المجموعة عن حياة التوبة .
أتوقع أن أصدر لك قريباً كتاب (الحروب الروحية) .
الذي ربما يصدر في مجموعة من الكتب الصغيرة أولاً ، ثم يجمع في كتاب كبير .
ليشمل الحروب الروحية بوجه عام ، ثم حرب كل خطية تعطل التوبة ، على حدة ...
ويبقى موضوع (التوبة والنقاوة) مفتوحاً ... إنه حياة ...

شنوده الثالث

الباب الأول

ما هي التوبة ؟

- ١ - ما هي التوبة .
- ٢ - نمو التوبة وكما لها .
- ٣ - دعوة إلى التوبة .
- ٤ - لا تيأس .
- ٥ - التوبة بين الجهاد والنعمة .
- ٦ - أهمية التوبة .
- ٧ - عوائق التوبة .
- ٨ - التوبة والكنيسة .

ماه التوبة؟

• ما دامت الخطية هي انفصال عن الله ، فالتوبة إذن هي رجوع إلى الله (١).

والرب يقول في ذلك « إرجعوا إلي ، أرجع إليكم » (ملا ٣ : ٧) . والإين الضال حينما تاب ، رجع إلى أبيه (لو ١٥ : ١٨ ، ٢٠) . حقاً إن التوبة هي حين الإنسان إلى مصدره الذي أخذ منه . وهي اشتياق قلب ابتعد عن الله ، ثم شعر أنه لا يستطيع أن يبعد أكثر...

• وما دامت الخطية خصومة مع الله ، تكون التوبة هي الصلح مع الله (١) . وهذا ما ذكره معلمنا القديس بولس عن عمله الرسول ، قال « إذن نسمى كسفراء عن المسيح ، كأن الله يعظ بنا . نطلب عن المسيح : تصالحوا مع الله » (٢ كو ٥ : ٢٠) .

والتوبة لا تقتصر على الصلح ، إذ بها يعود الله فيسكن في قلب الإنسان ، ويتحول هذا القلب إلى سماء . أما غير التائبين ، فكيف يسكن الله في قلوبهم حيث تسكن الخطية؟! والكتاب يقول « أية شركة للنور مع الظلمة؟! » (٢ كو ١٤ : ٦) .

• والتوبة أيضاً هي يقظة روحية (١) .

لأن الإنسان الخاطيء هو إنسان غافل ، لا يحس ما هو فيه . لذلك يخاطبه الكتاب قائلاً « إنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم » (رو ١٣ : ١١) .

ولعله بهذا المعنى اعتبرت التوبة هي رجوع الإنسان إلى نفسه . أو هي رجوع النفس إلى حساسيتها الأولى ، ورجوع القلب إلى حرارته ، ورجوع الضمير إلى عمله . وحسناً قيل عن الإين الضال في توبته « فرجع إلى نفسه » (لو ١٥ : ١٧) . أى أنه عاد إلى وعيه ، وإلى تفكيره السليم ، وإلى إدراكه الروحي .

(١) أنظر كتاب (الرجوع إلى الله) ، وكتاب (اليقظة الروحية) . فكل موضوعاتها مركزة على هذه النقطة وحدها .

• ومادامت الخطية تعتبر موتاً روحياً ، كما يقول الكتاب عن الخطاة إنهم «أموات بالخطايا» (أف ٢ : ٥) ، تكون التوبة إذن انتقالاً من الموت إلى الحياة حسب تعبير القديس يوحنا الإنجيلي (١ يو ٣ : ١٤) . وفي ذلك يقول القديس بولس الرسول «إستيقظ أيها النائم ، وقم من الأموات ، فيضئ لك المسيح» (أف ٥ : ١٤) . والقديس يعقوب الرسول يؤكد نفس المعنى إذ يقول «من رد خاطئاً عن طريق ضلاله ، يخلص نفساً من الموت ، ويستر كثرة من الخطايا» (يع ٥ : ٢٠) . إن التوبة قيامة للمروح ، لأن موت الروح هو انفصال الروح عن الله ، كما قال القديس أوغسطينوس ...

• التوبة هي قلب جديد طاهر ، يمنحه الرب للخطاة ، يحبونه به . هي عمل إلهي يقوم به الرب في داخل الإنسان ، حسب وعده الإلهي القائل «وأرث عليكم ماءً طاهراً ، فتطهرون من كل نجاساتكم ... وأعطيك قلباً جديداً ، وأجعل روحاً جديدة في داخلكم ... وأجعلكم تسلكون في فرائضي ، وتحفظون أحكامي وتعملون بها» (حز ٣٦ : ٢٥-٢٧) .

• التوبة هي التحرر من عبودية الخطية والشیطان ...
ومن أغلال العادات الخاطئة ، ومن السير وراء الشهوات ...
ولا يمكن أن ننال هذه الحرية بدون عمل الرب فينا . ولذلك يقول الإنجيل «إن حرركم الإبن ، فبالحقيقة أنتم أحرار» (يو ٨ : ٣٦) . إنها حقاً حرية لأن «كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية» (يو ٨ : ٣٤) .
نحصل على هذه الحرية ، إن كنا بالتوبة نثبت في الحق ، وليس في الباطل .
والحق يحررنا (يو ٨ : ٣٢) .

• التوبة إذن هي ترك الخطية ، ولكن من أجل محبة الله .
ومن أجل محبة البر . لأنه ليس كل ترك للخطية يعتبر توبة . فقد يبعد الإنسان عن الخطية بسبب الخوف ، أو الخجل ، أو العجز ، أو المشغولية (مع بقاء محبتها في القلب) ، أو بسبب أن الظروف غير متاحة . ولا تعتبر هذه توبة ...
أما التوبة الحقيقية ، فهي ترك الخطية عملاً وفكراً وقلباً ، حباً في الله ووصاياها وملكوته ، وحرصاً من التائب على أبعديته ...

* التوبة الحقيقية هي ترك الخطية ، بلا رجعة .

وهكذا تروى قصص القديسين الذين تابوا ، مثل القديس أوغسطينوس ، والقديس موسى الأسود ، والقديسات مريم القبطية وبيلاجية وتاييس وسارة... إن التوبة كانت في حياة كل هؤلاء وغيرهم ، هي نقطة تحول نحو الله ، إستمرت مدى الحياة ، بلا رجعة إلى الخطية .

ويذكرنا هذا بقول القديس شيشوى «لا أتذكر أن الشياطين قد أطفوني في خطية واحدة مرتين»... ربما الخطية الأولى كانت عن طريق جهل ، أو تهاون ، أو ضعف ، أو عدم دراية بحيل الشياطين ، أو عدم حرص . أما بعد التوبة واليقظة ، فهناك كل التدقيق في الحياة ، والإحتراس من الخطية .

أما الذى يترك الخطية ثم يعود إليها ، ثم يتركها ثم يعود ... فهذا لم يتب بعد . إنما هذه مجرد محاولة للتوبة ، كلما يقوم فيها الخاطيء تشده الخطية إلى أسفل . إن صك حرите لم يكتب بعد...

* التوبة هي صرخة من الضمير ، وثورة على الماضى .

إنها اشمزاز من الخلية ، وندم شديد ، ورفض للحالة القديمة ، مع خجل وخزى منها . لذلك قيل عن التوبة إنها «قاص لا يستحى» .

* التوبة هي تغيير شامل لحياة الإنسان .

ليست هي انفعالاً وقتياً نحو الله ، إنما هي تغيير جدى وجذرى في حياة الإنسان ، فيه يشعر هو وكل من يعاشره أن حياته قد تغيرت ، وأفكاره تغيرت ، وكذلك مبادؤه وقيمته ونظراته إلى الحياة ، وطباعه وأسلوبه في الحديث ، ومعاملاته للناس ، وعلاقته بالله . ونفسه أيضاً من الداخلى قد تغيرت . وأصبح قلباً رافضاً للمخطايا السابقة التى كان يجها . ودخلت محبة الله إلى قلبه . وصار له منهج روحى يشعر فيه بلذة روحية .

ولهذا كله ، قيل بصدق عن التوبة :

* التوبة هي استبدال شهوة بشهوة .

هي شهوة للحياة مع الله ، بدلاً من شهوة الخطية والجسد .

وهنا لا تقتصر التوبة على الجانب السلبي ، الذى هو ترك الخطية ومحبتها ، إنما

تدخل من الناحية الإيجابية في محبة الله وملكوته وطرقه...
إنها حرارة تسرى في الإنسان ، وتشعله بالرغبة في حياة طاهرة .
ولهذا قيل عن التوبة أيضاً :

• التوبة تجديد للذهن .

تجديد الطبيعة يكون في المعمودية (رو ٦ : ٤) . أما تجديد الذهن فإنه يكون في التوبة ، عملاً بقول الرسول « تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم ، لتختبروا ما هي إرادة الله الصالحة » (رو ١٢ : ٢) .

• التوبة هي المفتاح الذهبي ، الذي يفتح به باب الملكوت .

أو هي الباب الحقيقي الموصل إلى السماء أو إلى الملكوت . لأنه بدون التوبة لا يملك الله في قلوبنا... إن التوبة هي زيت في مصابيح العذارى ، يجعلهن أهلاً للدخول إلى العرس (متى ٢٥) .

• والتوبة هي القناة التي توصل إستحقاقات الدم من الصليب .

إن الطريقة الوحيدة التي تمحى بها خطايانا بعد المعمودية . لذلك قال البعض عنها إنها « معمودية ثانية »... إنها جحد للشيطان مرة أخرى . إنها فض للشركة التي بين الخاطيء والشيطان ، ليدخل في شركة مع الروح القدس (٢ كو ١٣ : ١٤) .

• التوبة جرة نار يلقطها أحد السارافيم من فوق المذبح .

ويحو بها إثم الخاطيء قائلاً له « قد انتزع إثمك ، وكُفِّر عن خطيبتك » (أش ٦ : ٧) . إنها الوسيلة الوحيدة التي تمحى بها خطايانا من كتاب دينوتنا... وما أجل قول الرب في ذلك : أنساها « لا أذكر خطيبتهم بعد » (أر ٣١ : ٣٤) .
ومن أهمية التوبة في نوال المغفرة ، قول الرب « إن لم تتوبوا فجميعكم هكذا تهلكون » (لو ١٣ : ٣) .

• التوبة هي طريق الهروب من الغضب الآتي .

على شرط أن تكون توبة حقيقية ، وأن تتناسب مع خطورة الخطية .
إن توبة أهل نينوى ، استطاعت أن توقف حكم الله عليهم بالهلاك . فلما تابوا رجع الله عن حكمه ، وعن الشر الذي أراد أن يفعله بهم فلم يفعله (يون ٣ : ١٠) .
وهكذا في أحكام أخرى لله (أر ٢٦ : ١٣ ، خر ١٨ : ٢١ ، ٢٢) .

حقاً ما أجل قول أحد القديسين : إن الله سوف لا يسألك : لماذا أخطأت ؟
إنما سيسألك : لماذا لم تتب ؟

• التوبة إذن هي إبقاء الله عليك وعدم أخذك في خطيتك .
إن الله من عمق محبته ، أعطى الكل فرصاً للخلاص ، مهما كانت خطاياهم .
فالله لا يأخذ أحداً في وضع هالك ، قبل أن يعطيه فرصة ليتوب .
فالتوبة هي منحة إلهية وهبها الله للخطاة ، لكي تطهرهم ، وتريح ضمائرهم
المثقلة بخطاياهم . وتعيد إليهم السلام الداخلي ، وتردهم إلى رببتهم الأولى التي
كانت لهم قبل الخطية .

• إنها يد الله الممدودة ، يطلب أن يصالحك .
إنها فرصة لصفحة جديدة ، يفتحها الله في علاقته معك ، يغفر لك الماضي كله ،
ويضلك فتبييض أكثر من الثلج (مز ٥٠) . فرصة تقوى فيك الرجاء ، وتبعد عنك
اليأس مهما ساءت حالتك .
ولذلك قيل عن التوبة إنها باب الرحمة ، وإنها باب الغفران ، وإنها باب الحياة ،
وإنها جسر يوصل بين الأرض والسماء .
هذا من جهة عمل الله فيها وما يقدمه من مغفرة . أما من جهة الإنسان فنقول
عنها :

• التوبة هي استجابة من الإنسان لدعوة الله إليه .
إنها استجابة من الضمير ، لصوت الله فيه .
واستجابة من الإرادة ، لعمل النعمة معها .
إنها عدم مقاومة للروح الذي يعمل فينا لخلاصنا (أع ٧ : ٥١) ، وعدم إحزان
للروح (أف ٤ : ٣٠) ، وعدم إطفاء للروح (١ تس ٥ : ١٩) .

• سُئل مار اسحق عن التوبة ، فقال : هي قلب منسحق .
إنها النفس المنسحقة الراجعة إلى الله . إنها الركب الجاثية ، والعيون الدامعة ،
والقلوب المنكسرة . إنها أم الدموع والإنسحاق والإلتضاع ، لأن التوبة تلد كل
هؤلاء ... تحطم كبرياء الخاطيء ، وتفتت قلبه الصخري ، وتدخله إلى حياة
الإلتضاع .

قال مار اسحق أيضاً : ذبيحة التوبة التي تقدمها لله ، هي القلب الذي اتضع وانسحق، وانكسر بدموع الصلاة أمام الله ، طالباً المغفرة عن ضعفه وميل طبيعته .
أوليس هذا أيضاً ما قيل في المزمور الخمسين -مزمور التوبة- «الذبيحة لله روح منسحق . القلب المتخشع والمتواضع لا يرذله الله» .

*** قال الشيخ الروحاني : التوبة هي عذاب عظيم للشيطان مضادها .**

لأنها تخلص وتعتق المسييين الذين سباهم بشره . وتعبه الذي تعب في سنين كثيرة، تضيئه التوبة في ساعة واحدة . زرع الشوك الذي زرعه بأرضنا، وري بحرص في سنين كثيرة، في يوم واحد تحرقه وتظهر أرضنا .
إنها تجعل الزناة بتولين .

من لا يحبك أيتها التوبة - يا حاملة جميع التطويبات - إلا الشيطان، لأنك غنمت غناه، وأضعت كل ما اقتناه .

يا أم الغفران ، إن الآب المملوء رحمة ، لا يفضبك إذا طلبت إليه ، لأنه وهبك أن تكوني شفيعة للخطاة، وسلم لك مفاتيح الملكوت .

بعد أن زار يوحنا الدرجي دير التائبين ، ورأى إنسحاق نفوسهم بالتوبة، وشدة جهادهم، وحرارة صلواتهم ، قال :

طوبت الذين أخطأوا وتابوا ناثحين ، أكثر من الذين لم يسقطوا ولم ينوحوا على أنفسهم .

التوبة هي فرح في السماء ، وعلى الأرض .

لأنه مكتوب « يكون فرح في السماء بخاطيء واحد يتوب » (لو ١٥ : ٧ ، ١٠) . فإن أردت أن تفرح السماء، تُب ...

وهي فرح على الأرض أيضاً : فرح للتائب وللراعي وللكنيسة كلها .

التوبة فرح لأنها دعوة للمأسورين بالإطلاق (أش ٦١ : ١) .

إنها فرح بالتححرر من عبودية الشيطان والخطية ، وفرح بلذة الحياة الجديدة النقية، وفرح بالمغفرة...

*** وفرح لأن التوبة هي حياة النصره أو أنشودة الغالبين .**

فيها ينشد التائب مع داود « مبارك الرب الذي لم يسلمنا فريسة لأسنانهم...

نجت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين. الفخ انكسر، ونحن نجونا» (مز ١٢٤ : ٦، ٧).

على أن التوبة ليست هي الغاية في الحياة الروحية ، وإنما :

* التوبة هي بداية رحلة طويلة إلى حياة النقاوة .

التوبة هي بداية العلاقة مع الله . هي بداءة طريق طويل غايته القداسة والكمال . فالذي لم يبدأ التوبة حتى الآن ، أى لم يبدأ أول الطريق ، كيف تراه سيصل إذن إلى نهايته .

والذى يؤجل أول خطوة إلى حين الشيخوخة أو ساعة الموت ، كيف تراه يصل إلى قول الرب « كونوا أنتم كاملين ، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل» (متى ٥ : ٤٨) .

نمو التوبة وكمالها ..

التوبة كأية فضيلة ، ينمو فيها الإنسان ويتدرج .

ويظل ينمو حتى يصل إلى كمالها . فإلى نقطة البداية فى التوبة ؟ هل هى ترك الخطية من أجل مخافة الله .

هناك نقطة قبل ترك الخطية ، وهى الرغبة فى التوبة .

لأن كثيرين لا يريدون أن يتوبوا . بل يجدون لذة فى الخطية تدعوهم للبقاء فيها . أو إن طباعهم جميلة فى أعينهم لا يريدون أن يغيروها ... لذلك فجرد الرغبة فى التوبة هى نقطة حسنة ، تتلقفها النعمة التى تسأل : أتريد أن تبرأ ؟ وتعمل عملها فى الإنسان . وتكون أول خطوة بعد ذلك هى ترك الخطية بالفعل .

لكن أهم من ترك الخطية بالفعل ، تركها بالقلب والفكر .

فهناك من يترك الخطية بالعمل . ولكن محبتها ماتزال فى قلبه ، يحن إليها ، ويندم على فرص معينة كان يمكنه فيها أن يخطئ ولم يفعل ! مثل هذا الإنسان ربما ترك الخطية من أجل وصية الله ، وليس لأنه يكرهها ...

المفروض أنه يتدرج فى التوبة حتى تنتزع الخطية من قلبه .

وكمال التوبة هو كراهية الخطية .

أى يصل إلى الوضع الذى يكره فيه الخطية من كل قلبه، ويشمئز منها، ولا يحتاج إلى بذل أى جهد فى مقاومتها، لأنها لم تعد تتفق وطبيعته. وهنا يصل الإنسان إلى حافة النقاوة. ونقاوة القلب موضوع طويل، سنفرد له فصلاً خاصاً فى الباب الرابع (علامات التوبة) ، أوريا نخصص له الباب الخامس .

على أن ترك الخطية التى تتعب الإنسان ، أو البارزة فى حياته، وكراهيتها... تأتي بعده درجة أخرى وهى :

ترك الخطايا التى تنكشف له بالتمو الروحي .

ذلك لأن الله من حنوه علينا ، لا يكشف لنا كل خطايانا وضعفاتنا دفعة واحدة حتى لا نقع فى صغر النفس. وإنما كلما نسبح عظات روحية، وكلما نقرأ فى كتاب الله وفى الكتب الروحية، تنكشف لنا ضعفات فى أنفسنا وتقصيرات تحتاج إلى علاج وإلى جهاد وإلى توبة .

وهكذا ندخل فى عملية تطهير وتنقية ، قد تستمر مدى الحياة .

لأن الشيطان قد يترك ميداناً ، ويحارب فى ميدان آخر .

والمفروض أن نكون مستعدين له فى كل الميادين . حتى الخطية التى نكون قد استرحنا منها فترة، قد يعاود القتال فيها. وهذا تستمر التوبة معنا مدى الحياة... كما أن التوبة ، لا يجوز أن تقتصر فقط على مكافحة السلبات التى هى فعل الخطايا، وإنما :

هناك توبة عن النقائص ، الخاصة بالتمو الروحي .

فالمفروض فى التائب أن يصنع ثماراً تليق بالتوبة (متى ٣ : ٨) . وهذا يدخل فى ثمار الروح (غل ٥ : ٢٢) . فإن كان لا يأتي بشمر، فهو محتاج إلى توبة... إلى توبة عن خطية عدم الإثمار، لأن الكتاب يقول «من يعرف أن يعمل حسناً ولا يعمل، فذلك خطية له» (يع ٤ : ١٧) .

التوبة إذن ليست مرحلة وتنتهى ، إنما تستمر معنا .

لأنه ليس أحد بلا خطية ، ولو كانت حياته يوماً واحداً على الأرض . فكلنا نخطئ ونحتاج إلى توبة . وهكذا تصير التوبة بالنسبة إلينا عملاً يومياً، لأننا فى كل

يوم نخطيء. و«إن قلنا إننا لم نخطيء، نضل أنفسنا وليس الحق فينا» (١ يو ٨:١).

إنما هناك فرق بين توبة الخطاة وتوبة القديسين .

الخطاة يتوبون عن خطايا هي كسر صريح للوصايا ، وتدلل على عدم محبة الله . أما القديسون فيتوبون عن تقصيرات طفيفة سببها الضعف البشري . ويتوبون عن نقائص يشعرون بها لشهوتهم في حياة الكمال التي يرون طريقه طويلاً أمامهم ، وما زالت أمامهم مراحل ليعبروها حتى يصلوا ، كل ذلك مع حفظ قلبهم في محبة الله .

وقد وضعت لنا الكنيسة صلوات يومية نطلب فيها التوبة .

ففي قطع الأجيبة ومزاميرها كل يوم ، نلاحظ الصلوات الآتية :

١ - الإعراف بالخطية واستحقاق العقوبة ، كما في (مز ٦ ، ٥٠) ، وقطع الغروب .

٢ - طلب المغفرة ، كما في قطع وتحليل السادسة ، وباقي الصلوات .

٣ - طلب إنقاذ الرب للمصلي من الخطية ذاتها ، كما في تحليل الثالثة .

٤ - طلب إرشادات لمعرفة الطريق كما في (مز ١١٩) ، وقطعة (تفضل يارب) .

٥ - لوم النفس وتبكيها على سقوطها وتهاونها كما في قطع النوم .

٦ - إيقاظ النفس للتوبة ، وتذكيرها بالموت والدينونة ومحىء المسيح الثاني ، كما في قطع النوم ، وأناجيل وقطع نصف الليل .

هذا يدل على أننا نطلب التوبة كل يوم وكل ساعة .

وكمثال لذلك يقول المصلي في قطع صلاة النوم «هوذا أنا عتيد أن أقف أمام الديان العادل مرعوب ومرتعب من أجل كثرة ذنوبي... فتوى يا نفسى مادمت في الأرض ساكنة»، «أى جواب تجيبي وأنت على سرير الخطايا منطرحة، وفي إخضاع الجسد متهاونة»...

وفي صلاة الغروب «إذا كان الصديق بالجهد يخلص، فأين أظهر أنا

الخطيء؟». وفي صلاة نصف الليل «أعطني يارب يتابع دموع كثيرة، كما أعطيت في القديم للمرأة الخطاة».

وفي صلاة السادسة « مزق صك خطايانا أيها المسيح إلهنا ونجنا » .
وفي صلاة الثالثة « طهرنا من دنس الجسد والروح . وانقلنا إلى سيرة روحانية
لكي نسعى بالروح ولا نكمل شهوة الجسد » .
ويعوزنا الوقت إن دخلنا في تفاصيل التوبة في صلوات الأجيبة ، فهذا يحتاج إلى
كتاب خاص .

بعد كل هذا ، هل يجروُ أحد أن يقول إن التوبة مرحلة إجترناها وانتهت ،
ودخلنا في السماويات ، وفي طلب المواهب والمعجزات !!

الذي يظن أنه اجتاز مرحلة التوبة ، لم يفحص ذاته جيداً .
أو لم يفحص ذاته في ضوء الوصايا ، وبروح الإلتضاع ... من منا مثلاً وصل إلى
عجة الأعداء؟ (متى ٥ : ٤٤) . أو وصل أن يلهج في ناموس الرب النهار والليل؟
(مزا ١) . أو من منا وصل إلى الصلاة كل حين دون أن يمل؟ (لو ١٨ : ١) ...
الوصايا كثيرة ، ولم ننفذ منها شيئاً ... أخشى أن أتكلم عن التفاصيل ، فيقع البعض
في صغر النفس . فالصمت أفضل ...

إذن التوبة لازمة لكل منا ، وفي كل يوم من حياتنا .
ليت كل واحد منا يقرأ ويتأمل في الدرجات الروحية التي وصل إليها
القديسون ، ليعلم كيف هو خاطيء! والأعجب أن القديسين الذين وصلوا إلى تلك
الدرجات كانوا يقولون إنهم خطاة ومحتاجون إلى توبة ، وكانوا يكون على
خطاياهم ... ماذا نفعل نحن إذن؟!!

دعوة إلى التوبة ..

إن الله المحب للبشر ، بدافع من محبته لأولاده ، يدعوهم للتوبة .
ذلك لأنه « يريد أن الجميع يخلصون » (١ تي ٢ : ٤) . وهو لا يشاء أن
يهلك أحد ، بل أن يقبل الجميع إلى التوبة (٢ بط ٣ : ٩) . وهو من أجل خلاصهم
مستعد أن يتغاضى عن أزمته الجهل (أع ١٧ : ٣٠) . بل إنه يقول في محبته العجيبة
« هل مسرة أسر موت الشرير... إلا برجوعه ... فيحيا » (حز ١٨ : ٣) . هو يحبنا ،
ويريدنا بالتوبة أن نتمتع بمحبته .

يريد بالتوبة أن يشركنا في ملكوته ، ويمتتنا بحبته .

إنها ليست مجرد أوامر يصدرها الله على أفواه أنبيائه القديسين، بل هي دعوة حب للخلاص «توبوا وارجعوا، لتحمي خطاياكم» (أع ٣ : ١٩) . «من رد خاطئاً عن طريق ضلاله يخلص نفساً من الموت، ويستر كثرة من الخطايا» (يع ٥ : ٢٠) . إذن هذا الأمر من أجلنا نحن ومن خلاصنا، الذي جعله يتجسد ويتألم لأجلنا، والذي لا نستطيع أن نناله إلا بالتوبة .

لذلك نرى في دعوته لنا للتوبة ، مشاعر الحب ...

إذ يقول « إرجعوا إليّ ، أرجع إليكم » (ملا ٣ : ٧) ، « توبوا وارجعوا » (حز ١٤ : ٦) ، « إرجعوا إليّ بكل قلوبكم ... إرجعوا إلى الرب إلهكم » (يوثيل ٢ : ١٢ ، ١٣) . ويقول في محبته على لسان أرمياء النبي « أجعل شريعتي في داخلهم ، وأكتبها على قلوبهم . وأكون لهم إلهاً ، وهم يكونون لي شعباً ... أصفح عن إثمهم ، ولا أذكر خطيتهم بعد » (أر ٣١ : ٣٣ ، ٣٤) .

وفي دعوته لنا للتوبة ، وعد بتطهيرنا وغسلنا .

إنه يقول « اغتسلوا ، تنقوا ، إزولوا شر أفعالكم ... وهلم نتحاجج يقول الرب : إن كانت خطاياكم كالثوم، تبيض كالثلج ... » (أش ١ : ١٦ ، ١٨) . ويقول « أرض عليكم ماءً طاهراً فتنظرون . من كل نجاساتكم ومن كل أصنامكم أطهركم . وأعطيكم قلباً جديداً ... » (حز ٣٦ : ٢٥ ، ٢٦) .

وهو يدعونا للتوبة ، لأننا نحن نحتاج إليها .

فهو يقول « ما جئت لأدين العالم ، بل لأخلص العالم » (يو ١٢ : ٤٧) ، « لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى . لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة » (مر ٢ : ١٧) . نعم إن « ابن الإنسان جاء يطلب ويخلص ما قد هلك » (متي ١٨ : ١١) .

هذه التوبة إذن من صالحنا . وليست أمراً مفروضاً علينا .

ولنا نحن كامل الاختيار . الله يدعونا للتوبة ثم يقول « إن شتمت وسمعتم ، تأكلون خير الأرض . وإن أبيتم وتمردتم ، تؤكلون بالسيف » (أش ١ : ١٩ ، ٢٠) . والصالح لنا أن نسمع ونطيع ، من أجل نقاوتنا ، ومن أجل أبديتنا ، ومن أجل أن نتمتع بالله .

هوذا الرسول يسمي دعوته لنا للتوبة « خدمة المصالحة » وينادي « تصالحوا مع الله » (٢ كو ٥ : ١٨ ، ٢٠) . فهل نحن نرفض أن نتصالح مع الله؟! وهل من صالحنا رفض المصالحة!؟

التوبة نافعة ، مهما كان أسلوبها ، باللين أو بالشدّة .

ولهذا يقول القديس يهوذا الرسول « إرحموا البعض مميزين . وخلصوا البعض بالخوف ، محتطفين من النار ، مبغضين حتى الثوب المدنس من الجسد » (يه ٢٢ ، ٢٣) .

كان القديس يوحنا المعمدان شديداً في مناداته بالتوبة (متى ٣ : ٨ - ١٠) . ويقول القديس بولس الرسول لأهل كورنثوس « الآن أنا أفرح ، لا لأنكم حزنتم ، بل لأنكم حزنتم للتوبة » (٢ كو ٧ : ٩) . ولذلك كان بعض القديسين في عظاتهم يجعلون الناس يبكون ، وكان ذلك نافعا لهم . كما كانت عقوبات الكنيسة نافعة للتوبة وللخلاص ...

لذلك كانت الدعوة للتوبة ، أهم موضوع في الكتاب .

لكي يتنقى الناس ، ولكي يخلصوا ... ولما كانت التوبة لازمة للخلاص ، لذلك أرسل السيد المسيح قدمه يوحنا المعمدان ، يهيب الطريق أمامه بالتوبة ، فنادى بالتوبة قائلاً « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (متى ٣ : ٢) . هذا الملكوت الذي لا يمكن أن تتألهوا إلا بالتوبة . وقدم للناس معمودية التوبة ...

وهكذا عمل التوبة سبق عمل الفداء . والمعمدان سبق المسيح .

والسيد المسيح نفسه نادى للناس بالتوبة « من ذلك الزمان ابتداء يسوع يكرز قائلاً : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (متى ٤ : ١٧) . وكان يقول « قد كمل الزمان ، واقترب ملكوت الله ، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل » (مر ١ : ١٥) . ولما أرسل الإثني عشر « خرجوا يكرزون أن يتوبوا » (مر ٦ : ١٢) . وقبل صعوده أمر أن « يكرز باسمه للتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأ من أورشليم » (لو ١٤ : ٤٧) .

كان أول كارز بالتوبة هو نوح . وتبعه أنبياء كثيرون .

مثل أشعيا (أش ١) ، وحزقيال (حز ١٨) ، ويونان (يون ٣) ، ويوثيل

(يوه ٢)، وأرمياء (أر ٣١) ... وهى أيضاً واضحة كل الوضوح فى أسفار العهد الجديد .

والدعوة إلى التوبة هى عمل جميع الرعاة والمعلمين والوعاظ ورجال الكهنوت وكل المرشدين الروحيين ... وهى واضحة فى أقوال الآباء .

لقد اهتم الآباء جداً بالدعوة إلى التوبة :

قال القديس الأنبا أنطونيوس : أطلب التوبة فى كل لحظة .

وقال القديس باسيليوس الكبير : « جيد ألا تخطئ . وإن أخطأت ، فـجيد ألا تؤخر التوبة . وإن تبت ، فـجيد ألا تعود إلى الخطية . وإن لم تعد ، فـجيد أن تعرف أن هذا بمعونة من الله . وإن عرفت فـجيد أن تشكره على ما أنت فيه » .

وقال مار اسحقى : « فى كل وقت من هذه الأربع والعشرين ساعة من اليوم ، نحن محتاجون إلى التوبة » . وقال أيضاً « كل يوم لا تجلس فيه ساعة بينك وبين نفسك ، وتفكر بأى الأشياء أخطأت ، وبأى أمر سقطت ، وتقوم ذاتك فيه ... لا تحسبه من عدد أيام حياتك » .

إن الدعوة إلى التوبة لازمة للكل . ومما يستلفت النظر :

إن الدعوة للتوبة ، وجهت حتى إلى ملائكة الكنائس السبع .

فالرب يقول لملاك كنيسة أفسس « أذكر من أين سقطت وتب » (رؤ ٢ : ٥) .

وكلمة « تب » يقولها أيضاً لملاك كنيسة برجامس (رؤ ٢ : ١٦) ، وملاك كنيسة ساردس (رؤ ٣ : ٣) ، ولملاك كنيسة لاودكية (رؤ ٣ : ١٩) . وقد أرسل الله ناثان النبي لينادى بالتوبة إلى داود النبي مسيح الرب ...

إن دعوة الله بالتوبة تحمل شعور الإشفاق على أولاده .

فهو يريد الذين ضلوا أن يرجعوا إليه ، ليكون لهم نصيب فى الملكوت وفى ميراث القديسين ، وفى شركة الكنيسة . لأن السلوك الخاطيء يمنع شركتنا بالله (١ يو ١ : ٦) ، ومنع شركتنا مع بعضنا البعض « ولكن إن سلكنا فى النور ، كما هو فى النور ، فلنا شركة مع بعضنا البعض . ودم يسوع المسيح إبنه يطهرنا من كل خطية » (١ يو ١ : ٧) .

والله يقبل التائبين . وأمثلة ذلك كثيرة في الكتاب :

لقد قبل الإبن الضال في سوء حالته (لو ١٥) . وقبل المرأة السامرية التي كان لها أكثر من خمسة أزواج (يو ٤) . وقبل اللص اليمين على الصليب (لو ٢٣ : ٤٣) . وصلى من أجل صاليه لتغفر لهم خطيئهم (لو ٢٣ : ٣٤) . وقبل زكا رئيس العشارين (لو ١٩ : ٩) . ومنحه الخلاص هو وأهل بيته . وقبل متى العشار وجعله رسولاً من الإثني عشر (متى ١٠ : ٣) . ويكنى قوله :

من يقبل إليّ ، لا أخرجته خارجاً (يو ٦ : ٣٧) .

بل أكثر من هذا ، أن الرب هو الذى يقف على الباب ويقرّع منتظراً من يفتح له (رؤ ٣ : ٢٠) . فإن كان يفعل هذا ، فبالحرى يفتح لمن يقرّع أبواب رحمة الإلهية .

ومن جهة مراحم الرب على الخطاة ، صدق من قال :

إن مراحم الرب أقوى من كل دنس الخطية .

إن أبشع الخطايا وأكثرها - بالنسبة إلى مراحم الله - كأنها قطعة طين قد ألقيتها في المحيط ... إنها لا تعكر المحيط ، بل يأخذها ويفرشها في أعماقه ، ويقدم لك ماءً رائقاً . وقبل الله للتوبة ، إنما يكشف عن أعماق محبته الإلهية .

لذلك لا نستكثر خطيئتنا على فاعلية دمه ...

ولا نستكثرها على عظم محبته وعظم رحمة .

وقد قال أحد الشيوخ القديسين : لا توجد خطية تغلب محبة الله للبشر . إنه هو الذى يبرر الفاجر (رو ٤ : ٥) .

أقول هذا حتى لا ييأس الخطاة إذا نظروا إلى خطاياهم .

لا تيأس ..

في هذه النقطة أتذكر خطاباً وصلني من أحد الشبان منذ ٢٢ عاماً .

قرأته فتأثرت كثيراً ، لدرجة أنني بكيت ... ثم أرسلت له رداً ، أذكر أنني قلت له في مقدمته « وصلني خطابك يا أخى المحبوب ، وبخيل إليّ أنني قرأته مراراً قبل أن أراه ... إنه صورة حياة أعرفها ، وقصة قلوب كثيرة ... » .

نعم ، إنها حرب تتعب كثيرين . أفكارها معروفة ، تتكرر في اعترافات الناس وفي أسئلتهم الروحية . وسنحاول أن نتناول هنا كل فكر منها ، لنرد عليه .

١ - الشكوى الأولى : أنا بئست . لا فائدة مني .

إعلم يا أخى أن كل أفكار اليأس هي محاربة من الشيطان . إنه يريدك أن تيأس من التوبة ، سواء من إمكانياتها أو من قبولها ، حتى تشعر أنه لا فائدة من الجهاد ، فتستسلم للخطية ، وتستمر فيها وتهلك نفسك... فلا تسمع للشيطان في شيء مما يقوله لك . وكلما تحاربك فكرة من أفكار اليأس ، رد عليها بقول ميخا النبي :

لا تسمى بي يا عدوتي ، فإنني إن سقطت أقوم (مي ٧ : ٨) .

واعلم أن اليأس من التوبة ، هو أكثر خطورة من السقوط في الخطية . وباليأس مات يهوذا هالكاً . واليأس يقود إلى الإندماج في الخطية بالأكثر ، فيتدرج الخاطيء من سيء إلى أسوأ . وربما في اليأس يحاربه الشيطان بأن يبعد عن أب اعترافه ، وعن كل إرشاد روحي وعن الكنيسة كلها... لكي ينفرد به بلا معونة !! إن حرب اليأس حورب بها الأنبياء والقديسون . فقال داود النبي :

كثيرون يقولون لنفسى : ليس له خلاص بإلهه (مز ٣) .

ولكنه يرد على هذا فيقول « أنت يارب هو ناصرى ، مجدى ورافع رأسى... » . إن داود لم ييأس من سقطته ، بل بكى عليها وتاب . وورده الله إلى رتبته الأولى . بل كان الله يفعل خيرات كثيرة مع عبيدين ، وهو يقول « من أجل داود عبيدى » (١ مل ١١ : ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦) .

فلا تيأس إذن ، وتذكر الذين تابوا من قبل ...

وإن كنت قد بئست من نفسك ، فإن الله لم ييأس من خلاصك .

لقد خلص كثيرين ، ولست أنت أصعب منهم جميعاً . وحيث تعمل النعمة فلا مجال لليأس . تقدم إذن إلى التوبة بقلب شجاع ، ولا تصغر نفسك .

٢ - يقول : كيف أتوب ، وأنا عاجز تماماً عن القيام من سقطتى ؟

لا تخف . الله هو الذى سيحارب عنك . والحرب للرب (١ صم ١٧ : ٤٧) . ولا تهم مقاومتك ، ضعيفة أم قوية . فالله قادر أن يخلص بالكثير أو بالقليل ... إن

الله أقوى من الشيطان الذى يحاربك ، وسيطرده عنك . فلا تنظر إذن إلى قوتك ، إنما إلى قوة الله .

واصرخ وقل : توبنى يارب فأتوب (أر ٣١ : ١٨) .

وإن كنت عاجزاً عن أن تقيم نفسك ، فالرب قادر أن يقيمك . إنه هو الذى « يقيم الساقطين ، ويحل المقيدىن » (مز ١٤٥) ، « رجاء من ليس له رجاء ومعين من ليس له معين » . كن كالجريرح الذى كان ملقى على الطريق بين حى وميت ، عاجزاً عن أن يقوم . ولكن السامرى الصالح أتاه وأقامه (لو ١٠ : ٣٠) ... أو كن كالموقى الذين أقامهم الرب ، ولا قدرة لهم ولا حياة .

٣ - تقول : حالتى رديئة جداً ، وفاقدة الأمل ...

أتراها فاقدة الأمل ، أكثر من العاقر التى قال لها الرب « ترغى أيتها العاقر التى لم تلد... » (أش ٥٤ : ١) . وأعطاها أكثر من ذات البنين؟! إن حالتك قد تكون فاقدة الأمل من وجهة نظرك أنت . أما الله فله رجاء فيك . لا تجعل أملك إذن فى نوعية حالتك ، إنما فى غنى الله الذى يعطى بسخاء ، وفى حبه وفى قدرته .

٤ - تقول : ولكنى لا أريد التوبة ، ولا أسمى إليها .

طبعاً ، هذا أسوأ ما فى حالتك . ومع ذلك فلا تيأس . يكتفى أن الله يسمى لخلاصك . وهو يريد لك أن تخلص . وصلوات قديسين كثيرين ترفع من أجلك ، مع تشفعات ملائكة . والله قادر أن يجعلك تريد هذه التوبة . وتذكر قول الرسول « لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا لأجل المسرة » (فى ٢ : ١٣) . صلّ وقل : أعطنى يارب الرغبة فى أن أتوب ...

إن الخروف الضال لم يبحث كيف يرجع ، ولكن صاحبه بحث عنه وأرجعه إليه . وكذلك كان الحال مع الدرهم المفقود (لو ١٥) .

٥ - تقول : هل من المعقول أن أعيش طول عمري بعيداً عن الخطية ، بينما

قلبي يحبها؟! لو تبت عنها ، سأرجع إليها!

إن المغالطة التى يلقىك بها الشيطان فى اليأس ، هى أنك ستعيش فى التوبة بنفس هذا القلب الذى يحب الخطية! كلا ، فسيمطيك الرب قلباً جديداً (حز ٣٦ : ٢٦) . وسينزع منك محبة الخطية . وحينئذ لن تفكر أن ترجع إليها . بل على

العكس، إن الله سيجعلك في توبتك تكره الخطية وتشمئز منها. شعورك الخالي سيتغير...

٦ - تقول : حتى إن تبت ، ستبقى أفكارى ملوثة بصور قديمة . لا تخف . ففى التوبة سيقى الله فكرك . وتصل إلى «تجديد الذهن» الذى قال عنه الرسول (رو ١٢ : ٢) ... كم كانت الصور الرديئة التى فى ذاكرة أوغسطينوس ، وفى ذاكرة مريم القبطية ! ولكن الرب معاها ، ليقبض الفكر بمحبته ... وثق أن الذين عادوا للتوبة ، كانوا فى حالة أقوى . بل كثير منهم منحهم الرب مواهب ومعجزات مثل يعقوب المجاهد ، ومريم إبنة أخى إبراهيم المتوحد ، ومريم القبطية ...

والتائب محبته أكثر ، كالحاظئة التى أحبت كثيراً ، لأنه غفر لها الكثير (لو ٧ : ٤٧) . وداود فى توبته كان أعمق حباً واتضاعاً .

٧ - تقول : وهل يغفر الرب لى ؟ وهل يقبلنى ؟

إطمئن ، فإنه يقول « من يقبل لى ، لا أخرجه خارجاً » (يو ٦ : ٣٧) . وقد قال داود النبى « لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا حسب آثامنا ... كبعد المشرق عن المغرب ، أبعد عنا معاصينا . لأنه يعرف جبلتنا ، يذكرنا أننا تراب نحن » (مز ١٠٣) .

إنه لا يقبلنا فقط ، بل يغسلنا فنبيض أكثر من الثلج (مز ٥٠) . ولا يعود يذكر لنا خطايانا (أر ٣١ : ٣٤ ، حز ٣٣ : ١٦ ، عب ٨ : ١٢) . تذكر أن نفسك غالية عند الرب ، من أجلها تجسد وصلب .

٨ - تقول : ولكن خطايائى بشعة جداً ...

أجيبك بقول الكتاب « كل خطية وكل تجديف يغفر للناس » (متى ١٢ : ٣١) . حتى الذين تركوا الإيمان ورجعوا إليه ، غفر لهم . وكذلك الذين وقعوا فى بدع وهرطقات وتابوا ، غفرت لهم . وبطرس الذى أنكر المسيح وسب ولعن وقال لا أعرف الرجل ، غفر له . وليس هذا فقط ، بل أعيد إلى درجة الرسولية والرعاية . حتى الذين كانوا فى موضع القدوة ، مثل هرون رئيس الكهنة الذى اشترك مع بنى إسرائيل فى صنع العجل الذهبى ليعبدوه (خر ٣٢ : ٢ - ٥) ، لما تاب غفرت

له . وهوشع الكاهن العظيم ، إنتهر الرب من أجله الشيطان ، وألبسه ثياباً جديدة (زك ٣ : ١-٤) .

٩ - تقول : ولكنى تأخرت كثيراً . فهل هناك فرصة ؟
هكذا قال أوغسطينوس في اعترافاته « تأخرت كثيراً في حيك » . والرب قبله .
إنه قبل أصحاب الساعة الحادية عشرة ، وكافأهم بنفس المكافأة (متى ٢٠ : ٩) .
وقد قبل اللص اليمين على الصليب ، في آخر ساعات حياته . وطالما نحن في الجسد ،
هناك فرصة للتوبة . لذلك نقول في صلاة النوم « توبى يا نفسى مادمت في الأرض
ساكنة... » . لأن الرجاء في التوبة لا يتبدد إلا في الهاوية ، حيث قال أبونا إبراهيم
للغنى « بيننا وبينكم هوة عظيمة » (لو ١٦ : ٢٦) .
فما دمت في الجسد ، أمامك فرصة للتوبة ، فانتزها .

١٠ - تقول أخشى أن تكون خطيى تجديفاً على الروح القدس .
أقول لك إن التجديف على الروح القدس ، هو الرفض الكامل الدائم مدى
الحياة لكل عمل للروح القدس في القلب ، فلا تكون توبة ، وبالتالي لا تكون
مغفرة . ولكن إذا تبت ، تكون قد استجبت لعمل الروح فيك . ولا تكون خطيىك
تجديفاً على الروح (١) .

التوبة بين الجهاد والنعمة ..

إن كلامنا عن عمل الله في التوبة ، ومعونة النعمة ، لا تعنى أن يتكاسل
الإنسان ويتراخى ، منتظراً أن الله يقيمه ، فهذا الرسول يوبخ أمثال هؤلاء قائلاً :
لم تقاوموا بعد حتى الدم ، مجاهدين ضد الخطية (عب ١٢ : ٤) .
إذن من المفروض أن يقاوم الإنسان حتى الدم كل أفكار الخطية ، وكل
شهواتها ، وكل طرقها ، ويبعد عن العثرات ، ويستخدم كل الوسائط الروحية التي
تثبت محبة الله في قلبه . وأيضاً ...

(١) أنظر كتابنا (سنوات مع أسئلة الناس) من ص ٢١ - ص ٢٣ .

بدخل في حرب روحية ، ضد أجناد الشر (أف ٦) .

وفي هذه الحرب يقاتل ويصمد ، ولا يستسلم للعدو ، ويلبس سلاح الله الكامل لكي يقدر أن يثبت ضد مكاييد إبليس (أف ٦ : ١١) . ويكون في كل ذلك ساهراً على خلاص نفسه (أف ٦ : ١٨) . فالرسول يقول : إصحبوا واسهروا ، لأن إبليس خصمكم كأسد زائر .

فقاوموه راسخين في الإيمان (١ بط ٥ : ٨ ، ٩) .

إن الله يريد منك أن تقاوم ... وفي مقاومتك سوف تسندك النعمة بكل قوة . ولكن إظهار محبتك لله بمقاومتك الخطية . وصل ليعطيك الرب قوة على مقاومتها . وهكذا تشترك مع الله في العمل .

الإبن الضال لم ينتظر حتى يأتيه الأب في الكورة البعيدة ليأخذه منها ، إنما رجع إلى نفسه ، وشعر بسوء حالته ، وعرف الحل ، ونفذ ، ورجع إلى الأب فقبله (لو ١٥) . وأهل نينوى صاموا ، وتذللوا ، وجلسوا على الرماد ، وصرخوا إلى الله بشدة ، ورجعوا عن أفعالهم ، فقبلهم الله إليه (يون ٣) .

والله ، لكي ينبهنا إلى واجبنا في التوبة ، يقول :

« إرجعوا إلي ، فأرجع إليكم » (ملا ٣ : ٧) .

ويقول على لسان أشعياء النبي «إغتسلوا ، تنقوا ، إغزلوا شر أفعالكم ... وهلم نتحاجج يقول الرب...» (أش ١ : ٦) . ويقول في سفر يوشع النبي «إرجعوا إلي بكل قلوبكم ، وبالصوم والبكاء والنوح . ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم...» (يوشع ٢ : ١٣ ، ١٢) .

إذن هناك واجب على الإنسان يقوم به في عمل التوبة .

ولا يكفي بأن يلقي نفسه عند قدمي الرب ، دون جهاد في الداخل والخارج ! أو كما يقول البعض «عملك الوحيد هو مجرد تقبل عمل النعمة فيك» ! هل هذا الرأي يتفق مع توبيخ الرسول «لم تقاوموا بعد حتى الدم ، مجاهدين ضد الخطية» (عب ٤ : ١٢) ؟

إذن فلنجاهد . ولكن لا نعتمد على أنفسنا ، بل نطلب يد الله العاملة معنا . ومجاهدانا نشبت رغبتنا في التوبة ، وجدية توبتنا .

أهمية التوبة ..

أهم ما في التوبة ، أنه بدونها لا يتم الخلاص .
يقول الرب « إن لم تتوبوا ، فجميعكم كذلك تهلكون » (لو ١٣ : ٣) . وقد
« أعطى الله الأمم التوبة للحياة » (أع ١١ : ١٨) .
وقد يقول البعض إن السيد المسيح قدم لنا دمه للخلاص والمغفرة . فما لزوم
التوبة إذن ؟ ألا يكفي دم المسيح ؟ فنجيبه :

إن التوبة هي التي تنقل إستحقاقات دم المسيح في المغفرة .
فالخلاص مقدم للكل . ودم المسيح كافٍ للكل . ولكن لا ينال منه إلا
التائبون . حقاً إن دم المسيح « يطهرنا من كل خطية » ... ولكنه لا يطهرنا إلا من
كل خطية نتوب عنها . وقد اشترط الرسول لهذا التطهير أمرين وهما « إن سلكتنا في
النور » (١ يو ١ : ٧) ، وأيضاً « إن اعترفنا بخطايانا » (١ يو ١ : ٩) . وهذان
الشرطان متعلقان بحياة التوبة ...

ولذلك فالتوبة تسبق المعمودية ، إذ فيها مغفرة للخطايا .
وفي هذا قال بطرس الرسول لليهود يوم الخمسين « توبوا وليعتمد كل منكم على
إسم يسوع المسيح لمغفرة الخطايا » (أع ٢ : ٣٨) . والكنيسة في معمودية الكبار
تشتري الإيمان والتوبة والإعتراف . وقوانين الكنيسة تمنع عماد غير التائبين . أما
بالنسبة للصغار ، فيكتفى بطقس (جحد الشيطان) لينوب عن التوبة .

ومن أهمية التوبة ، إنها تلازم الإيمان أو تسبقه .
وقال القديس مرقس الإنجيلي أن السيد المسيح كان يركز قائلاً « قد كمل
الزمان ، واقترب ملكوت الله . فتوبوا وآمنوا بالإنجيل » (مر ١ : ١٥) . والإيمان
بدون توبة لا يخلص أحداً ، لأن عدم التوبة يهلك الإنسان (لو ١٣ : ٣) .

والتوبة تسبق التناول من الأسرار المقدسة .
ففي العهد القديم قال صموئيل النبي « تقدسوا وتعالوا معي إلى الذبيحة »
(١ صم ١٦ : ٥) . وفي العهد الجديد يقول القديس بولس الرسول « ... لئمتحن

الإنسان نفسه، وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس. لأن الذي يأكل ويشرب بدون استحقاق، يأكل ويشرب دينونة لنفسه، غير مميز جسد الرب... لأننا لو حكنا على أنفسنا، لما حُكم علينا» (١ كو ١١ : ٢٧-٣١).

والتوبة تسبق جميع أسرار الكنيسة المقدسة .

وذلك لكي يستحق الإنسان فاعلية الروح القدس فيه . ولكي ينال مغفرة بالتوبة، تؤهله لنعمة الروح القدس العاملة في الأسرار.
إن توبة الإبن الضال ، سبقت دخوله بيت أبيه (لو ١٥) .

والتوبة هي شرط لازم لمغفرة الخطايا .

وفي ذلك يقول القديس بطرس الرسول « فتوبوا وارجموا تمحي خطاياكم » (أع ٣ : ١٩) . وما أجل قول مار اسحق « ليست خطية بلا مغفرة إلا التي بلا توبة » .
التوبة إذن لازمة قبل وبعد المعمودية . قبل المعمودية لتؤهل لتوالها . وبعد المعمودية لمغفرة الخطايا التي تحدث بعد المعمودية .

عوائق التوبة ..

لا يوجد شيء يجاربه الشيطان أكثر من التوبة ...

ذلك لأنها تضع كل تبعه السابق . لذلك تبدو أحياناً صعبة على البعض . لأنه حينما يريد الإنسان أن يتوب، يضع الشيطان أمامه كل ما يمكن من العثرات والعراقيل التي تمنع أو تعطل توبته، ومنها :

١ - العثرات ، سواء كانت إغراءات أو فرصاً لم تكن متاحة من قبل ، حتى تضعف أمامها الإرادة . ويمكن أن تكون البيئة إحدى العوائق التي تعطل التوبة بما تقدمه من عثرات ومن مفاهيم خاطئة .

٢ - مقارنة الخطيء نفسه بمستويات ضعيفة .

يظن مع هذه المستويات أنه في حالة حسنة لا تحتاج إلى توبة، أو تقف أمامه الأعداء، كأن يقول « كل الناس هكذا... فهل أشد عن الكل؟! » . طبعاً ليس عدراً أن تكون الغالبية مخطئة . فقد كان نوح محتفظاً بيره في عالم كله شر . وكذلك كان يوسف الصديق وموسى النبي في أرض مصر، ولوط في سدوم .

٣ - ضعف الشخصية ، بحيث يمكن أن تنقاد للوسط المحيط .

والمفروض أن تكون للإنسان شخصيته الثابتة التي لا تنجرف مع الإتجاه العام .
إن سمكة صغيرة يمكن أن تقاوم التيار وتسير عكسه ، لأن فيها حياة . بينما كتلة ضخمة من الخشب - قدر هذه السمكة مئات المرات - يمكن أن يجرفها التيار ، لأنه لا إرادة لها . فكن قوى الشخصية ليتمكنك أن تتوب . والرسول يقول « لا تشاكلوا هذا الدهر » (رو ١٢: ٢) .

٤ - التأجيل : إن الشيطان لا يحاربك حرباً مكشوفة بالإمتناع عن التوبة ، بل يدعوك إلى التأجيل بتقديم إغراءات معينة .

وللتأجيل خطورات منها : إن فرص التوبة قد تفلت . وكذلك فإن الخطية كلما استمرت ، تاخذ سلطاناً وتثبت أقدامها . وربما بالتأجيل مجرد الرغبة في التوبة لا توجد ، والتأثيرات الروحية التي تدفع إليها قد تفقد مفعولها .

٥ - اليأس : والشعور بأن التوبة صعبة وغير ممكنة . وكما يقرب يوحنا الدرجي : إن الشياطين - قبل السقطة - يقولون لك إن الله رؤوف ورحيم . أما بعد السقطة فيقولون إنه ديان عادل ، ويخوفونك لتيأس من مغفرة الله فلا تتوب . وقد تحدثنا في الصفحات السابقة عن عائق اليأس وعلاجه .

٦ - البر الذاتي ، الذي فيه لا يشعر الإنسان أنه مخطيء .

التوبة هي تغيير حياة ب حياة . والذي حياته جميلة في عينيه ، كيف يغيرها ؟ إنه إن لم يشعر بسوء حالته ، فلا يمكن أن يتوب ويغير حياته .

كذلك لا يتوب ، من لا يبكت نفسه ، ومن يرفض تبكيت الآخرين .

ومن يظن أنه دائماً على حق ، وأن عبارات (توبوا ، وارجعوا) هي موجهة إلى غيره . وكذلك من يترك أذنيه لسماع كلام المديح ويصدقه ، ومن يفسر وصايا الله حسب هواه ، ويرفض أن يتبكت ضميره بسببها .

التوبة سهلة للمتواضعين . وصعبة على الأبرار في أعين أنفسهم .

إنها سهلة للعشار المنسحق الشاعر بخطاياها ، وصعبة على الفريسي الذي يفتخر في صلاته قائلاً : أشكرك يارب إني لست مثل سائر الناس الظالمين الخاطفين الزناة ... التوبة سهلة للمرأة الخاطئة التي بللت قدمي المسيح بدموعها . وصعبة على سمعان الفريسي الذي ظن أنه ليس خاطئاً مثلها . ولذلك حسناً أن الرب أظهر له

أنه هو وهى مديونان . ولكنه ليس له نفس حبا، إذ يرى دينه أقل بكثير (لـ٧) .
التوبة سهلة على الذين يعرفون أنهم خطاة ، ويعترفون أنهم خطاة .

أما الأبرار في أعين أنفسهم ، فعلى أى شىء يتوبون ؟! مادام لا يعترفون بأنهم
أخطأوا فى شىء! حقاً: لا يحتاج (الأصحاح) إلى طيبب، أى الذين يظنون فى
أنفسهم أنهم أصحاء...!

هؤلاء ، حتى إن جابههم أحد بخطية ، إما أن ينكروها، أو يفسروها تفسيراً
ملتويأ، أو يحملوا مسئوليتها على غيرهم، أو يجادلوا ويبرروا أنفسهم... ولكنهم لا
يعترفون بخطأ، وبالتالي لا يتوبون...

ربما الذين يقفون أمام الناس كقدوة لهم ، من الصعب أن يقولوا إنهم
محتاجون إلى توبة. ليت هؤلاء يكونون أيضاً قدوة للناس فى الاعتراف بالخطأ
وبالإحتياج إلى توبة. لذلك نقول إن التوبة قد تكون سهلة للموعوظ، وصعبة على
الواعظ والخادم والمرشد ومن فى مستواهم .

٧ - من عوائق التوبة أيضاً عدم وجود مخافة الله فى القلب .

وكما قال مار اسحق : حيث لا توجد المخافة ، لا توجد التوبة أيضاً .

البعض ينفرون من المخافة باسم المحبة . ولبعدهم عن المخافة يقعون فى
اللامبالاة، ويسقطون فى خطايا. وهذه الخطايا يبرهنون على أنه ليست لهم المحبة
التي تطرح المخافة إلى خارج (١يو ٤ : ١٨) .

مخافة الله تشعر الإنسان بخطاياها ، فتدفعه إلى التوبة ...

وسنقدم لك عنها كتاباً خاصاً إن شاء الله .

التوبة والكنيسة

الكنيسة لها عمل كبير فى توبة كل إنسان : يدخل فى نطاقه عمل التعليم
والإرشاد، وعمل الرعاية والإفتقاد، ونقل أعمال الروح القدس وعطاياه من أجل
خلاص كل أحد، ونقل استحقاقات الدم الكريم .

فالكنيسة هى التي تدعو الخطاة إلى التوبة .

هى التى تقوم بما أسماه القديس بولس الرسول « خدمة المصالحة » و« كلمة المصالحة » تنادى الخطاة أن « تصالحوا مع الله » (٢ كو ٥ : ١٨ - ٢٠) . وذلك عن طريق الوعظ والتعليم ، وتقديم كلمة الله للناس ... وربما لولا عمل الكنيسة هذا ما تاب أحد .

والكنيسة تدعو إلى التوبة فى كل ما تقوم به من أعمال الرعاية . بزيارة الناس ، وحل مشاكلهم بكل أنواعها ، الروحية والإجتماعية ... كأب حنون يهتم بأولاده ، ويقربهم إلى أبوة الله .

والكنيسة هى الوسط الروحى الذى يساعد على حياة التوبة . بعيداً عن أوساط العالم المملوءة بالعثرات ، بحيث أن كل من يتوب يجد الكنيسة البيئة الصالحة التى يحيا فيها حياة روحية . وربما لولا الكنيسة ، لكان كل شعور روحى ينبت فى الإنسان تخنقه أشواك العالم فيذبل ويجف .

والكنيسة تقدم للتائب سر الإعراف وتمنحه الحل والمغفرة . وفى سر الإعراف يشرح التائب كل ما فى قلبه ، وتستريح نفسه من أسراره المكبوتة ، ويقدم إلى الله كل ضعفاته وسقطاته فى سمع الكاهن ، لينال عنه جلاً من الله ، من فم الكاهن .

وذلك بحكم السلطان الذى قال فيه الرب « من غفرتم له خطاياها ، غفرت له . ومن أمسكتموها عليه أمسكت » (يو ٢٠ : ٢٣) . وأيضاً بحكم قوله « كل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً فى السماء . وكل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء » (متى ١٨ : ١٨) .

وهكذا يخرج التائب من اعترافه ، وقد استراح ضميره . إذ يكون قد سمع كلمة الحل والمغفرة من وكيل الله ، له سلطان أن يقوها ، حسب السلطان المعطى له من الله . وهكذا يملك السلام على قلبه ، ويبدأ بدءاً جديداً .

والكنيسة فى سر الإعراف تعطى الإرشاد الروحى . حسبما قال الكتاب إنه من فم الكاهن تطلب الشريعة (حج ٢ : ١١) ، وهكذا

يشرح الأب لابنه في الإعراف الطريق الروحي السليم الذي يسير فيه، لأنه لا يوجد أحد يستغنى عن المشورة، والكتاب يقول « هناك طريق تبدو للإنسان مستقيمة، وعاقبتها طرق الموت (أم ١٤ : ١٢)، كما يقول « على فهمك لا تعتمد » (أم ٣ : ٥).

وفي الكنيسة يجد النائب القلب الذي يأتمنه على أسراره.

فالأسرار الشخصية الخاصة بحياة الإنسان الروحية، والتي تشمل سقطاته وضعفاته، لا يستطيع أن يأتمن عليها كل أحد. وربما لا يستطيع كتمانها تماماً لأن هذا الكبت قد يتعبه. ولكن عند الأب الكاهن يجد ضمان السرية، ويجد الحلول الروحية، ويجد اليد المخلصة التي تقوده في حب وفي إخلاص.

والكنيسة تقدم للنائب كل بركات سر الأفخارستيا.

هذا السر العظيم الذي قال عنه الرب « من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه » و« يحيا بي » (يو ٦ : ٥٦ ، ٥٧). وخارج الكنيسة لا يجد بركة هذا السر العظيم الذي يعينه في توبته، ويقذبه روحياً، والذي « يعطى عنا خلاصاً، وغفراناً للخطايا، وحياة أبدية لكل من يتناول منه » (يو ٦ : ٥٤).

ولكن لعل إنساناً يقول : مادامت التوبة تؤدي إلى المغفرة، فما حاجتي إلى الكنيسة، وإلى الإعراف والتناول والتحليل؟ فنجيبه :

بالتوبة تستحق المغفرة، وبالإعراف والتناول تناها.

وفرق بين استحقاق المغفرة ونوال النعمة .

كما أن التوبة تشمل في داخلها الإعراف أيضاً. والتحليل جزء من سر التوبة. والتناول امتداد لفاعلية ذبيحة المسيح .

يقول : إن تبت ومت قبل قراءة التحليل، فما مصيرى ؟

إن مت هكذا رحك الله . والتحليل يقرأ عليك في صلاة الجنائز.



الباب الثاني

دوافع التوبة

- الفصل الأول : إن عرفت من أنت ، تسموعن الخطية ..
- الفصل الثاني : إن عرفت ما هي الخطية تهرب من الخطية ..
- الفصل الثالث : إن عرفت نتائج الخطية ، تنفر من الخطية ..
- الفصل الرابع : إن عرفت عقوبة الخطية ، تخاف من الخطية ..
- الفصل الخامس : دوافع أخرى للتوبة ..

الفصل الأول

نريد أن نجعل توبتنا مبنية على أساس سليم ،
وعلى فهم صحيح للحياة الروحية والعلاقة مع الله .
وأهم دافع لنا إلى التوبة هو أن نعرف قيمة أنفسنا ،
أن يعرف الواحد منا مقدار نفسه ، ومن يكون ...
فاعرف يا أخى نفسك : من أنت ؟

ان عرفت من انت

تسمو عن الخطية

فلو عرفت المقدار العظيم الذى لك ، والمركز الكبير الذى تشغله ، لكنت ترأى
بنفسك السامية أن تنزل إلى مستوى الخطية . وهكذا لا يمكن أن تسقط ...
فن أنت ؟

انت **لست حفنة من تراب كما يظن البعض ... أنت نفخة قدسية**

خرجت من فم الله وحثت فى التراب . وهكذا صرت «نفساً حية» (تك ٢: ٧) .
ولست مجرد تراب أو طين ... يليق بك إذن أن تغنى فى فرح وتقول :

أنا فى الطين سكنتُ	ما أنا طين ولكن
من فم الله خرجت	لست طيناً أنا روح
أحيى حيث كنت	وسأمضى راجعاً لله

إن وجودك فى هذا التراب - أيها الأخ المبارك - هو مجرد فترة غربة قصيرة ،
ترجع بعدها إلى الله ، وتثبت فيه إلى الأبد . فاعرف غربتك ، وعش كروح ، تسمو
عن المادة والعالم وأعمال الجسد ...

أنت - يا أحمى - صورة الله ، أنت صورة ومثاله

أنت - يا أحمى - صورة الله . فهكذا قال الكتاب فى قصة الخلق « وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا... فخلق الله الإنسان على صورته . على صورة الله خلقه » (تك ١ : ٢٦ ، ٢٧) .

فإذا كنت أنت صورة الله وشبهه ، فكيف تخطيء؟! هل إذا تدنست بالخطية تظل محتفظاً بصورتك الإلهية؟! كلا ، طبعاً . إذ لا يمكن أن يراك إنسان فى النجاسة والسقوط ويقول « هذا صورة الله »! ...

لذلك فإن القديس أثناسيوس الرسولى فى كتابه « تجسد الكلمة » ، يقرر أن الإنسان عندما سقط ، تشوه ، وفقد صورته الإلهية . وأتى السيد المسيح ليعيد إلينا صورتنا الأصلية ...

لوعرفت أيها الأخ أنك صورة الله ، لا يمكن أن تخطيء ... ولو عرفت أنك ابن الله ، فلن تخطيء كذلك ، لأن الإبن يجب أن يشبه أباه ...

ما أسهل أن نفتخر افتخاراً باطلاً ونقول إننا أولاد الله ، وأعمالنا لا تدل على ذلك ... كما كان اليهود يفتخرون باطلاً بأنهم أولاد ابراهيم ، وأنجيل الرب كبير ياءهم بقوله « لو كنتم أولاد ابراهيم ، لكنتم تعملون أعمال ابراهيم » (يو ٨ : ٣٩) . فإن كان أولاد ابراهيم يجب أن يعملوا أعمال ابراهيم ، فكم يجب أن يكون أولاد الله الذين على صورته ومثاله؟ ...

هل نحن نحيا كأولاد لله ، حتى ندعى أولاده؟
ما أسهل أن نخطب الله فى صلواتنا قائلين « أبانا الذى فى السموات » ، ونحن لا نسلك كبنين لذلك الأب السماوى!!

تذكر يا أحمى باستمرار أنك ابن الله ، واسلك فى حياة البر حتى تستحق أن تدعى إبناً لذلك البار ، واضعاً أمام عينيك قول الكتاب « إن علمت أنه بار هو ، فاعلموا أن كل من يصنع البر مولود منه » (١يو ٢ : ٢٩) .

إذن إن كنت لا تصنع البر ، فلست تستحق أن تدعى إبناً لله ...

أخاف أن تكون عبارة « أولاد الله » سبب تبكيت لنا ، ههنا وفي اليوم الأخير ... من أجل هذا يشرح لنا القديس يوحنا الرسول هذا الأمر فيقول « أيها الأولاد ، لا يضلكنم أحد . من يفعل البر فهو بار كما أن ذاك بار . من يفعل الخطية فهو من إبليس ، لأن إبليس من البدء يخطيء » (١ يوحنا ٣ : ٧ ، ٨) ، أى أن من يفعل الخطية ، هو ابن للشيطان ، هو من إبليس وليس من الله ... يا للهول !

ثم يسجل لنا الرسول قاعدة جوهرية يقول فيها :

« كل من هو مولود من الله لا يفعل الخطية ، لأن زرعه يثبت فيه . ولا يستطيع أن يخطيء . لأنه مولود من الله » (١ يوحنا ٣ : ٩) .

بهذا المقياس يمكنك أن تقيس أيها الأخ نفسك عندما تقول إنك ابن الله . وهكذا فإن الرسول يختم كلامه بقوله « بهذا أولاد الله ظاهرون ، وأولاد إبليس (ظاهرون) ... » (١ يوحنا ٣ : ١٠) .

إن شعورك بأنك ابن الله ، يذكرك بالطبيعة السامية التي وضعها الله فيك ، والتي عناها الرسول بقوله عن المولود من الله أن « زرعه يثبت فيه » . لذلك قال أيضاً « المولود من الله يحفظ نفسه ، والشرير لا يمس » (١ يوحنا ٥ : ١٨) .

ففي كل مرة تخطيء ، ينبغي أن تنسحق في أعماقك ، شاعراً أنك غير مستحق للقب ابن الله .

لذلك فإن الكنيسة المقدسة تجعل المصل يقول للرب كل يوم في صلاة الغروب « أخطأت إلى السموات وقدامك ، ولست مستحقاً أن أدعى لك إبناً » . ولماذا « لست مستحقاً أن أدعى لك إبناً » ؟ ... لأنني أخطأت ، والمولود من الله لا يخطيء ...

لا بد أن نفهم جيداً المعنى العملي لبنوتنا لله ...

ندخل إلى أعماق هذا اللقب . ونسأل أنفسنا في كل عمل نعمله ، وفي كل كلمة نقولها ، وفي كل فكر نرضى به ... هل نحن نعمل ونتكلم ونفكر ، كما يليق بأولاد الله ؟ ... إن بنوتنا لله ليست مجرد لقب . وإنما يجب أن نسلك بما تتطلبه هذه البنوة من مشابة الإبن لأبيه ...

إن « الله روح » (يوحنا ٤ : ٢٤) . « والمولود من الروح هورج
(يوحنا ٣ : ٦) . إن كان كنت أيها الأخ إنساناً جسدياً ، تسلك حسب الجسد وليس
حسب الروح ، فكيف تكون ابناً لله الذي هو روح ؟! وكيف تكون مولوداً من
الروح ؟ ...

إن الذي يعيش في الخطية ، لا يستطيع مطلقاً أن يقول إنه ابن الله ، بل لا
يستطيع أن يدعى أنه يعرف الله ، مجرد معرفة ... وهذا يوضحه الرسول في عبارته
المخيفة التي يقول فيها :

« كل من يخطيء ، لم يبصره ولا عرفه » (١ يوحنا ٣ : ٦) ... لأنه « من
قال قد عرفته - وهو لا يحفظ وصاياهم - فهو كاذب وليس الحق فيه » (١ يوحنا ٢ : ٤)
هل في حياة الخطية يمكنك أن تقول : أنا أعرف الله ؟! كلا ، إنه يجيبك ويقول :
إذهب عني ، لا أنا أعرفك ، ولا أنت تعرفني ...

لذلك يا أخى ، إن تذكرت أنك ابن الله ، فينبغي أن تسلك كما يليق بالدعوى
التي دعيت إليها (أف ٤ : ١) . أسلك مثله ، في طريقه « كما سلك ذلك تسلك أنت
أيضاً » (١ يوحنا ٢ : ٦) . كما عاش المسيح على الأرض ، تعيش أنت ... في ملء
القداسة ، في ملء الطهارة ، في ملء البركة ... لأنه ترك لك مثلاً تحذيه
(يوحنا ١٣ : ١٥) ...

أما إن عشت في الخطية ، فتأكد في أعماقك أنك لا تستحق البنة لله ، لأن
صورة أولاد الله ليست هكذا ...

وفي كل مرة تقول له « أبانا الذي في السموات » ، ينبغي أن يوبخك
ضميرك ، وتنسحق في داخلك ، وتقول له : إن كان من تواضعك يارب ومن
حبتك ، قد دعوتني ابناً لك ... إلا أنني بأعمالي برهنت على أنني لا أستحق أن أدعى
لك ابناً ... إجعلني كأحد أجراءك ... إن أبوتك لي - وإن كانت تشرفني جداً - إلا أنها
تسحقني سحقاً ، وتشعرنى بالفارق الكبير بين ما أنا كائن فيه وما ينبغي أن أكونه ...

أنت يا أختي لست فقط إبن الله ، ونفخة قدسية قد خرجت من فم الله ، وإنما أنت أيضاً هيكل لله ، والله يسكن فيك . وهكذا يقول لنا الرسول « أما تعلمون أنكم هيكل الله ، وروح الله ساكن فيكم . إن كان أحد يفسد هيكل الله ، فسيفسده الله . لأن هيكل الله مقدس الذي أنتم هو » (١ كو ٣ : ١٦ ، ١٧) . « أنتم هيكل الله الحي . كما قال الله إني سأسكن فيهم وأسير بينهم » (٢ كو ٦ : ١٦) ...

شهوة الله منذ البدء أن يسكن فيك ، ينظر إلى قلبك ويقول « ها هو موضع راحتي إلى الأبد . ههنا أسكن لأني اشتيته » (مز ١٣٢ : ١٤) ... تقول له « عندك يارب الكنائس ، عندك الهياكل والمذابح . سكنائك في السماء ، وسواء السموات هي عرشك » فيقول لك : ولا واحدة من هذه تعجبني مثل سكناي في قلبك « يا إلهي أعطني قلبك » (أم ٢٣ : ٢٦) ...

أنت أيها الأخ المبارك أهم عند الله من كنيسة مبنية ... إن تهدمت إحدى هذه الكنائس فما أسهل على البشر أن يعيدوا بناءها ، بجمع المال تبني ... أما إذا تهدم إنسان مثلك ، فلا يمكن أن يعاد بناؤه إلا بدم المسيح . لا ملاك ولا رئيس ملائكة ولا رئيس آباء ولا نبياً ، يقدر أن يردك إلى ربتك الأولى ، ليس غير دم المسيح ، فبدونه لا يكون لك خلاص ... أنت يا أختي أهم عند الله من كنيسة مبنية . أنت كنيسة حية ، أهم من الطوب والحجارة ، أنت هيكل للروح القدس ...

لقد سمح الله أن يتحطم هيكل سليمان ، ولا يترك فيه حجر إلا وينقص ... أما أنت فن أجلك أرسل الله الرسل والأنبياء والملائكة ، وعين الرعاة والكهنة والمعلمين ، ورتب كل وسائل النعمة ، وقدم استحقاقات الفداء العظيم « لكي لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية » (يو ٣ : ١٦) .

إن كنت إذن بيتاً لله ، والله يسكن فيك ، فتذكر قول الكتاب « بيتك يارب تليق القداسة » (مز ٩٣ : ٥) . واعرف أنك بالخطية تنجس بيت الله ، الذي هو أنت ...

أذكر إذن قول الرسول :

« كونوا أنتم أيضاً مبنيين - كحجارة حية - بيتاً روحياً ، كهوتاً مقدساً ، لتقديم

ذبايح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح » (١بط ٢ : ٥) ...

إن السيد المسيح يبحث عن مكان يسكن فيه ، وهذا المكان هو أنت . وعندما قال الرب عن نفسه أنه « ليس له أين يسند رأسه » (لو ٩ : ٥٨) ، لم يكن يقصد فقط البيوت المادية ، وإنما بالأكثر قلوب الناس ...

إن قلبك هو المكان الذي يريد الرب أن يسند فيه رأسه ... حقاً إن لذته في بني البشر ... (أم ٨ : ٣١) . وهو ما يزال يقرع على بابك لتفتح له ... وفي اشتياقه إلى قلبك يقول « إن أحبني أحد يحفظ كلامي ، ويحبه أبي ، وإليه تأتي ، وعنده نصنع منزلاً » (يو ١٤ : ٢٣) . وهكذا يأتي الآب والإبن ويسكنان في قلبك ، وأنت من قبل هيكل للروح القدس ...

فيصير قلبك بهذا الوضع مسكناً للثالوث القدوس ... هنا ويعقد الصمت لساني ، هيبة ، وإجلالاً ، لهذا القلب المقدس ... « ما أرهب هذا المكان !!! ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء » (تك ٢٨ : ١٧) ... هذا هو المسكن الإلهي العجيب الذي يأتي إليه الله من بعيد « طافراً على الجبال ، قافزاً على التلال » (نش ٢ : ٨) ، ينادى نفسك العزيزة في حب « إفتحى يا أختي ، يا حبيبتى يا حامتي ، يا كاملتى ، لأن رأسي قد امتلأ من الطل ، وقصصى من ندى الليل » (نش ٥ : ٢) . فإلى متى تنتظر يا أختي ولا تفتح ... !

تصور يا أختي أن الله الذي لا تسعه السموات كلها ، ولا الكون أجمعه ، الله الذي قال عنه داود « للرب الأرض وملؤها ، المسكونة وكل الساكنين فيها » (مز ٢٤ : ١) ، الله هذا يقرع على بابك ، ويشتهيك مسكناً له ... هو يريد أن يعيش في قلبك ، وتعيش أنت في قلبه ، يثبت فيك وأنت فيه ، وتصير كنيسة مقدسة له ...

أذكر أنني في يوم ما أرسلت خطاباً إلى أحد الأخوة المباركين ، قلت له فيه « سلم على الكنيسة المقدسة التي في قلبك » . لأنني كنت أعرف أن في قلبه كنيسة تصعد منها رائحة بخور ، وتخرج منها ألحان وتسابيح ، وترتفع فيها ذبايح روحية ... ألم يقل المرتل « فلتستقم صلاتي كالبخور قدامك ، وليكن رفع يدي ذبيحة مسائية » (مز ١٤١ : ٢) .

إن عرفت يا أخى هذا ، أنك هيكل للروح القدس ، فلا تخطئ ، لئلا تجزن روح الله الذى فيك وتطفئ حرارته ...

بل إن أتاك الشيطان يوماً بخطية ، تقول له :
إذهب عنى بعيداً ، فلست أنا لك ...
أنا بيت الله ، أنا مسكن لله ... أنا موضع مقدس للرب ...
أنا الذى يقرع الله على بابى ، لكى أفتح له ...
أنا هيكل للروح القدس ، أنا كنيسة مقدسة ...
أنا الذى يأتي إليه الآب والإبن ، وعنده يصنعان منزلاً ...
أنا مسكن للثالوث القدوس ..
هل أنا شيء هين ، يمكن أن ينجسه الشيطان ؟! كلا ،
أنا سماء ثانية ... عرش لله يجلس عليه ...
أنت يا أخى لست هذا كله فقط ، بل أيضاً :

أنت ، أخى المسيح ، شريك المسيح ، وواكب معه

تواضع عجيب من الرب أن يدعونا أخوة له ... نحن لا نجروا أن نناديه بهذا اللقب ، لأننا لم نصل إلى مستوى العبيد الباطلين الذين فعلوا كل ما أمروا به (لوقا : ١٧ : ١٠) . ولكننا أمام تشريفه لنا ، يجب أن نسلك كما يليق بالدعوة التى دعينا إليها ...

عجيب أن يقال عن الرب الإله إنه « بكر وسط أخوة كثيرين » (روم : ٨ : ٢٩) ... أخوة كثيرين؟! يا للعجب ...! والعجيب أيضاً أنه « لا يستحى أن يدعوهم أخوة » (عب ٢ : ١١) . وأعجب من الكل أن يقال عنه أنه « يشبه أخوته فى كل شيء » (عب ٢ : ١٧) ... وهكذا نرى السيد المسيح يقول للمريميتين « إذهبا قولوا لأخوتي أن يمشوا إلى الجليل ، هناك يروني » (متى ٢٨ : ١٠) . ويكرر نفس العبارة للمجدلية « إذهبي وقول لهم » (يو ٢٠ : ١٧) .

ولم يقل هذا التعبير عن الرسل فقط ، بل قاله عن الكل ... « من يصنع مشيئة أبي الذى فى السموات هو أخى ، وأختى ، وأمى » (متى ١٢ : ٤٨) . وقال عن الخير الذى يعمل مع الفقراء والمساكين « الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد أخوتي هؤلاء الأصاغر فى قد فعلتم » (متى ٢٥ : ٤٠) .

إذن فأنت يا أخى للمسيح ، وأنت أيضاً وريث معه ... للمواعيد ، وللمجد العتيدي . إن كان قد قيل عنه فى مثل الكرامين الأردباء إنه هو الوارث (متى ٢١ : ٣٨) ، فقد قيل كذلك «إننا ورثة أيضاً ، ورثة الله ، ووارثون مع المسيح » (رو ٨ : ١٧) .

إعرف يا أخى إذن مقدارك من أنت : أنت أخ للمسيح ، وأنت وريث معه وليس هذا فقط بل أنت شريك له كذلك ...

« إن لنا شركة معه » (١ يوحنا ١ : ٦) . إنه اشترك معنا فى اللحم والدم (عب ٢ : ١٤) . ونحن إنما نؤدب «لكى نشترك فى قداسته» (عب ١٢ : ١٠) . نشترك معه فى الآمه ، لكى نشترك فى الفرح باستعلان مجيئه (١ بط ٤ : ١٣) . قد دفنا معه (فى المعمودية) لكى نقوم معه (رو ٦ : ٤ ، ٥) . وسنعيش حياتنا عاملين معه (١ كو ٣ : ٩) . ونتألم معه ، لكى نتمجد معه (رو ٨ : ١٧) . وسنأتى معه على السحاب (يه ١٤) ونكون معه فى كل حين (١ تس ٤ : ١٧) وحيثما يكون هو نكون نحن أيضاً (يو ١٧ : ٢٤) .

إنها شركة لك مع المسيح تبدأها الآن أيها الأخ المبارك وتستمر معك إلى الأبد . فاحرص على هذه الشركة المقدسة لأنك بالخطية تفقدها .

إنك لا تستطيع أن تستمر شريكاً للمسيح إن كنت تسير فى الخطية ... لأن الكتاب حينئذ سيوبخك بقوله «أية خلطة للبر والإثم؟! أية شركة للنور مع الظلمة؟! وأي اتفاق للمسيح مع بليعال؟! ...» (٢ كو ٦ : ١٤ ، ١٥) . إنك عندما تفعل الخطية ، تكون كمن يقول للرب : لقد فككت الشركة التى بينى وبينك . وقد بحثت لى عن شريك غيرك . أنا الآن شريك للشيطان ، ولم أعد شريكاً لك بعد ...! أنظروا أى مجد يكون لنا عندما نسير فى طريق الله ، وأى نزول وانحدار وسقوط عندما نبعد عنه ...

ككيف يمكن أن تفعل الخطية ، أنت يا شريك المسيح ، شريكه في العمل وفي الآلام وفي المجد ١٤ أنت الذى تلبس المسيح فى المعمودية (غل ٣ : ٢٧) ، وتحيا ، لا أنت ، بل المسيح الذى يحيا فيك (غل ٢ : ٢٠) ...
وأنت لست فقط شريكاً للمسيح وإنما أيضاً :

أنت شريك المسيح فى العمل

وهكذا فإنه من البركة التى يعطينا إياها بولس الرسول أن تكون «شركة الروح القدس ، مع جميعنا» (٢ كو ١٣ : ١٤) . هذه البركة التى نأخذها من الكنيسة فى آخر كل اجتماع ، وفى بداية القداس أيضا ...

أنت شريك للروح القدس ، ليس فى الجوهر ، وإنما فى العمل . إنه يعمل فيك ، ويعمل معك ، ويعمل بك ، من أجل خلاص نفسك ، ومن أجل خلاص الناس ، فى نشر ملكوت الله ، وفى بنيان جسد المسيح . أنت لا تعمل وحدك ، وإلا كنت معتمداً على ذراعك البشرى ، «وإن لم يكن الرب البيت ، فباطلاً تعب البنائون» (مز ١٢٧ : ١) . الروح القدس هو يشترك معك فى العمل ... وهو لا يعمل وحده ، وإنما يشركك معه ، لتأخذ بركة ... أنت إذن شريك للروح القدس ، شريك للطبيعة الإلهية ، فى العمل ...

والروح القدس يعمل معك دائماً للخير . وعندما تعمل الشر أو الخطية ، إنما تعمل وحدك ، وتكون قد رفضت شركة الروح القدس ...

لذلك يقول الكتاب عن حالة الخطية «لا تحزنوا روح الله القدوس الذى به ختمتم» (أف ٤ : ٣٠) ، ويقول أيضاً «لا تطفئوا الروح» (١ تس ٥ : ١٩) . وإذا استمر الإنسان فى حالة الخطية ، فربما يتعرض لما خاف منه داود النبي حينما قال «روحك القدوس لا تنزعه مني» (مز ٥٠ : ١١) ... !!

يا أخشى ما أعجب أن يقال عنك إنك «شريك الطبيعة الإلهية» (٢ بط ١ : ٤) ... بل ما أعجب أن يعاتبنا الرب بقوله : «أنا قلت أنكم آلهة (١) ، وبنو

(١) ليس معناها أننا آلهة ، من طبيعة الله ، وإنما من حيث أننا صورة الله ومثاله . آلهة هنا بمعنى سادة ، كما قال الرب لموسى «قد جعلتك إلهاً لفرعون» (خر ٧ : ١) . ليس كخالق له ، حاشا ، إنما كسيد له ...

العلی کلکم» (مز ۸۲: ۶) ... یا هذا المركز الكبير، ويا هذه الشهادة العظيمة...! أو بعد هذا كله نخطيء؟ أیصح أن یخطيء إله؟! ویتمرغ فی الدنس، وفي التراب، وفي النجاسة...!

هل عندما نخطيء تكون شريكاً للطبيعة الإلهية؟! كلا، بل شريكاً للشيطان لأن الكتاب يقول «الذي يفعل الخطية هو من إبليس، لأن إبليس من البدء يخطيء. بهذا أولاد الله ظاهرون، وأولاد إبليس (ظاهرون)» (۱ یو ۳: ۱۰). إننا عندما نخطيء ننسى مجدنا العظيم، ونفقد مراكزنا... ولذلك فإن الله بعد أن قال لنا «أنا قلت إنكم آلهة...» أكمل قائلاً «ولكنكم مثل البشر تموتون، وكأحد الرؤساء تسقطون» (مز ۸۲: ۷) ... ومن هو هذا الرئيس الذي سقط؟ إنه الشيطان، الذي كان قبلاً رئيس ملائكة...!

إن الإنسان الذي يخطيء، هو إنسان لا يعرف مقدار ذاته. لذلك قيل عن الخاطيء إنه جاهل. عجيب أنه بعدما أكل من شجرة المعرفة صار جاهلاً! لأنه اتمس المعرفة بعيداً عن الله، أو اتمس معرفة تفصله عن الله. فلا يعرف ما هي ذاته، ولا من هو الله، ولا ما هي العلاقة بينها...

يا أخى، إعرف ذاتك، من أنت، حينئذ لا تخطيء...

انت، عضو المسیح، یولد بطاهر

إن الكنيسة هي جسد المسيح، والمسح رأسها. ونحن - جماعة المؤمنين - هم الكنيسة. إذن فنحن جسد المسيح (أف ۴: ۱۱). بل إننا «أعضاء جسمه، من لحمه ومن عظامه» كما يقول الرسول (أف ۵: ۳۰).

كل عضو فيك، هو عضو المسيح. ولذلك ففي كلام الرسول عن خطية الزنى قال «ألستم تعلمون أن أجسادكم هي أعضاء المسيح. أفأخذ أعضاء المسيح وأجعلها أعضاء زانية؟! حاشا...» (۱ كو ۶: ۱۵).

فكيف نخطيء ونحن جسد المسيح؟!

كيف نخطيء إلى الرب الذي يعتبرنا كشخصه تماماً ، كل ما يمينا يسه ؟! ...
 ليس أنه عندما عاتب شاول الطرسوسي ، لم يقل « لماذا تضطهد المؤمنين » ، وإنما
 قال له « لماذا تضطهدني » (أع ٩: ٤) ، لأنه يعتبرنا كشخصه تماماً . وعندما يطوب
 الرحماء في اليوم الأخير، سوف لا يقول لهم : أنتم أطعمتم الجياع وسقيتم العطاش ،
 وإنما سيقول لهم « كنت جوعاناً فأطعمتموني ، وعطشاناً فسقيتموني »
 (مت ٢٥: ٣٥) . إلهنا هذا المحب ، الذي يعتبرنا كشخصه تماماً ، كيف يمكن أن
 نخطيء إليه ، ونجرح قلبه الحساس الخنون ؟!

إن الشخص الخطيء ، إنما يقطع ذاته من جسد المسيح ، لأن جسد المسيح
 مقدس كله ...

وعضويتنا في جسد المسيح يوضحها قوله « أنا هو الكرمة ، وأنتم
 الأغصان » (يو ١٥: ٥) ، فعصارة الكرمة تصعد وتسرى إلى الأغصان فتمنحها
 الحياة ... وكل غصن في الكرمة تكون له صورة الكرمة ، وله ثمر الكرمة ، وله طبيعة
 الكرمة ، فهو صورة مصغرة من الكرمة نفسها ، وهو الكرمة شيء واحد .

فهل أنت غصن حقيق في هذه الكرمة الإلهية ؟ وهل أنت تصنع ثمرأ
 بمليق بغصن حي ؟ إن المفروض في أغصان الكرمة أن تعطى ثمارأ تماثلها ، أن
 تثمر عنبأ يفرح الرب به ويشرب من نتاجه جديداً في ملكوت الآب
 (مت ٢٦: ٢٩) . ماذا تظنه كان يقصد عندما قال للمرأة السامرية « أعطيني
 لأشرب » (يو ٤: ٧) . أتراه كان يريد منها ماءً ، أم كان يريد أن يشربها هي ،
 كان عطشانأ إلى نفسها ليضمها إلى ملكوته . كان يريد أن يشرب من نتاج
 الكرمة ، من عصيره الذي سكب في قلب تلك المرأة ...

فهل تسرى فيك عصارة الكرمة أيها الأخ المبارك ؟ هل تتمشى عصارتها في كل
 عروقك ، وتجعلك تورق وتثمر ؟ وهل أنت تثمر عنبأ أم شوكأ ؟ فإن كنت تعطى
 شوكأ ، فلست إذن عضوأ في الكرمة . وقيناً أن العصارة التي تسرى فيك ليست
 هي من الكرمة ... إعلم إذن أن الغصن الذي لا يصنع ثمرأ ، لا ينفع ولا يصلح ،
 بل يقطع ويلقى في النار (يو ١٥ : ٦) ...

وإذا قطع ، لا يصبح بعد عضوأ في الكرمة ... لقد انتهى أمره !!

إن الإنسان السائر في الخطية ، هو غصن معاند ، قد رفض عصارة الكرمة ، رفض أن تسرى العصارة في عروقه ، فجف وسقط ، أو قطع وألق في النار. أما الصالح ، فهو على العكس يفتح شرايينه جيداً لكي تدخل فيها عصارة الكرمة ، وهذا ينتج ثمراً ، فينقيه السيد الرب ليأق بشمر أكثر...

ما هو نتاج الكرمة الذي تريد أن تشربه هنا يارب ؟

هو ثمركم ، أريد أن أتغذى بشماركم ، بشمر الروح فيكم (غل ٥: ٢٢) . هذا الثمر هو عمل الله فيكم . هو نتيجة تمشي عصارتي في عروقكم . من أجل هذا إن تذكرتم على الدوام أنكم أغصان في كرمي ، وأعضاء في جسدي ، فليس فقط سوف لا تخبطون ، وإنما بالأكثر سوف تثمرون ، وأفرح بشمركم .

هل عرفت يا أخي مقدارك العظيم . أنت لست فقط عضواً في جسد المسيح ، إنما أيضاً :



أنت تأكل جسد المسيح وتشرب دمه ، فثبت فيه ، ويجري في عروقك دم المسيح الطاهر النقي القدوس . ما أسماك وما أطهرك ! ... كتب أحد الأشخاص في مذكرته بعد تناوله :

هذا القم المقدس الذي تناول جسد الرب ودمه :
كلمة زائدة لا تخرج منه ،
ولقمة زائدة لا تدخل فيه ...

تذكر يا أخي باستمرار أن فك يتناول جسد الرب ودمه ، حينئذ لا يمكن أن تخرج منه شتيمة ، أو أغنية عالمية ، أو مزاح باطل ، أو كذب ، أو قسم ، أو غضب ، أو باق خطايا اللسان ...

وتذكر أن جسدي هذا يحمل فيه جسد المسيح ، حينئذ تخاف أن تنجس هذا الجسد أو تجعله أداة للخطية ...

أيها الأخ المبارك ، لا تنس نفسك ، أذكر من أنت ، وماذا يليق بك ، فلا تحطىء ...

قال أحد القديسين

« يسبق كل خطية : إما الغفلة . وإما الشهوة . وإما النسيان ...

وفعلاً ، يسبق الخطية النسيان ...

فنحن ننسى أنفسنا أننا صورة الله ، وأننا شبهه ومثاله ، وأننا أولاده ، وأننا
مسكن لله ، وهياكل للروح القدس . وننسى أننا أخوة المسيح ، وشركاء الروح
القدس ، وشركاء الطبيعة الإلهية ، وننسى أننا أعضاء في جسد المسيح ، وأننا نتناول
جسده ودمه ...

لذلك نخطيء ... وإن تذكرنا حقيقتنا ، ما أخطأنا ...

إنك في حالة الخطية ، تكون قد نسيت كل أمجادك هذه ،

أو تكون قد فقدت كل أمجادك ... وضعت ...



الفصل الثاني

لكي يتوب الإنسان ، لا يكفي أن يعرف من هو ..
إنما يجب أن يعرف أيضاً ما هي الخطية ...
ما هي طبيعتها الخاطئة ، وعقوبتها ، ونتائجها ، وأضرارها ...
لذلك نقول لك :

ان عرف ما هي الخطية

تهرب من الخطية

الخطية هي موت

حقيقى أن « أجرة الخطية هي موت » (روم ٦ : ٢٣) ، « والخطية إذا
كملت تنتج موتاً » (يع ١ : ١٥) . ولكن بالإضافة إلى أن عقوبة الخطية هي
الموت ، نقول إن الخطية ذاتها هي حالة موت ، موت أدبى وروحى .

والشواهد على ذلك كثيرة :

فى مشال الإبن الضال ، قال الآب « لأن ابنى هذا كان ميتاً فعاش ، وكان
ضالاً فوجد » (لوقا ١٥ : ٢٤) . فوصفه بأنه فى حالة الخطية « كان ميتاً » . ولم يصبح
حياً إلا بعد رجوعه ...

والقديس بولس الرسول يقول عن الأرملة المنتعمة إنها « ماتت وهى حية »
(اتي ٥ : ٦) . كما يقول عنا جميعاً « كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا » (أف ٢ :
١) . « ونحن أموات بالخطايا ... » (أف ٢ : ٥) .

وعندما أخطأ ملاك (راعى) كنيسة ساردس ، أرسل إليه الرب رسالة على فم
القديس يوحنا الرائى يقول له فيها « أنا عارف أعمالك ، أن لك إسماً أنك حى
وأنت ميت » (رؤ ٣ : ١) .

فالإنسان الخاطيء هو شخص ميت ، لأنه انفصل عن الحياة الحقّة
بانفصاله عن الله ، والله هو الحياة ...

ألم يقل السيد المسيح « أنا هو القيامة والحياة » (يو ١١: ٢٥) . « أنا هو
الطريق والحق والحياة » (يو ١٤: ٦) . حقاً « فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور
الناس » (يو ١: ٤) . فالذى انفصل عن المسيح بالخطية ، إنما انفصل عن الحياة ،
فيعد ميتاً ، مهما كانت فيه أنفاس تتردد . لذلك صدق القديس أوغسطينوس عندما
قال :

موت الجسد ، هو انفصال الروح عن الجسد ،
وموت الروح ، هو انفصال الروح عن الله .

فالخاطيء إذن هو إنسان ميت ، مهما ظن أنه حي وأنه يتمتع بالحياة !! إن
الخطاة لا يفهمون الحياة فهماً سليماً . يظنونها مجرد تمتع بالعالم ولذاته . وهكذا
عندما تتحدث إلى أحد الخطاة عن التوبة ، يجيبك قائلاً « أتركني أتمتع بالحياة » .
يظن هذه المتعة الجسدية حياة ، وهي موت ! كما قيل عن الأرملة المتنعمة أنها ماتت
وهي حية .

فإن كانت الخطية موتاً ، ألا يجدر بنا أن نسأل أنفسنا :
أحقاً نحن أحياء ؟! كم هي إذن سنو حياتنا على الأرض ؟

غالب الظن أننا سنجيب على هذا السؤال بنفس إجابة أبينا يعقوب ، عندما
قال لفرعون « أيام سنى غربتى ... قليلة وردية ... ولم تبلغ إلى أيام سنى حياة آبائى »
(تك ٤٧: ٩) .

حياتنا تقاس فقط بالأيام التي قضيناها مع الرب ثابتين في محبته . أما فترات
الخطية في حياتنا فهي فترات موت . لا تقل إذن « أنا في الأربعين من عمري » !
فربما حياتك كلها لم تبلغ عشر سنوات مع الله . يا أخى إسأل نفسك : هل أنت
حي أم ميت ؟!

أخشى ما أخشاه أن تنطبق على أحد فينا العبارة التي قالها الرب لملاك كنيسة
ساردس :

« أن لك إسماً أنك حى وأنت ميت » ... ! (رؤ ٣ : ١) .

ترى إن نزل ملاك الآن ليعد الأحياء الموجودين في الكنيسة ، من منا يجده حياً ، ومن منا يجده ميتاً؟! يا للخجل ، عندما نعرف حقيقتنا ، أحقاً نحن أحياء أم أموات بالخطية ؟

بهذا يحكم كل منا على نفسه :

كل يوم منمر وثابت في الرب ، هو يوم حى
وكل يوم مر في الخطية ، هو يوم ميت .

وهذا يمكن أن تعرف عمرك وكم سنة لك ...

فلا تسمح يا أخى أن يضيع يوم من أيام حياتك ، وموت ويدفن إلى الأبد . لأن الأيام التي تذهب لا يمكن أن تعود . أما الأيام الحية فهي خالدة ... هناك لحظات في حياة الإنسان تقتدر كثيراً في فعلها . الدقيقة تساوى سنوات أو قد تساوى أجيالاً ...

لذلك عش حياتك كاملة ، دسمة ، غنية ، مشمرة ... تصور ساعة في حياة بولس الرسول ، لها ولاشك قيمتها وقوتها ، وربما تكون هذه الساعة أطول من حياة إنسان آخر بأكملها .

يا أخى ، لا تفتخر باطلاً ، ولا تقل بغير حق : أنا ابن الله ، أنا صورته ومثاله . أنا هيكل للروح القدس ، أنا شريك للطبيعة الإلهية ، أنا عضو في جسد المسيح ... !! كلا ، إن كنت خاطئاً فأنت ميت ، ولست شيئاً من هذا كله ... تقول لله « أنا ابنك » ، فيقول لك « إذهب عنى ... لا أعرفك » ...
إن الخطية هي موت ... وهى أيضاً ضلال ، وضياع ، وتوهان ...

الخطية ضلال وضياع

في الأصحاح الخامس عشر من الإنجيل لمعلمنا لوقا البشرى ، توجد ثلاثة أمثال تشرح لنا كيف أن «الخطية هي ضلال وضياع وتوهان» . مثال الإبن الضال ، ومثال الخروف الثالث ، ومثال الدرهم المفقود ...

الإبن الضال ، ضل نتيجة شهوات قلبه ، بقصد ومعرفة وتديير ...
والخروف الضال ، تاه عن غباء وعدم معرفة وقلة خبرة ...
والدرهم المفقود ، أضاعه غيره ، أو وقع وظل واقماً لا يتحرك ...

إنه أمر مؤسف حقاً ، أن ينظر الله في كيسه ، فلا يجدهك ... أمر مؤسف ، أن
يعد الله دراهمه و فلا تكون في وسطها ... ويظل الله يبحث عنك في كيسه وفي كل
موضع ، أين تراك وقعت ، فلا يعثر عليك ... وأخيراً يعلنها حقيقة مؤلمة : لقد كان لي
درهم ، ولكنه ضاع ... نعم ، ضاع و فقد ولم يعد له وجود ... أخشى عندما يحصى الله
شعبه ، ألا توجد أسماء مكتوبة في سفر الحياة ، لأن الخطية قد أضاعتها .

أتعرف هذا يا أخى ، أنك عندما تسير في طريق الخطية ، تكون قد
ضعت ، ولم تعد في يد الله ... ! نعم ، إن الخطية هي ضياع ، هي ضلال ، هي
توهان . والخطيء هو إنسان تائه ، سواء تاه بإرادته ، أم بجهله ، أم أتاهه غيره ...

إن الإبن الضال عندما خرج من بيت أبيه ، ظن أنه قد وجد نفسه و قد وجد
حريته ، وقد وجد ثروته و تمتعه وأصحابه ... ولكنه في الواقع ، لم يكن قد وجد نفسه
بل أضاعها ...

والخروف الضال ربما شعر أنه قد ترك الخطيرة الضيقة المغلقة ، إلى الفضاء
الرحب الواسع المفتوح . وأخيراً وجد أنه تاه ، وابتعد عن راعيه وعن أحبائه ...
إن الخطيء يفهم الحرية والمتعة فهماً خاطئاً ... وبنفس الوضع ، إن بطن الخطية
نصرة تكون له هزيمة ...

الخطية هزيمة لا نصرة

لنفرض أن إنساناً أهانك فأهنته ، واشتدت عليه فغلبته ، وأفحمته وأسكته ،
واعتدى عليك فاعتديت عليه بالمثل أو بأضعاف ذلك ، أتراك إذن قد انتصرت ؟!
كلا ، بل انهزمت ، لأنك قد انغلبت من الإثارة ، وانفعلت ، ولم تقو على
الإحتمال ، وغلبتك الخطية .

ربما تقول « أنا دافعت عن كرامتي ... أنا لم أترك هذا الإنسان يطغى على ، بل أوقفته عند حده وانتصرت عليه ». قد تكون هكذا منتصراً في عيني نفسك ، ولكنك في واقع الأمر مهزوم : قد هزمتك خطية الغضب ، وهزمتك خطية المجد الباطل ، وهزمتك خطية الإدانة ، وخطية الإنتقام ، وعدم المحبة . وعدم الإحتمال ... لذلك يقول الكتاب في (رو ١٢: ٢١) :

« لا يغلبك الشر ، بل إغلب الشر بالخير »

إن الإنسان الخاطيء ، هو إنسان مغلوب من الخطية ، وما أكثر الأسباب : هناك إنسان يهزم أمام الجسد ، وآخر يهزم أمام الكرامة ، وثالث يهزم من شهوة الطعام ، ورابع يهزم أمام المال ، وآخر أمام الغضب ، وآخر أمام الحقد ... الخ .

قد ينظر إنسان إلى امرأة ويشتهيها ، فيزني بها في قلبه . وفي كل ذلك يظن أنه قد لذذ نفسه وتمتع بذلك المنظر . ولكنه في الحقيقة يكون قد انهزم أمام الخطية وسقط . منظر واحد قد غلبه وجعله يقع في الشهوة ... وقد تنظر الملائكة إليه من السماء وتقول :

« مسكين هذا الإنسان الضعيف ، لم يستطع أن يحتمل منظرًا من المناظر فسقط ... باع الملكوت وخسره من أجل منظر تافه » .

فالإنسان الخاطيء هو إنسان مهزوم ومغلوب مها أحاط نفسه بمظاهر القوة الزائفة ، والإنسان البار قد يبدو - في نبهه ، وسموه - مهزوماً أمام الناس ، ويكون في قمة انتصاره . والأمثلة على ذلك كثيرة ...

قايين مثلاً عندما قام على هابيل وقتله ، هل كان في قتله لأخيه منتصراً أم مهزوماً ؟ ربما ظن في نفسه في بادئ الأمر أنه قد انتصر على أخيه ، لأنه استطاع أن يضربه ويلقيه على الأرض ويقتله . ولكنه في حقيقة الأمر كان مهزوماً . لقد انهزم أمام الحسد والغيرة . وانهزم أمام الغضب والحقد ، وفقد محبته ، وهزمه شيطان القسوة ، وهزمته خطية القتل ... وهذا الذي ظن نفسه قوياً ، عندما وقف أمام الله ، ارتجف وارتعب فقال قايين للرب : « ذنبي أعظم من أن يحتمل . أنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ، ومن وجهك أختفي ، وأكون تائهاً وهارباً في الأرض . فيكون كل من وجدني يقتلني » (تك ٤ : ١٣ ، ١٤) .

فَسَكِينِ قَائِبِينَ ... إنسان ضعيف غلبته الخطية . كذلك كان هيرودس الملك أيضاً عندما قبض على يوحنا المعمدان وألقاه في السجن ، وأراد أن يسكت هذا الصوت الصارخ في البرية فلم يفلح فقطع رأسه . فهل كان هيرودس قوياً عندما قتل يوحنا ، أم بالحرى كان ضعيفاً أمام شهوته وعزته وكبريائه . وانقياده للنساء ... ؟! أكبر دليل على ضعفه ، أنه ظل يخاف من يوحنا حتى بعد موته . فلما ظهر المسيح ظن هيرودس أنه يوحنا قد قام من الأموات (مت ١٤: ٢) .

وهكذا أنت أيضاً عندما تتسلط على غيرك ، وتبينه وتشتمه وتجرحه وتتهكم عليه ، ويبدو هو ضعيفاً ذليلاً أمامك لا يستطيع أن يقابلك بالمثل ... أترك تظن نفسك قد انتصرت ؟! كلا ، بل هزمتك كل هذه الخطايا ، وغلبك الشر...

إن الخاطيء يظن النصره حيث توجد الهزيمة ، ويظن اللذة حيث يوجد الضياع ، ويظن القوة حيث يوجد الضعف ... لذلك قال الكتاب «لأنهم مبصرين لا يبصرون ، وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون» (مت ١٣: ١٣) .

وبنفس هذا المقياس الخاطيء نظر البعض إلى صليب المسيح له المجد . فظن غير الفاهمين أن صلبه كان دليلاً على الضعف والهزيمة أو دليلاً على انتصار أعدائه عليه ، وكان الواقع عكس ذلك تماماً .

لقد كان صالבו المسيح في موقف الهزيمة وليس في موقف النصره . لقد انهزموا أمام حسدهم وغيرتهم منه . وانهزموا أمام شياطين الكذب والقسوة والجبن ونكران الجميل . أما السيد المسيح فاستطاع أن ينتصر في محبته وبذله ، ويقدم لنا الخلاص ، ويحطم مملكة الشيطان ، ويفتح الفردوس لمنتظريه ويتم عمل الفداء العظيم ... كانت منتصراً على طول الخط ، بعكس صالبيه الذين رجع كثيرون منهم وندموا ...

كانت أحكام الناس مختلفة ، فالخطية هي ضعف وهزيمة ... وماذا عن الخطية أيضاً :

الخطية إنفصال عن الله

الخطية إنفصال عن الله ، لأنه « آية شركة للنور مع الظلمة ، وأى اتفاق للمسيح مع بليعال » (٢ كو ٦ : ١٤ و ١٥) .
وهكذا نرى أن الإبن الضال - في خطيته - قد خرج من بيت أبيه وانفصل عنه .

والخطية ليست مجرد إنفصال عن الله ، وإنما هي خصومة معه ..
إن العالم عندما أخطأ ، وقع في خصومة مع الله عبر عنها طقسياً بالحجاب المتوسط الذى كان يفصل المؤمنين عن قدس الأقداس . لذلك عندما جاء السيد المسيح ، أقام صلحاً بيننا وبين الله ، ونقض الحاجز المتوسط ، وقيل عنه في القداس «صالحت الأرضيين مع السمايين» . صالحهم لأن الخطية كانت قد سببت خصومة بينهم وبين الله . من أجل هذا نصلى صلاة الصلح قبل أن نبدأ القداس ... قبل أن نتناول نصلح أولاً مع الله .

الإنسان الخطيء بينه وبين الله خصومة . قد أغضب الله وأحزنه وانفصل عنه : ترك بيته وكهنته ، وترك كتابه ووصاياه ، وترك جسده ودمه ، وترك الكلام معه أيضاً - هناك خصومة إذن ...

وكلما ازدادت الخطية ، ازدادت الخصومة ، وازداد الإنفصال عن الله . لقد وصلت هذه الخصومة بين الله والناس إلى حد مريع في أيام أرمياء النبي ، لدرجة أن الله قال لنبيه « لا تصل لأجل هذا الشعب . ولا ترفع لأجلهم دعاء ولا صلاة ، لأنى لا أسمع لك » (أر ١٢ : ١٤) . ووصلت الخصومة إلى درجة أن قال الله « وإن وقف موسى وصموئيل أمامى ، لا تكون نفسى نحو هذا الشعب » (أر ١٥ : ١) .

ووصلت الخصومة إلى حد أن قال الله للعداوى الجاهلات «الحق أقول لكن إنى لا أعرفكن» (مت ٢٥ : ١٢) . وقال لآخرين «إنى لم أعرفكم قط . إذهبوا عنى يا فاعلى الإثم» (مت ٧ : ٢٣) . «لا أعرفكم من أين أنتم . تباعدوا عنى يا جميع فاعلى الظلم» (لو ١٣ : ٢٧) ... «لا أعرفكم» !! ياللهول ، ويا للنجل ...
الله ينكر معرفته بالإنسان ، وينكر صلته به ، ويتبرأ منه ومن خلطته ، ويعده عنه ... أى ألم هذا ، وأية فضيحة ...

وفي الخصومة ، قد تصل الخطية في بشاعتها إلى درجة العداوة مع الله . وهكذا يقول القديس يعقوب الرسول « أما تعلمون أن محبة العالم عداوة لله . فمن أراد أن يكون محباً للعالم فقد صار عدواً لله » (يع ٤ : ٤) . وهذا المعنى يؤيده أيضاً القديس يوحنا الرسول بقوله « إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب » (١ يو ٢ : ١٥) .

بعكس ذلك محبو الله ، في صداقتهم له ، ودالتهم عليه ...

مشتان بيت : دالة وخصومة

إن عرفنا مقدار الدالة التي بين الله وعبيه . تملكنا الغيرة ، ويلتهب قلبنا فنود أن نكون مثلهم . وسنحاول هنا أن نستعرض بعض أمثلة :

قيل عن أبينا إبراهيم إنه خليل الله . ونحن نستشفع به في الصلاة ، فنقول لله في صلاة الساعة السادسة « من أجل إبراهيم حبيبك ... » . إنه حبيب الله ، صديقه ، بينه وبين الله دالة ...

عندما أراد الله أن يحرق سدوم ، قال الرب « هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله !؟ » (تك ١٨ : ١٧) . ياللعجب !! إن الله لم يرد أن يحرق سدوم قبل أن يخبر إبراهيم أولاً ويتفاهم معه في الموضوع ... ومن يكون إبراهيم هذا يارب ؟ أليس حفنة من « تراب ورماد » (تك ١٨ : ٢٧) . كلا - يجيب الرب - إنه حبيبي وصديقي . لا بد أن أخبره أولاً وآخذ رأيه . لا يصح أن يفاجأ بالموضوع كبقاي الناس ...

ويخبر الله إبراهيم . ويتفاهم معه إبراهيم بدالة « أفتهلك البار مع الأثيم ... حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر ... حاشا لك . أديان الأرض كلها لا يصنع عدلاً !؟ ... إنه أسلوب قد لا نستطيع أن نكلم به بعض البشر خوفاً منهم ، ولكن إبراهيم يكلم به الله بكل جرأة ودالة . ويظل يتفاوض معه : عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة ... ربما نقص الخمسون باراً خمسة ... عسى أن يوجد هناك أربعون ... ثلاثون ... عشرة ... ويستجيب الرب ويقول « لا أهلك من أجل العشرة ... » (تك ١٨ : ٣٢) .

إنها صداقة مع الله ... عجب أن يوجد أناس لهم صداقة مثل هذه مع الله ، يتفاهم معهم ، ويتفاهمون معه ...

● نفس الوضع الذى حدث لإبراهيم مع الله ، حدث لموسى أيضاً ... صنع اليهود عجلاً من ذهب وعبدوه . فغضب الرب جداً من هذه الخيانة التى خانوه بها ، بعد سلسلة من المعجزات عملها معهم ، وبعد سلسلة من الإحسانات قدمها إليهم . وفكر الله أن يهلك هذا الشعب . ولكنه رأى أن يخبر موسى أولاً . وبعد أن شرح الرب لموسى كيف أن هذا الشعب صلب الرقبة قال له « أتركنى ... لأفنيهم » (خر ٣٢ : ١٠) .

ونحن نقف فى خشوع أمام كلمة « أتركنى » ... ما معنى هذا الكلام أيها الرب إلهنا القادر على كل شيء ... هل أنت محتاج أن يتركك موسى لتفعل ؟ هل هو ممسك بك لينعك ؟ وهل هو يستطيع ؟

على أن عجبنا يزداد ، ليس فقط من كلام الله ، بل بالأكثر من رد موسى ... فكما قال يعقوب للرب وهو يصارعه « لا أتركك ... » (تك ٣٢ : ٢٦) ، هكذا قال موسى للرب ... فى جرأة ودالة المحبة قال له « إرجع يارب عن حو غضبك ، واندم على الشر » (خر ٣٢ : ١٢) ... كلام جرىء عجيب ... من يستطيع أن يقوله للرب ، بل من يستطيع أن يقوله لأحد الرؤساء على الأرض ...؟! ويعلل موسى احتجاجه : لئلا يقولوا قد أخرجهم بخبث من أرض العبودية ، لكى يهلكهم فى الفقر ...

والعجيب أن الله لم يغضب من موسى ، بل وافقه ... ونفذ له ما يريد ... ويقول فى ذلك الكتاب « فندم الرب على الشر الذى قال أنه سيفعله » (خر ٣٢ : ١٤) ... ما هذا يارب ؟ يجب إنهم أصدقائى ، هم دالة عندى . عجيباً ! أى رجل هو موسى هذا؟! بل أية دالة هى هذه بين الله وأحبائه ... إن قرأ خاطيء عنها ، يشعر بجمرة الغيرة تلهب قلبه ... ليترك ما هو فيه ، ويصير مثل هؤلاء ...

● مثال آخر نقرأه عن موسى :

يقول الكتاب إنه كان على الجبل مع الرب « أربعين يوماً وأربعين ليلة » (خر ٣٤ : ٢٨) ، هل تظنون أن كتابة الوصايا العشر على اللوحين كانت تستغرق كل هذه المدة من الله؟! هل تحتاج كتابتها إلى يوم من الله ، إلى ساعة أو دقائق ، أو

إنما الله قد استبق موسى أربعين يوماً على الجبل ، لأنه صديقه وحبيبه
وكليمه ... الله يفرح بوجود موسى معه لأنه ابنه ... وموسى يفرح بالوجود في حضرة
الرب يتمتع به ...

والا قولوا لى آية مهمة كانت تقتضى الأربعين يوماً ... كل الوصايا التى أخذها
موسى من الله لا تستغرق أكثر من يوم واحد . أما الباقي ، فهو فترة دالة وصدافة
ومحبة ...

إن الله له أصدقاء وأحباء ، قال لهم علانية « لا أعود أسمىكم عبيداً ...
بل أحبباء » (يو ١٥ : ١٥) . قيل إنه « كان يحب مرثا وأختها ولعازر »
(يو ١١ : ٥) . وعندما بكى على لعازر ، قال الناس « أنظروا كيف كان
يحبه » (يو ١١ : ٣٦) . والقديس يوحنا الإنجيلي قيل عنه مراراً « التلميذ
الذى كان يسوع يحبه » .

● إن الله له أحبباء ، لهم دالة كبيرة عنده وفي أيديهم يضع مفاتيح
السماء ... يستطيعون أن يفتحوا السماء ويغلقوها كما يشاءون ...
كلمة عجيبة نسمعها من إيليا النبي الذى قال « لا يكون ظل ولا مطر في هذه
السنين إلا عند قولى » (١ مل ١٧ : ١) ... عبارة (إلا عند قولى) عبارة عجيبة
وقوية . فلم يقل إيليا « عندما يشاء الله » أو « عندما يأذن الله » ، بل قال فى ثقة
وحزم « إلا عند قولى » ... وفعلاً أغلقت السماء حسب قوله ، وظلت مغلقة ثلاث
سنين وستة أشهر ... وكان جوع وتعب لكل الناس ... ولكن ظلت السماء مغلقة تنتظر
قول إيليا ... وعندما تكلم مرة أخرى ، أمطرت السماء ...

مفاتيح السماء هذه التى فى أيدي القديسين ، تكلم عنها الشيخ الروحاني فى
حديث عن صلاتهم ومفعولها ، فقال عنهم إنهم يكونون « ليس كمن يصلى ، وإنما
كمن يتقبل الصلاة ، كإبن أوّمن على خزائن أبيه ، يفتحها ويعطى منها
للناس ... » .

نسمع مثل هذا عن القديس المنتيج الأنبا ابرآم أسقف الفيوم ، يأتيه إنسان فى
مشكلة فيقول له « روح يابنى هاتلقيا اتحملت » . تأتيه امرأة تطلب نسلأ ، فيقول
لها « ماتزعليش السنة الجاية يكون عندك إبن ... » ، يقول هذا حتى بدون صلاة ،

ويحدث ما يقول عنه . إنها بركات يوزعها على الناس ، وهبات أخذها من الآب السماوي يعطيها بجنان لطالبيها ... ألا تملكنا الغيرة عندما نسمع عن أمثال هؤلاء ومكانتهم عند الله ...

• وأحباء الله هؤلاء ، لا يكتفى بمنحهم هذه الهبات ، إنما أيضاً يدافع عنهم ، ولا يقبل فيهم كلمة سوء ...

مثال ذلك : موسى النبي ... تزوج امرأة كوشية ، وكان يبدو أن هذا ضد الشريعة ، لأن الرب قد منع الزواج بالنساء الغريبات . وفعلاً تضايق بسبب هذا الزواج هرون أخو موسى ومرم أخته ، وتكلما عليه ... فصمت موسى ، لأنه كان حليماً جداً . ولكن الرب لم يصمت ، ولم يقبل أن يقول أحد كلمة رديئة عن حبيبه موسى حتى لو كان القائل هو هرون رئيس الكهنة ومرم النبية أخت موسى وهرون ...

فاستحضر الله هؤلاء الثلاثة ، وويح مريم وهرون توبيخاً شديداً وقال لها « إن كان منكم نبي للرب ، فبالرؤيا استعلن له وفي الحلم أكلمه . وأما عبدى موسى فليس هكذا ، بل هو أمين في كل بيتي . فأنا إلى فم وعياناً أتكلم معه ... فلماذا لا تخشيان أن تتكلمتا على عبدى موسى ؟ » (عد ١٢ : ١-٨) ، وضرب الله مريم بالبرص ، فإذا هي برصاء كالثلج ... فأخرجوها خارج المحلة سبعة أيام ...

ما هذا يارب الذى تفعله ؟! يقول :

إنه موسى عبدى ، حبيبي الذى ائتمنه على كل بيتي ، وأكلمه فأفلم ... كيف أسمع هؤلاء أن يهنوه وأنا صامت ؟! لا بد أن ينالوا عقوبة ، لكى يوقروه ، وكل من يسمع يوقره أيضاً ... لعل مثل هذا يفهم من قول الله لأبينا ابراهيم « وأبارك مباركك ، ولاعنك ألعنه » (تك ١٢ : ٣) ...

إنها كرامة عجيبة يعطيها الله لأحبابه . ليس فقط أن يكونوا مباركين ، بل أكثر من هذا أن يكونوا هم أنفسهم بركة (تك ١٢ : ٢) ... كما كان إيليا بركة في بيت الأرملة ، وكما كان يوسف بركة في بيت فوطيفار وفي أرض مصر ، وكما كان أليشع بركة في بيت الشوفيّة ...

• ومن الكرامة العجيبة التي يعطيها الله لأولاده ، المعجزات التي يجرها على أيديهم ...

معجزات كان يمكن أن يعملها الله بنفسه ولكنه يعهد بها إلى أحبائه ، ليكرمهم في أعين الناس ... إنسان مريض مثلاً يصل إلى الله أن يشفيه . فبدلاً من أن يشفيه الله بنفسه ، يرسل إليه الله أحد القديسين فيشفيه ... يرسل سيدتنا العذراء أو مارجرجس أو القديسة دميانة . ويمجد الناس العذراء ومارجرجس والقديسة دميانة ... ويفرح الرب ... ويتشد في آذان هؤلاء القديسين : من يكرمكم يكرمني ... أنا أكرم الذين يكرموني ...

ونسأل الرب : إلى أي حد تكرمهم ؟ فيقول :

يجلسون على اثني عشر كرسيّاً حولي ، ويدينون أسباط إسرائيل الإثني عشر (مت : ١٩ : ٢٨) ... نقول له يارب كيف يجلسون معك في مجدك ، أنت الذي تقف أمامك الملائكة ورؤساء الملائكة ؟ يقول « أنا أكرم الذين يكرموني » . ونسأله : كيف يجلس هؤلاء يارب على كراسي القضاء في يوم الدينونة ، بينما أنت الديان وحدك ، ديان الأرض كلها ، الذي تدين الأحياء والأموات ، وقد دفعت إليك كل الدينونة من الآب (يوه : ٢٢) ؟ يجيب إن لذق في بني البشر ... إنني أحبهم ، وسأكرمهم أكثر ...

إن كنت أنا ديان الأرض كلها ، فسيدنون الأرض ...

وإن كنت أنا ملك الملوك ، فهم سيملكون معي ...

وإن كنت سأجيء في مجدي على السحاب ، فسياتون على السحاب معي

سيكونون في كل حين معي ، حيث أكون أنا يكونون هم أيضاً ...

الله يكرم كل هؤلاء ، بحبته لهم ، وبسكناه معهم ، وبدفاعه عنهم ، وبإعطائهم مفاتيح السماء والأرض ، وإعلان كرامتهم للناس حتى يكرمهم أيضاً ، وبالذالة التي يعطيهم إياها حتى يكلموه من جهة أحكامه ...

هذه فكرة موجزة عن الذالة التي يجدها الأبرار عند الله ، والكرامة التي يمنحها

لهم ...

وعلى الجانب الآخر نجد الخطية عكس هذا ...
الخطية هي : حرمان من الله ،
وحرمان من الملائكة ،
وحرمان من مجمع القديسين .

الخطية حرمان من الله

إن الإنسان الخاطيء إما يحرم نفسه من الله ، يفصله ذاته وقلبه عن الله ...
فالخطية قبل كل شيء هي عدم محبة الله . لأنه واضح قول الرب « من
يحبني ، يحفظ وصاياي » (يو ١٤ : ٢٣ ، ٢٤) . وواضح أيضاً قول الرسول « إن
أحب أحد العالم ، فليست فيه محبة الآب » (١ يو ٢ : ١٥) . الذي يحب الله يلتصق
به ، وبكل ما يقربه إليه ... أما الذي يميل بقلبه إلى الخطية فإنه يبعد عن محبة الله ،
لأنه لا يستطيع أن يحب الله والخطية في وقت واحد .

والخطية هي أيضاً عصيان الله ، وثورة على الله ، وتمرد عليه :

هي عدم مخافة الله ، تطورت إلى استهانة بوصاياه ، وإلى كسر لها ، أمام الله
الذي يرى الإنسان أثناء ارتكابه للخطية ، في سهولة . فهي إذن عدم حياء من
الله ...

أما الأبرار فليسوا كذلك . هوذا يوسف الصديق عندما عرضت له الخطية يقول
في إباء وخشية « كيف أصنع هذا الشر العظيم ، وأخطيء إلى الله » (تك ٣٩ :
٩) ... لقد كان الله أمامه حينما عرضت الخطية عليه . وهكذا اعتبر أن الخطية هي
ضد الله ذاته ، وأنه بها « يخطيء إلى الله » ... وليس فقط إلى المرأة وإلى زوجها ...
وهذا المعنى نفسه قال داود النبي لله « إليك أخطأت ، والشر قدامك صنعت »
(مز ٥٠ : ٤) .

مادامت الخطية إذن موجهة إلى الله ، وقدام الله ، فهي إذن تمرد عليه ... إنها
ثورة على ملكوته ، وثورة على قداسته وصلاحه ، ومحاولة لطرده من القلب ، وتمليك
غيره مكانه ...

ولما كان الله غير محدود ، لذلك كانت الخطية الموجهة إليه غير محدودة ،
عقوبتها غير محدودة مثله . وإن قدمت عنها كفارة لا بد أن تكون كفارة غير

محدودة. وهذا أصبح غفرانها لا يتم إلا بذبيحة المسيح، ويوضع هذه الخطية على كتفيه ليحملها عنا، بكل ما فيها من نجاسة وعار...
الخطية تمرد على الله، وهي أيضاً معاندة لروح القدس.



روح الله الذى فيك، يريدك أن تحيا في القداسة التي تليق بأولاد الله وهو يعمل فيك للخير والبر. فإن سرت في طريق الخطية، تكون معانداً للروح...

لذلك يقول الكتاب « ولا تخزنوا روح الله القدوس الذى به ختمتم » (أف : ٤ : ٣٠). إذن فكل من يرتكب إحدى الخطايا، إنما يخزن روح الله...
ويقول الكتاب أيضاً « لا تطفئوا الروح » (١ تس ٥ : ١٩).

إن روح الله عندما يعمل في قلب إنسان. يلهبه بالحب، ويلهبه بالحماس نحو الخير، ويلهبه بالغيرة المقدسة على نشر ملكوت الله... لأن إلهنا نار آكلة (عب ١٢ : ٢٩). وكل من يحوى الله في داخله إنما يحوى ناراً ملتهبة... لذلك قيل عن الله: «الذى خلق ملائكته أرواحاً، وخدامه ناراً تلهب» (مز ١٠٤ : ٤). ولهذا أمرنا الرسول أن نكون «حارين في الروح» (رو ١٢ : ١١). لأن كل من يعمل فيه روح الله، لابد أن يلهب بالحرارة الروحية. أليس أن روح الله عندما حل على التلاميذ الأطهار، إنما حل عليهم بألسنة « كأنها من نار » (أع ٢ : ٣)؟!

لذلك كله، نقول أن من يفعل خطية، إنما يطفىء الروح كقول الكتاب... وإطفاء هذه الحرارة، يقوده إلى الفتور. وإذا استمر في الفتور يصل إلى برودة روحية، بحيث لا يؤثر فيه شيء من الوسائط الروحية التي تلهب غيره من الناس...

ومع كل هذا يظل روح الله فيه، ولكن حزيناً، وحرارته منطفئة...
ولكن أخوف ما نخافه على الخطيئة أن يفارقه روح الله... كما فارق شاول الملك فبقته روح ردىء من قبل الرب (١ صم ١٦ : ١٤). هذه الحالة المحزنة هي التي صرخ بسببها داود في صلاته قائلاً « لا تطرحني من قدام وجهك، وروحك القدوس لا تنزعه مني » (مز ٥١ : ١١)...

هذه الحالة الخطيرة هي التي يسمونها « التجديف على الروح القدس »..
 التجديف على الروح القدس ، هو الرفض الكامل الدائم لعمل الروح القدس في القلب ... من كثرة الشر ، يصل الإنسان إلى حالة من قساوة القلب ترفض كل عمل للروح حتى الموت ... وحينئذ لا يمكن أن يتوب ، لأن التوبة تأتيه نتيجة لعمل الروح القدس فيه ، لأن الروح ييكت الإنسان على الخطية (يو ١٦ : ٨) . وإذا لا يتوب لا يمكن أن ينال مغفرة . لأن القديسين قد قالوا « ليست خطية بلا مغفرة ، إلا التي بلا توبة » . وهكذا قيل إن خطية التجديف على الروح القدس لا مغفرة لها ...

لكننا لم نصل بعد إلى هذا الوضع المملوء بأساً ... ما يزال روح الله يعمل فينا للتوبة ... فعلينا أن نستسلم لعمل الروح ، ولا نرفضه ، بعناد ...
 إن كنا قد أحزنا روح الله من قبل ، فلا نستمر في إحزانه ...
 وإن كنا قد أطفأنا حرارته فينا ، فلا نستمر في إطفائها ...
 لا يصح أن نستمر في عنادنا ، لئلا يفارقنا الروح ، فنشبه الهابطين في الجب ...
 ليستنا نكره الخطية ، التي تعاند عمل روح الله فينا . فإن الخطية خاطئة جداً ، إنها فساد للطبيعة البشرية .

الطبيعة البشرية

من أجل هذا قيل عن الخطاة أنهم « زاغوا وفسدوا » (مز ١٤ : ٣) ...
 إن الإنسان هو صورة الله ومثاله . ولكنه في حالة الخطية لا يكون كذلك ، بل يكون قد فسد ، وفقد صورة الله ...
 لذلك أنا لا أوافق ذلك الذي يسقط ، فيدافع عن سقوطه قائلاً « هكذا شأن الطبيعة البشرية » ... « أنا معذور ، طبعى كده » !
 كلا ، ليست هذه هي الطبيعة البشرية كما خلقها الله الصالح ، الذي بعد أن خلق كل شيء ، نظر إليه فإذا هو حسن جداً (تك ١ : ٣١) .

طبيعتك البشرية يا أخى هي في أصلها صالحة جداً . إنما أنت تشكوفى سقوطك من طبيعتك بعدما فسدت بالخطية ... هذا الفساد هو الذى شكاه منه

الرسول قائلاً «أما أنا فجسدى مبيع تحت الخطية... ويحى أنا الإنسان الشقى، من ينقذنى من جسد هذا الموت» (روا: ٧، ١٤، ٢٤)...

إن الخطية تتلف طبيعتنا، وتجعل مستواها السامى ينحط...
لذلك فالخطية إغطاط... تصوروا إنساناً فى مركزه العالى كإبن الله، يحط نفسه إلى المستوى الذى يصير فيه إبناً لإبليس...
ويبلغ من الحطة أن يتحول النور الذى فيه إلى ظلام...
وينسى مركزه العالى، ويعمل كأحد أولاد الناس...
الخطيئة إنسان ينحط فى نظر نفسه، وتقل قيمته أو تنعدم فى نظر نفسه...
وسأضرب لكم مثلاً: هل يستطيع إبن ملك أن يجلس على كوم من الزباله؟ قطعاً لا يستطيع... كم بالأولى إذن إبن الله؟!...

والخطيئة أيضاً لا ينحط فقط فى نظر نفسه، وإنما أيضاً فى نظره إلى الناس. مثال ذلك، شاب ينظر إلى إحدى الفتيات نظرة شهوانية... لاشك أنه لو كان سامياً فى تفكيره لقال فى نفسه: هذه الفتاة هى هيكل للروح القدس كيف ألمسه أو أنجسه؟! لا يمكننى مطلقاً أن أفسد هيكل الله. لأن «إن كان أحد يفسد هيكل الله، فسيفسده الله لأن هيكل الله مقدس هو» (١ كو ٣: ١٧).
إنما ينظر الفتى إلى الفتاة بشهوة لأن مستواها قد انحط فى نظره... هذه هى الخطية التى تفسد الطبيعة البشرية، وتحولها من هيكل لله إلى أداة للفساد...
وهى لا تفسد الطبيعة البشرية فحسب. بل تفسد الأرض كلها... ولذلك قيل فى سفر الرؤيا عن الزانية العظيمة إنها «أفسدت الأرض بزناها» (رؤ ١٩: ٢).

وماذا عن الخطية أيضاً؟

الخطية نجاسة

• إن الخطية نجاسة:

لذلك فالملائكة الذين سقطوا تلقبوا بالأرواح النجسة (مر ٦: ٧).
والأمراض التى كانت ترمز للخطية - كالبرص - كانت تعتبر نجاسة وكذلك

ونرى أمثلة في الكتاب المقدس عن نجاسة الخطية ، حيث يقول الوحي الإلهي على قم حزقيال النبي « إن بيت إسرائيل لما سكنوا أرضهم ، نجسوها بطريقهم وبأفعالهم . كانت طريقهم أمامي كنجاسة الطامث ... (حز ٣٦: ١٧) ، وعن كسر السبت يقول « نجسوا سبوتى » (حز ٢٠: ١٣) . وعن أخطاء الكهنة يقول في سفر نحemia « لأنهم نجسوا الكهنوت » (نح ١٣: ٢٩) .

ومن جهة القتل يقول الكتاب « لأن أيديكم قد تنجست بالدم . وأصابعكم بالإثم » (أش ٥٩: ٣) . وعن الزنا يقول « ونجست الأرض بزناك . فامتنع الفيث ... » (أر ٣: ٢) .

ووصف الخطية بالنجاسة لا ينطبق فقط على خطايا الزنا والقتل ، بل حتى على خطايا الفم واللسان أيضاً ...

فمن خطايا اللسان يقول السيد المسيح نفسه « ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان ، بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الإنسان » (مت ١٥: ١١) .

وقد أطلق الرب كلمة النجاسة على الخطية عموماً . فقال عن الأبرار « عندك أساء قليلة ... لم ينجسوا ثيابهم ، فسيمشون معي في ثياب بيض لأنهم مستحقون » (رؤ ٣: ٤) . أما عن الخطاة فقال « أتيتم ، ونجست أرضي . وجعلتم ميراثي رجساً » (أر ٢: ٧) .

إن عرفت كل هذا يا أخى ، أن الخطية نجاسة ، لا بد أنك ستنتفر منها . ستشعر أنك في حالة الخطية « إنسان نجس » !! ستشعر أن كل كلمة خاطئة تخرج من فمك ، إنما هي تنجسك . لأن الذى يخرج من الفم هو الذى ينجس الإنسان .

• ولما كان الزنى هو أبرز ما فى النجاسة ، لذلك اعتبرت الخطية زنى ... وهكذا يقول الكتاب عن خطايا بنى اسرائيل « زنت يهوذا » ، « زنت إسرائيل » (حز ١٦) أى أخطأت كل من هاتين الملكتين ...

• وماذا قيل عن الخطية أيضاً ...

قيل إنها عار : « عار الشعوب الخطية » (أم ١٤ : ٣٤) .
وهى أيضاً مرض : وهكذا قيل عن فم أشعيا « تركوا الرب ، استهانوا

بقُدوس إسرائيل... كل الرأس مريض، وكل القلب سقيم. من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة، بل جرح وإحباط وضربة طرية لم تعصب ولم تلين بالزيت» (أش ١: ٦، ٥).

والخطية أيضاً جهل : جهل بالله ، وبالإيمان ، وبالخير ، وبما ينبغي أن يكون... وهكذا قال الرب « الثور يعرف قانيه، والحمار معلف صاحبه، أما إسرائيل فلا يعرف، شعبي لا يفهم» (أش ١: ٣).

وماذا تكون الخطية أيضاً ؟ الخطية أيضاً نقص ، وعيب ، وضلال ، وعمى ، وظلمة ، ونسيان لله... وهي أيضاً ظلمة لأنها بعد عن النور الذي هو الله. ولذلك حسناً قيل عن الخطاة أنهم « أحبوا الظلمة أكثر من النور» (يو ٣: ١٩)، وقيل أيضاً « أما الجاهل فيسلك في الظلام» (جا ٢: ١٤).

أمران يجعلاننا ننفر من الخطية :

طبيعة الخطية البشعة ،

ونتائج الخطية المريعة .

فأهـى إذن : نتائج الخطية ؟



الفصل الثالث

إن عرفت نتائج الخطيئة

تنفر من الخطيئة

من نتائج الخطيئة الخوف والقلق :

الخوف والقلق

إنها تفقد السلام الداخلي ، وتملأ القلب بالخوف والإضطراب . إن القديس لا يخاف . ولذلك قال داود النبي « إن يحاربني جيش ، فلن يخاف قلبي . وإن قام عليّ قتال ، ففي هذا أنا مطمئن » (مز ٢٦) . أما الخاطيء ، فهو على الدوام خائف ، فاقد لسلامه « لا سلام ، قال الرب للأشرار » (أش ٤٨ : ٢٢) . وقال أيضاً « الأشرار كالبحر المضطرب » (أش ٥٧ : ٢٠) .

لقد بدأ الخوف مع الخطيئة الأولى ، خطيئة آدم وحواء ...

لم نسمع عن آدم أنه كان يخاف الله قبل الخطيئة . بل على العكس عندما كان الله ينزل إلى الجنة كان آدم وحواء يقابلانه بفرح ويلتذنان بالحديث معه . أما بعد الخطيئة ، فنقرأ أن آدم قد اختبأ خوفاً من وجه الله في وسط أشجار الجنة . ولما ناداه الرب ، صرح آدم بخوفه قائلاً « سمعت صوتك في الجنة فخشيت ، لأنني عريان ، فاختبأت » (تك ٣ : ١٧) .

تصوروا أن الله المحبوب الذي يشتهي كل أحد أن يراه ، يصبح مخيفاً

للخاطيء فيهرب من رؤيته !!

الله الذي هو « أبرع جمالاً من بني البشر » ، الذي حلقه حلاوة وكله مشتهيات ، يصبح مخيفاً للخاطيء ! عندما يراه الخاطيء يخاف ، أو يهرب منه

ويختبئ منه لكى لا يراه !!

النفس المحبة لله تقول مع عروس النشيد « إني أقوم في المدينة في الأسواق وفي الشوارع أطلب من تحبه نفسى ». وإن وجدته تقول « أمسكته ولم أره » (نش ٣: ٤، ٢). أما النفس الخاطئة فلا تضع أمامها سوى الآية التي تقول « مخيف هو الوقوع في يدي الله الحي » (عب ١٠: ٣١).

فالله مخيف بالنسبة إلى الأشرار . وأما الأبرار فهم أصدقاء الله يفرحون به . قال القديس الأنبا أنطونيوس الكبير لتلاميذه « يا أولادى ، أنا لا أخاف الله ، فتعجبوا من عبارته وأجابوه « هذا الكلام صعب يا أبانا » ، فقال لهم « ذلك لأنى أحبه ، ولا خوف فى المحبة ، بل المحبة تطرح الخوف إلى الخارج » (١ يوح: ١٨).

تخيلوا معى يا إخوتى ، أن الله قد حضر الآن فى وسطنا . ترى كم واحد منا يفرح لمجيئه ، ويدخل تحت أحضانه ؟ ... وكم واحد يهرب ومخاف ؟! الخطاة يخافون لقاء الله ، لذلك يخافون الموت ويرتعبون منه ... يخافون ساعة الدينونة الرهيبة التى سينكشفون فيها أمام الكل ... أمام الأعداء الذين يشتمون بهم ، وأمام الأصدقاء الذين كانوا يظنونهم غير ذلك ، أنقياء وأبراراً ... لذلك عندما تأتى تلك الساعة « يقولون للجبيل غطينا ، وللثلال اسقطى علينا » (لوقا ٢٣: ٣٠ ، هو ١٠: ٨). هؤلاء سيطلبون الموت ولا يجدونه ، ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم » (رؤ ٩: ٦).

حقاً إن آدم عندما أخطأ بدأ يخاف ... زحف شىء جديد رهيب إلى داخل نفسه لم يكن موجوداً فيها من قبل ... هو الخوف ، والرعب وفقدان السلام . إن هذا الخوف الذى خاف به آدم من الله هو مبدأ الأمراض النفسية التى أصابت البشرية نتيجة للخطية ، لأن النفس بهذا الخوف بدأت تمرض .

إن الشخص البار محتفظ بسلامه ، هادىء ومسرور . أما الخاطيء فيفقد سلامه من الداخل ومن الخارج . من الداخل ضميره يثور عليه ... والروح القدس يبكته . ومن الخارج يخاف أن تنكشف الخطية كما يخاف من نتائجها وعواقبها . لم نر أبداً إنساناً خاطئاً يعيش على الدوام مستريح البال مهما نام ضميره . لا بد أن يستيقظ هذا الضمير بعد حين ويثور عليه ويتعبه .

من أمثلة عذاب الضمير قصة تقال عن بيلاطس :

كان بيلاطس يعرف أن المسيح برىء ، ولذلك قال «ها أنا قد فحصت قدامكم ، ولم أجد في هذا الإنسان علة مما تشتكون به عليه» (لو ٢٣ : ١٤) . وإذا كان جالساً على كرسي الولاية أرسلت إليه إمرأته قائلة «إياك وذلك البار . لأني تأملت اليوم كثيراً في حلم من أجله» . ولكنه أمر بحكم الموت ضد ضميره . ولأجل أن يريح ضميره راحة زائفة ، أخذ ماءً وغسل يديه قدام الجميع قائلاً : إني برىء من دم هذا البار» (مت ٢٧ : ٢٤) .

وتقول القصة إن بيلاطس عندما خلا إلى نفسه في منزله ، وجد يديه ملطختين بالدماء فغسلها مرة ثانية . ولكن الدم لم يفارقها . فغسلها للمرة الثالثة وهو يقول «أنا برىء من دم هذا البار» . ولكنه عاد ووجد الدم ما يزال يلطخها . فاستمر يغسلها مرات عديدة وهو يصرخ في رعب قائلاً «أنا برىء من دم هذا البار» . إنها قصة تصور لنا مقدار الرعب وفقدان السلام الذي يصيب الخاطيء نتيجة لخطيئته .

إن الخطية متعبة . وقد لا يحس الإنسان بمقدار خطورتها إلا بعد وقوعها ، وربما بعد وقوعها بمدة ، حين يستيقظ الضمير ، من تلقاء نفسه أو بمؤثر خارجي ...

□

ومن أمثلة عذاب هذه اليقظة المتأخرة للضمير . قصة يهوذا الإسخريوطي

إن يهوذا لم يشعر ببشاعة خيانتة في بادئ الأمر . كان مشغولاً بالتآمر والمقابلات والإتفاقات . وكان مشغولاً بالمال وتسلمه . وبيعاده ومكان تسليم سيده . حتى إنذارات الرب له لم يحس بها . وأخيراً عندما حوكم السيد المسيح وحكم عليه بالصلب ... إستيقظ ضمير يهوذا ، وظل يعذبه ، فيوجد نفسه أمام خطيئة بشعة ومرعبة . وبدأ يتذكر كلام الرب للتلاميذ «أنتم طاهرون ولكن ليس كلكم» ، «واحد منكم سيسلمني» ... «إبن الإنسان ماض كما هو محتوم . ولكن ويل لذلك الإنسان

الذى يسلمه» (لو ٢٢: ٢٢) ... وتذكر يهوذا أيضاً قول الرب له: ما تريد أن تعمله فاعمله بأقصى سرعة. ثم كلمة المسيح الأخيرة له «ياصاحب لماذا جئت» (مت ٢٦: ٥٠)، «أقبلت تسلم ابن الإنسان» (لو ٢٢: ٤٨).

ولم يستطع يهوذا أن يحتمل كل هذا ، واتعبه ضميره جداً ، فقام وذهب لرؤساء الكهنة «ورد الثلاثين من الفضة قائلاً: قد أخطأت إذ أسلمت دماً بريئاً. فقالوا ماذا علينا أنت أبصر. فطرح الفضة في الهيكل وانصرف» (مت ٢٧: ٣). ومع كل هذا استمر ضمير يهوذا يعذبه وظل يعذبه بلا هوادة. وتسمرت صورة خطيئته في عمق بشاعتها أمام عينيه ... وأخيراً «مضى وخنق نفسه» (مت ٢٧: ٥).

يا إخوتي ما أبشع الخطيئة ، وما أكثر رعبها ، عندما يستيقظ الضمير إن الإنسان قد لا يحس بمرارتها طالما هو في دوامة من الخطايا أو من المشغوليات . ولكن بمجرد أن ينتبه لنفسه أو يرجع لذاته ، يتعب ويتألم من منظر خطيئته .

لذلك فإن بعض المجرمين يذهبون ويسلمون أنفسهم للعدالة معترفين بجرائمهم ... لأنهم لم يستطيعوا أن يحتملوا تأنيب الضمير ولا القلق الداخلي الذي يتعبهم وفقدان السلام الناتج عن إحساسهم بالإثم . لذلك صدق قول الكتاب «لا سلام قال الرب للأشرار» (أش ٤٨: ٢٢) .

وهناك قاعدة هامة عند علماء النفس تقول إن المجرم يظل يحوم حول مكان الجريمة في الأيام الأولى لحدوثها . لأنه يكون قلقاً وخائفاً من اكتشاف أمره . ويقول في نفسه «يا ترى هل تركت أثراً أم لم أترك . وهل عرف رجال البوليس أم لم يعرفوا!؟» . من أجل هذا فإن رجال النيابة والشرطة عندما يكتشفون جريمة يترصدون مكانها متخفين ، لكي يكتشفوا كل الأشخاص المشتبه فيهم الذين يحومون حول المكان .

ومن أمثلة الخوف والقلق وفقدان السلام ، ما حدث لقابين بعد خطيئته : عاش تائهاً وهارباً في الأرض ، خائفاً أن يقتله أحد كما قتل أخاه ، شاعراً أن الله قد طرده عن وجه الأرض ، وطرده من أمام وجهه (تك ٤: ١٣ ، ١٤) . وهذا القلق قضى قابين حياته في خوف . ولم يستفد من خطيئته شيئاً ... تطارده خطيئته ، ويطارده صوت أخيه الصارخ من الأرض .

هكذا الأمراض النفسية التي تصيب الخطاة نتيجة للقلق والخوف والإنزعاج والإضطراب وتوقع الشر باستمرار.

أما الأبرار فعلى العكس من ذلك يعيشون في فرح وسلام ...

هم في فرح مستمر ، لا يضطربون ، ولا يقلقون ، ولا ينزعجون من الداخل . فالكتاب المقدس يقول « من ثمار الروح القدس محبة ، فرح ، سلام » (غل ٥ : ٢٢) . إذن فالشخص الذي لا يعيش في سلام ، لا توجد فيه ثمار الروح القدس .

قيل عن القديس الأنبا أنطونيوس ، في القصة التي كتبها عنه القديس أناسيوس الرسول « من بين الناس كان مضطرب النفس أو منزعج القلب ، ويرى وجه الأنبا أنطونيوس ، إلا ويمتلىء بالسلام » . مجرد رؤية وجه الأنبا أنطونيوس - في هدوئه وفرحه - كانت تملأ القلب بالسلام .

ليس كذلك الخطاة ، ليسوا كذلك ، بل هم في حزن وعذاب ، وبخاصة عندما يستيقظ ضميرهم ويلهيم بسياطه . وقد أخذنا فكرة عن عذاب الأشرار كيهوذا وقاين ...

ونريد أن نأخذ مثالا عن عذاب الضمير للقديسين ممثلاً أفضل تمثيل في قصة داود النبي :

في أثناء الخطية ، كان داود النبي في نشوة اللذة الجسدية ، فلم يشعر بخطورة ما كان يفعل ... ! حتى أنه أتبع خطية الزنى بخطية القتل ، دون أن يتحرك ضميره أو يتحرج . ولكن بعد أن واجهه ناثان بخطيته ، وبدأ يحس خطورة ما فعل ، حينئذ استيقظ ضميره وبدأ يتعبه على الرغم من قول النبي له « الرب قد نقل عنك خطيئتك ، لا تموت » (٢صم ١٢ : ١٣) .

عندما استيقظ ضميره ، بلل داود فراشه بدموعه . وصارت دموعه له طعاماً نهاراً وليلاً ، ولصقت بالتراب نفسه ، وعاش في مذلة من نفسه ، وصرخ إلى الرب قائلاً « إن عظامي قد اضطربت ، ونفسي قد انزعجت جداً » (مز ٦) . ورضى بالمذلة من أجل خلاص نفسه ، وقال في ذلك « خير لي يارب أنك أذلتني لكي أتعلم ناموسك » (مز ١١٨) .

حقاً إن الإنسان عندما تتكشف له خطاياها ، يصير من عذاب ضميره وكأنه في

جحيم .

هل تظنون أن « البكاء وصرير الأسنان » يكونان فقط في البحيرة المتقدة بالنار والكبريت ؟ كلا ، بل يكونان على الأرض أيضاً ، عندما يتعذب الإنسان في قلبه من هول خطاياها ...

يحدث هذا في أوقات التوبة ، عندما يحس الإنسان التائب مقدار بشاعة خطيته ، ويبكى عليها بدموع وحرقة قلب ، ويلوم نفسه قائلاً : أين كان عقلي وتفكيري عندما فعلت هذا؟! ... ويظل ضميره يؤنبه ، فتصطك أسنانه من الألم والندم والحزنى والعار والشعور باحتقار الذات ...

وفي الحقيقة خير للتائب أن يقاسى « البكاء وصرير الأسنان » ههنا على الأرض ، من أن يقاسيه هناك في الأبدية على غير رجاء ...
رأينا أنه من نتائج الخطية الخوف ، وفقدان السلام الداخلى ، والمرارة ، وعذاب الضمير... على أن هناك نتائج أخرى للخطية ...

نتائج أخرى للخطية

الخطية تغير الإنسان تغييراً كلياً ، ومن نتائجها :

١ - فقد الصورة الإلهية :

خلق الإنسان على صورة الله ومثاله . ولكنه في حالة الخطية لا يحتفظ بهذه الصورة الإلهية ، بل يفقدها . يفقدها من الداخل ومن الخارج أيضاً إذ تترك الخطية طابعها على وجهه وملامحه ، وعلى صوته وإشاراته بل تترك الخطية طابعها على زيه وملابسه . وحتى كلماته أيضاً وأسلوبه ولغته تعبر عن الخطية الكامنة فيه ، حسبما قيل « لغتك تظهرك » (مر ١٤ : ٧٠) . من أجل هذا قال معلمنا القديس يوحنا الحبيب « بهذا أولاد الله ظاهرون ، وأولاد إبليس (ظاهرون) » (١يو ٣ : ١٠) .

فأنت أيها الأخ يا من غيرت الخطية شكلك وطباعك ، وأنت أيها الأخت يا من غيرت الخطية وجهك وملابسك وصوتك . إرجعا إلى الله بالتوبة . وستغيركما التوبة في كل شيء ، وتعيد إليكما الصورة الإلهية التي فقدتماها ...
وكما يفقد الإنسان صورته الإلهية بالخطية ، كذلك يفقد كرامته ...

٢ - فقد الكرامة :

كان الإنسان قبل الخطيئة نفخة قدسية خرجت من فم الله ، كان صورة الله ومثاله . أما بعد الخطيئة فإن الرب يقول له «أنت تراب ، وإلى التراب تعود» . عاد ترابياً كما كان ، ولم يستحق أن يدعى صورة الله . اشتهى أن يكون له مجد الألوهية ، ففقد مجد البشرية الذي كان له .

ولأنه - كالحیوانات - إشتهى أن يأكل ، لذلك أعطاه الرب أن يأكل العشب (تك ٣ : ١٨) الذي كان من قبل طعام الحيوانات (تك ١ : ٣٠) ...

وضاعت هيئته على الحيوانات وأصبح يخافها وصارت لها إمكانية أن تأكله بعد أن كان سيداً عليها جميعاً (تك ١ : ٢٦) ... حتى الحية أصبح في إمكانها أن تسحق عقبه (تك ٣ : ١٥) .

حق الأرض تمردت عليه ... وأصبحت تنبت له شوكة وحسكاً (تك ٣ : ١٨) ، بل إن أقسى عبارة في تمرد الأرض على الإنسان تظهر في قول الله «متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها» (تك ٤ : ١٢) ...

الإنسان الخاطيء هو إنسان فاقد للكرامة ، فاقد للإحترام . هولعبة في أيدي الشياطين وفي أيدي الأشرار، ليست له هبة ... بل أنه يفقد إحترام ذاته لذاته .

أنظروا إلى الإبن الضال ، وكيف صار يشتهي الخرنوب الذي تأكله الخنازير ، وكيف تمنى أن يكون كأحد الأجراء في بيت أبيه ... ! بل أنظروا إلى نبوخذ نصر الملك وكيف مدعوا عنه جلاله وصار كأحد الحيوانات (د ٥١ : ٢ ، ٢١) . وشمشون الجبار ، كيف أنه بالخطيئة فقد قوته وفقد كرامته ، وأذله وهزأ به أهل فلسطين (قض ١٦ : ١٩ - ٢٥) .

لا يجندعك الشيطان يا أخى ، إذ يصور لك في الخطيئة ملاذاً وشهوات ، ويعدك بكرامات وإغراءات . وعندما تذوق الخطيئة تجدها في الآخر مرة كالعلقم ، تقودك إلى الذل ، وتفقدك كل شيء ... وتورثك الكآبة والضيق ، وتقودك إلى اليأس ، وتغطفى بالخزى وجهك ...

وكما تفقد فيها صورتك الإلهية وكرامتك ، كذلك تفقد بساطتك ونقاوتك ...

٣ - فقد البساطة والنقاوة :

الإنسان البار هو إنسان تقى ، لا يعرف سوى الخير . أما عندما يخطيء ، فإنه يبدأ أن يعرف الشر أيضاً ، وهكذا يفقد بساطته . وينظر إلى الأمور بغير نظرتة الأولى . ويعرف أموراً جديدة تسيئه معرفتها ، ويتمنى لو كانت تزول من فكره...
كان آدم وحواء عريانين فى الجنة - قبل الخطية - ولا ينجلان . يعيشان فى بساطة لا تعرف الدنس . ولكنها بالخطية فقدتا بساطتهما ، واضطرا أن يصنعا لهما مآزر...

وأنت أيها الأخ ، ماذا فعلت الخطية بك ؟ هل أفقدتك بساطة فكرك ، ونقاوة قلبك . هل غيرت نظرتك إلى الناس ، ونظرتك إلى نفسك ، ونظرتك إلى الأمور . ما أبشع هذا التغيير . لبيتك لا تتماذى ، حتى لا تفقد ما بقى لك من بساطة ومن نقاوة...

ليتك ترجع إلى الله بالتوبة ، حتى ترجع إليك نقاوتك الأولى . ومنحك الرب ثوباً جديداً ، أبيض...



الفصل الرابع

ها قد صرفت في الفصل السابق نتائج الخطية
وما يمكن أن تحمله في داخل النفس البشرية
حيث تفقد صورتها الإلهية وبساطتها ونقاوتها
وتورثها الخوف والقلق والعذاب والخزي
والهوان، وبق أن تأخذ فكرة عن عقوبة
الخطية ...

إن عرفت عقوبة الخطية

تخاف من الخطية

ينبغي أن نعرف جيداً أن الله كما أنه رحيم ولا حدود لرحمته ، كذلك هو أيضاً
هادل ولا حدود لعدله ...

وكما أنه شفيق يغفر الخطية ، كذلك هو قدوس يكره الخطية ...

غير أن البعض - للأسف الشديد - يستغل مراحم الله إستغلالاً رديئاً يقوده
إلى الإستهتار وإلى الخطية ، معتمداً اعتماداً زائفاً على مراحم الله !!
مثل هذا يخطيء كما يريد ، وإن وبخته يقول لك « إن الله رحيم ... وحنون ...
وطيب ... لا يصنع معنا حسب خطايانا ، ولا يجازينا حسب آثامنا ... ! الذي غفر
للمرأة الزانية يغفر لي ، والذي غفر لزكا العشار يغفر لي أنا أيضاً ... والذي غفر
لأوغسطينوس يغفر لي ويساعني ... والذي قبل إليه مريم القبطية وموسى الأسود ،
يقبلني أنا أيضاً معهم » ... !!

يقول هذا ، وينسى التوبة العجيبة العميقة التي كانت لأولئك القديسين ، والتي
بسببها قبلهم الرب إليه . تلك التوبة التي كانت حداً فاصلاً في حياتهم ، وتغييراً
كلياً لسيرتهم ، فلم يرجعوا إلى الخطية مرة أخرى مطلقاً ، بل كانوا كل يوم يزدادون
في النعمة وينمون في محبة الله ... ولم تكن رحمة الله لهم مجالاً للإستهتار أو للإستمرار
في الخطية ، حاشا ...

ينبغي أن نفهم عدل الله ورحمته فهماً سليماً يقودنا إلى التوبة. وفي هذا المجال ما أجل أن نورد ما ذكره القديس بولس الرسول عن « لطف الله وصرامته » ...

لطف الله وصرامته

هكذا قال الرسول العظيم معلماً :
 « هوذا لطف الله وصرامته ،
 أما الصرامة فعلى الذين سقطوا ،
 وأما اللطف فلك ، إن ثبت في اللطف ،
 وإلا ، فأنت أيضاً ستقطع ... » .
 (رو ١١ : ٢٢) .

لا يصح إذن أن نعتمد على لطف الله ، وننسى صرامته ...
 ولا يصح أن نعتمد على رحمة الله ، وننسى عدله ...

رحمة الله عادلة :

إن صفات الله لا تنفصل عن بعضها البعض ، بحيث تقف واحدة منها مستقلة عن الأخرى . إنما نذكرها أحياناً منفردة ، من جهة التفاصيل وليس من جهة الفصل ، لكي يفهمها الناس . ولكنها متحدة لا هوتياً ...

الله عادل في رحمته ، ورحيم في عدله . عدله رحيم ، ورحمته عادلة . عدله مملوء رحمة ، ورحمته مملوءة عدلاً . ولا يمكن أن نفصل رحمته عن عدله ...

هذه الوحدة القائمة بين الرحمة والعدل هي أساس عمل الفداء .
 لو كانت رحمة الله قائمة بذاتها - بدون العدل - لكان يكفي برحمته أن يقول للبشر « مغفورة لكم خطاياكم » ، وينتهي الأمر ، بدون صلب ...
 لكنه بالرحمة غفر الخطية ، وبالعدل دفع ثمن الخطية ...

ولأن الله عادل ، تجسد ومات عنا ، ليدفع ثمن خطيئتنا ...
 العدل لا بد أن يستوفي حقوقه ، حتى لو أدى الأمر أن يأخذ الله جسداً ، ويصير في الهيئة كإنسان ، ويأخذ شكل العبد ، ويهان ويصلب ويتعذب ويموت ...
 إن كان هكذا عدل الله ، فأين نهرب من عدله ؟

يمكن أن تشبه معاملة الله لك أحياناً بالمرأة : فكما أنك تنظر إلى المرأة في وقت ما فتسرى وجهاً بشوشاً فرحاً ، وتنظر إليها في وقت آخر فتسرى وجهاً حزيناً عابساً ، مع أن المرأة واحدة... هكذا - كالمراة- يريك الله حالتك... تنظر إلى وجه الله ، فتسرى حالتك من الداخل . إن كنت تائباً ، ترى الله في لطفه . وإن كنت مستهتراً ، ترى الله في صرامته .

لطف الله وصرامته يمثلها الملاك الذي ظهر للمريمتين عند القبر... هذا الملاك كان مخيفاً ومفرحاً ... كان مخيفاً للحراس لدرجة أن الكتاب المقدس يقول عنه «فمن خوفه ارتعد الحراس وصاروا كأموث» (مت ٢٨ : ٤) . ونفس هذا الملاك كان سبب فرح للمراةين ومصدراً لبشرى مفرحة... هكذا الله مخيف للبعض ومفرح للبعض الآخر .

ولطف الله وصرامته يظهران عموماً في عمل الملائكة :

كلنا نتكلم عن ملائكة الرحمة . فهل ننسى أنهم أيضاً ملائكة للعقوبة والإهلاك ؟

نحن نعلم أن ملاكاً أيقظ إيليا النبي وهو جوعان ، وأعطاه طعاماً لياكل . ومشى إيليا بقوة تلك الأكلة التي أخذها من الملاك أربعين يوماً (١ مل ١٩ : ٦-٨) . ونعلم أن ملاكاً أرسله الله إلى هاجر عندما أشرف إبنها على الموت عطشاً ، ففتح عينها فأبصرت بئر ماء ، وشرب ولدها وعاش (تك ٢١ : ١٥-١٩) .

ونعلم أن ملاكاً نزل إلى الجب ، وسد أفواه الأسود فلم تضر دانيال (د : ٦ : ٢٢) .

كذلك ذهب ملاك إلى السجن ، وأخرج بطرس منه بعد أن فك السلسلتين من يديه (أع ١٢ : ٧-١٠) .

ويعوزنا الوقت أن نشرح عمل الملائكة الحالية حول المؤمنين وتنجيهم ، والملائكة المبشرة بالخيرات ، والملائكة التي هي «أرواح خادمة مرسله للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص» (عب ١ : ٤) . غير أن طبيعة الملائكة الرحيمة لم تمنع أن تكون الملائكة أيضاً للضرب والعقوبة والإهلاك .

وسنضرب الآن أمثلة لملائكة أرسلهم الله للإهلاك والعقوبة :

من أمثلتهم الملاك المهلك الذى ضرب كل أبكار المصريين ، فاتوا جميعهم فى ليلة واحدة « من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى فى السجن ، وكان صراخ عظيم فى مصر ، لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت » (خر ١٢: ٢٩ ، ٣٠) كذلك الملاك الذى رفع سيفه على أورشليم عندما أخطأ داود النبي وعد الشعب . ومات فى ذلك اليوم سبعون ألف رجل (١أى ٢١: ١٤) .

ومن أمثلة ملائكة الإهلاك الملائكة السبعة أصحاب الأبواق الذين ورد ذكرهم فى سفر الرؤيا ، وذكر ضرباتهم الخفيفة (رؤ ٨: ٩) .

ولا ننسى أن أول ذكر للملائكة فى الكتاب المقدس كان مرعباً ، إذ طرد الله الإنسان من جنة عدن ، وأرسل الكاروبيم بسيف من نار لحراسة طريق شجرة الحياة حتى لا يأكل منها الإنسان (تك ٣: ٢٤) .

ولعل اللطف والصرامة يتجليان فى وقت واحد فى الملاكين المرسلين إلى لوط ، أنقذاه وفى نفس الوقت ضربا الناس الأشرار بالعمى (تك ١٩ : ١٠ ، ١١) . كما يتجليان معاً فى قصة أليشع النبي مع نعمان السريانى ، إذ شفى نعمان من برصه ، وجعل البرص الذى كان عند نعمان يلصق بجيحزى «فخرج من أمامه أبرص كالثلج» (٢مل ٥ : ١٤-٢٧) .

إن كان الله هكذا فى لطفه وصرامته ، وهكذا أيضاً ملائكته وأنبيأؤه ، فلنخف نحن أيضاً لثلاث تعرض لصرامة الله بسبب خطايانا ...

عقوبات الله الخفيفة

إن رحمة الله التى لا تحدد ، لم تمنع ورود أمثلة لعقوبات خفيفة ، أوقعها العدل الإلهى على البشرية ، بسبب خطايا الإنسان التى تحدت قداسة الله ، وقاومت صلاحه ، وكسرت وصاياه ...

● مثال ذلك الطوفان ، الذى عا الله فيه الإنسان من على وجه الأرض ... (تك ٦: ٧) .

● مثال آخر هو حرق سدوم وعمورة ...

إذ أمطر الله عليها كبريتاً وناراً من السماء « وقلب تلك المدن وكل الدائرة ،

وجميع سكان المدن ونبات الأرض ... ونظرت امرأة لوط إلى الورا فصارَت عمود ملح « (تك ١٩: ٢٤-٢٦) .

... ونحن نقف أمام الطوفان ، وأمام حرق سدوم وعمورة ونتعظ ونفكر ...

من قال إن خطايانا هي أقل من خطايا سدوم ؟!

أو أقل من خطايا الناس وقت الطوفان ؟!

أو أقل من خطية امرأة لوط التي صارت عمود ملح ؟!

ومن قال إن الله الذي أوقع هذه العقوبات في القديم ، قد تغير في العهد

الجديد ؟!

أليس « هو هو ، أمساً واليوم وإلى الأبد » (عب ١٣ : ٨) « ليس عنده

تغير ولا ظل دوران » (يع ١ : ١٧) ...

● هو أيضاً الذي في العهد الجديد أوقع حنانيا وسفيرا ميتين ... من أجل

أنها كذبا في حديثها مع بطرس الرسول ... وكم من الناس يكذبون أثناء حديثهم

مع الآباء الأساقفة والآباء الكهنة بل مع الآباء البطارقة أيضاً ... !

● وهو أيضاً الذي سمح لعبده بولس أن يقول عن خاطيء كورنثوس :

« حكمت ... أن يسلم مثل هذا للشيطان لإهلاك الجسد ، لكي تخلص الروح في

يوم الرب يسوع » (١ كوه : ٥) .

● ومن أعنف ما ورد في الكتاب المقدس عن عقوبات الله للخطاة : اللعنات

التي صلبها الله على من يعصى وصاياه .

وقد وردت قائمة بهذه اللعنات في سفر التثنية إذ يقول الرب :

« ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه

وفرائضه ... تأتي عليك جميع هذه اللعنات وتدررك :

ملعوناً تكون في المدينة ، وملعوناً تكون في الحقل ،

ملعوناً تكون سلتك ومعجنتك ،

ملعوناً تكون ثمرة بطنك وثمره أرضك ، نتاج بقرك وإناث غنمك ،

ملعوناً تكون في دخولك ، وملعوناً تكون في خروجك .

يرسل الرب عليك اللعن والإضطراب والزجر في كل ما تمتد إليه يدك لتعمله ،

حتى تهلك وتفتنى سريعاً من أجل سوء أعمالك إذ تركتني ...
تكون سماؤك التي فوق رأسك نحاساً ، والأرض التي تحتك حديداً ...
يجعلك الرب منهزماً أمام أعدائك ، في طريق واحدة تخرج عليهم ، وفي سبع
طرق تهرب أمامهم .

وتكون قلقاً في جميع ممالك الأرض ...
ولا تنجح في طرقك ، بل لا تكون إلا مظلوماً مغصوباً كل الأيام ، وليس
مخلص ...

أيضاً كل مرض وكل ضربة - لم تكتب في سفر الناموس هذا - يسلمها الرب
عليك حتى تهلك ...

وتكون حياتك معلقة أمامك ، وترتعب ليلاً ونهاراً ، ولا تأمن على حياتك .
في الصباح تقول ياليت المساء ، وفي المساء تقول ياليت الصباح ، من ارتعاب
قلبك الذي ترتعب ، ومن منظر عينيك الذي تنظر ...» (تث ٢٨: ١٥-٦٨) .

حقاً مخيفة ومرعبة هي هذه اللعنات . ومن شدة ما فيها من رعب ،
أصمت عن تسجيل جميعها ...

إنها تعطينا فكرة عن قداسة الله التي لا تتساهل مطلقاً مع الخطية ، وتعطينا فكرة
عن عدل الله الذي يجازى الخطية حسب ما فيها من بشاعة ، فليتنا نقرأ كل هذا
ونتعظ ونتوب ... تاركين الخطية التي تسبب كل هذه اللعنات ...

● حقاً إن اللعنة دخلت إلى العالم نتيجة الخطية :

عندما أخطأ آدم ، قال له الرب « ملعونة الأرض بسببك » (تك ٣: ١٧) . ثم
تطور الأمر فزحفت اللعنة إلى الإنسان ذاته ، وهكذا قال الرب لقائين « ملعون أنت
من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك » (تك ٤: ١١) « ملعون
أنت ... » تماماً مثلما قال للحية من قبل « ملعونة أنت ... » (تك ٣: ١٤) . وهكذا
تشابه الإنسان الخاطيء مع الشيطان « الحية القديمة » وحق أن يسمى الخطاة بأنهم
« أولاد إبليس » (١ يو ٣: ١٠) ، أو أنهم « أولاد الأفاعي » (مت ٣: ٧) .

ثم كانت لعنة الطوفان ، التي هي لعنة الإفناء (تك ٨: ٢١) .
ثم كانت لعنة العبودية التي وقعت أولاً على كنعان ، حيث قيل له « ملعون
كنعان . عبد العبيد يكون لإخوته » (تك ٩: ٢٥) .

ثم كانت لعنات الناموس (تث ٢٨) التي شملت عقوبات عديدة ...
 كان منها الموت والمرض والوباء والفقر والفشل والظلم والقلق والهزيمة ...
 وفي العهد الجديد لعن السيد المسيح شجرة التين المورقة غير المثمرة (مر ١١ : ٢١)
 التي تعطى فكرة عن الرياء مع عدم التقوى ، وكانت رمزاً لكل من يسلك هذا
 السبيل .

حقاً من يقرأ كل هذا ولا يخاف !؟

ومن يحتمل أن يلعنه الله !؟

بل من يحتمل أن يفقد البركة التي أخذها أولاً من الرب !؟

فلنتب يا إخوتي لأن كل هذه الأمور قد تركت لنا مثلاً ، وكتبت لإذارنا ،
 نحن الذين انتهت إلينا أواخر الدهور (١ كو ١٠ : ١١) .
 ولنغسل خطايانا بدموع التوبة ، قبل أن يلحقنا يوم الدينونة الرهيب حيث
 لا ينفع بكاء ولا توبة .

عذاب الأبدية المرعب

إن مجرد التفكير في يوم الموت ويوم الدينونة ، يبعث في قلب الخاطيء
 شعيرة ، ويقوده إلى التخشع والتوبة ...

إنه يوم رهيب مخوف :

يقول عنه أشعياء النبي « هوذا يوم الرب قاسياً بسخط وحمو غضب ،
 ليجعل الأرض خراباً ويبيد منها خطاياها » (١٣ : ٩) . « في ذلك اليوم يطرح
 الإنسان أوثانه ... ليدخل في نقر الصخور وفي شقوق المعازل ، من أمام هيبة
 الرب ومن بهاء عظمته ، عند قيامه ليرعب الأرض » (أش ٢ : ٢٠ ، ٢١)

وعن هذا اليوم يقول ملاخي النبي « فهذا يأتي اليوم المتقد كالنور . وكل
 المستكبرين وكل فاعلي الشر يكونون قشاً ، ويحرقهم اليوم الآتي - قال رب الجنود -
 فلا يبقى لهم أصلاً ولا فرعاً » (ملا ٤ : ١) .

حقاً إن يوم مجيء الرب لرهيب . قال عنه المرتل في المزمور « السحاب والضباب حوله . العدل والقضاء قوام كرسية . النار تسبق وتسلك أمامه ، وتحرق أعداءه من حوله . أضاءت بروقه المسكونة . نظرت الأرض فترزلت . ذابت الجبال مثل الشمع قدام الرب ، قدام سيد الأرض كلها » (مز ٩٧) .

هذا اليوم الرهيب شرحه القديس يوحنا الرسول في رؤياه فقال « ونظرت لما فتح الختم السادس ، وإذا زلزلة عظيمة حدثت . والشمس صارت سوداء كمشح من شعر ، والقمر صار كالدم ، ونجوم السماء سقطت إلى الأرض كما تطرح شجرة التين سقطاتها إذا هزتها ريح عظيمة . والسماء انفلقت كدرج ملتف . وكل جبل وجزيرة تترحزا من موضعها . وملوك الأرض والعظماء والأغنياء والأمراء والأقوياء وكل عبد وكل حر . أخفوا أنفسهم في المغاير وفي صخور الجبال . وهم يقولون للجبال والصخور أسقطي علينا ، وأخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف ، لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم ومن يستطيع الوقوف » (رؤ ٦: ١٢-١٧) .

هذا هو حال الخطاة والأشرار في ذلك اليوم . أما الأبرار فإنهم يصعدون إلى الرب على السحاب ، ويكونون في كل حين مع الرب ، في مجده ...
وبينا يكون الأبرار في « فرح لا ينطق به ومجيد » (١ بط ١: ٨) ، وبينا ترتفع تراتيل القديسين ومعهم قيثارات الله (رؤ ١٥: ٢، ٣) ، وبينا يتمتع هؤلاء بصحبة الرب وقديسيه في أورشليم السمائية ... بينا هؤلاء في النعيم ، يكون الأشرار في عذاب لا يطاق ، لا يعرفون للراحة طعماً إلى الأبد .

عذاب الأشرار والآمهم :

يقول الرب عنهم « فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدي ، والأبرار إلى حياة أبدية » (مت ٢٥ : ٤٦) . ويقول أيضاً « يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاصر وفاعل الإثم ، ويطرحونهم في أتون النار . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان . حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم » (مت ١٣ : ٤١ ، ٤٢) .

ما أشد هذا العذاب الأبدي الذي لا ينتهى ، في بكاء وصرير الأسنان في الظلمة الخارجية ، وفي هيب النار ، يزيدة ألباً تلك المقارنة التي تعقد بين حال الأشرار وحال الأبرار .

يصف بولس حالتهم فيقول « ... سيعاقبون بهلاك أبدي من وجه الرب ومن مجد قوته، متى جاء ليتمجد في قديسيه ويتعجب منه في جميع المؤمنين » (٢ تس ١: ٩، ١٠).

ويقول أيضاً « سخط وغضب ، شدة وضيق ، على كل نفس إنسان يفعل الشر، اليهودي أولاً ثم اليوناني . ومجد وكرامة وسلام لكل من يفعل الصلاح ... » (رؤ ٢: ٨-١٠).

لا شك أننا نخاف ونرتعش حيناً نسمع هذا الرسول القديس يقول : « فإنه إن أخطأنا باختيارنا - بعدما أخذنا معرفة الحق - لا تبقى بعد ذبيحة عن الخطايا ، بل قبول دينونة مخيف وغيره نار عتيدة أن تأكل المضادين » (عب ١٠ : ٢٦، ٢٧). ويعلل الرسول ذلك قائلاً « من خالف ناموس موسى ، فعلى شاهدين أو ثلاثة شهود يموت بدون رافة . فكم عقاباً أشر تظنون أنه يحسب مستحقاً من داس ابن الله وحسب دم العهد الذي قدس به دنساً وازدرى بروح النعمة فإننا نعرف الذي قال : لى الإنتقام أنا أجازى يقول الرب ، وأيضاً الرب يدين شعبه . مخيف هو الوقوع في يدى الله الخي » (عب ١٠ : ٣١)

والقديس يوحنا الحبيب ، الرسول المشهور بحديثه المستفيض عن محبة الله ، يتحدث في رؤياه عن « البحيرة المتقدة بالنار والكبريت » (روا ٨: ٢١). ويصف عقاب الخاطيء فيقول « سيشرب من حمو غضب الله المصبوب صرفاً في كأس غضبه ، ويعذب بنار وكبريت أمام الملائكة القديسين وأمام الخروف . ويصعد دخان عذابهم إلى أبد الآبدين . ولا تكون راحة نهراً وليلاً » (روا ١٤ : ١٠ ، ١١). « وسيعذبون نهراً وليلاً إلى أبد الآبدين » (رؤ ٢٠ : ١٠).

ويشرح كمثل لهذا العذاب عقوبة بابل الزانية فيقول « بقدر ما مجدت نفسها وتنعمت ، بقدر ذلك أعطوها عذاباً وحزناً ... وسيكى وينوح عليها ملوك الأرض الذين زنوا وتنعموا معها حيناً ينظرون دخان حريقها ، واقفين من بعيد لأجل خوف عذابها قائلين : ويل ويل » (رؤ ١٧ : ١٧-١٠).

ما أرهب تلك الدينونة . من أجل هذا وضعت الكنيسة المقدسة ، أن يقال في صلاة الستار « يارب إن دينونتك مرهوبة ، إذ تحشر الناس ، ويقف الملائكة .

وتفتح الأسفار، وتكشف الأعمال، وتفحص الأفكار. أية إدانة تكون إدانتى أنا المضبوط فى الخطايا، من يطفى لهيب النار عنى، إن لم ترهمنى أنت يا محب البشر...» .

والله لا يرحم الخاطيء ، إلا إذا كان يتوب ...

حقاً ، إنه خجل عظيم ، أن تكشف جميع الأعمال والأفكار، أمام كل الناس والملائكة . من يستطيع أن يحتمل إنكشافه فى تلك الساعة؟!

ومرعب أيضاً ومخجل أن ينفصل الخطاة عن الأبرار ... هنا على الأرض يجتمع الكل معاً، أنجس الفاسقين مع أقدس الصالحين . أما هناك فلا . يبدأ الله ويفصل الزوان عن القمح، والجداء عن الخراف، وأهل الشمال عن أهل اليمين . يجرم الخطاة من عشرة القديسين إلى الأبد، ومن عشرة الملائكة، ومن عشرة الله ...

تصوروا الإنسان البار عندما ينتقل تحمله الملائكة مثل لعازر (لوقا : ١٦ : ٢٢) ، وتأخذه إلى أحضان القديسين ... تقوده فى ذلك وتعرفه بكل أحد .

هذا هو نوح ، وهذا هو هابيل ، وهذا هو شيت ، وباقي الآباء البطارقة وهؤلاء هم موسى ، وصموئيل ، وأرمياء ، وأشعيا ، ودانيال ، وباقي الأنبياء ...

وهنا الأنبا أنطونيوس ، والأنبا مقاريوس ، والأنبا باخوميوس ، وباقي الآباء الرهبان ...

وتعال لنريك الأنبا بولا ، وأبا نفر، والأنبا ميصائل وباقي الآباء السواح ... وانظر هنا الأنبا أنثاسيوس ، والأنبا كيرلس ، والأنبا ديسقورس ، وباقي أبطال الإيمان ...

وهنا مارجرس ، ومارمينا ، والقديسة دميانة ، وباقي الشهداء ... وهؤلاء هم الملائكة ، والقوات ، والأرباب ، والسلاطين ، والشاروبيم ، والسارافيم ، وكل الجمع غير المحصى الذى للقوات السمائية ...

إنها حفلة تعارف عجيبة تتعرف فيها الروح البارة على مجمع الملائكة والقديسين !

أما الخطاة فيكونون واقفين من بعيد ، فى الظلمة الخارجية ، بينهم وبين الأبرار هوة عميقة، محرومين من مجمع الأبرار، ومن متعة الخلطة بهم ...

لا شك أنها مؤثرة جداً تلك الكلمات التي تشرح حالة الغنى في الجحيم ، إذ يقول الكتاب في ذلك عنه :

فرفع عينيه في الجحيم ، وهو في العذاب ،
ورأى إبراهيم من بعيد ، ولعازر في حضنه ،
فنادى وقال ، يا أبى إبراهيم إرحمنى ...
وأرسل لعازر ، ليبل طرف أصبعه بماء ،
ويبرد لساني ، لأنى معذب في هذا اللهب .

(لو ١٦ : ٢٣ ، ٢٤)

يا للعجب !! ليس هذا هو لعازر المسكين الذي كانت الكلاب تلحس قروحه الذى كان هذا الغنى ينظر إليه من قبل في اشمئزاز... وهوذا الآن قد تغير الوضع ، وأصبح الغنى العظيم يشتمى أن يأتيه لعازر ، ولا يحصل على مشتهاه...!
إن الخطية هي حرمان من القديسين ، وهى بالأكثر حرمان من الله ...
كل هذا عن العقوبة الأبدية . ولكن بالإضافة إلى هذه ، هناك عقوبات أخرى للخطية ، عقوبات على الأرض .

عقوبتان للخطية



للخطية عقوبتان : عقوبة أرضية ، وأخرى في الأبدية .
أما العقوبة الأبدية ، فيمكن للإنسان أن ينجو منها بالتوبة . بعكس الأرضية التي قد يفرضها الله على الإنسان فيقاسيها على الرغم من توبته .

أبوانا الأولان كمثال :

عندما أخطأ آدم وحواء ، ماذا كانت عقوبتهما؟ كانت هي الموت . هذا الموت خلصهما منه المسيح بموته . ولكن على الرغم من حكم الموت هذا الذى أنذرهما به الله من قبل . لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أوقع الله عليها عقوبة أخرى أرضية .

فإذا كانت العقوبة الأرضية لآدم وحواء ؟

الطرد من الجنة كانت عقوبة مشتركة لكليهما . وماذا أيضاً ؟

قال الرب لآدم « ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك... بعرق وجهك تأكل خبزاً... » (تك ٣: ١٧، ١٩) . وظلت عقوبة التعب وعرق الجبين لاصفة بجميع أبناء آدم إلى يومنا هذا على الرغم من عمل الفداء العظيم على الصليب .

وقال الرب لحواء « تكثيراً أكثر أتعب حبلك ، بالوجع تلدين أولاداً » . وجاء السيد المسيح ، وغفر للمرأة خطيئتها ، ومع ذلك فهي ماتزال تحبل وتلد بالتعب والوجع . إنها عقوبة أرضية ...

إن هذه العقوبة الأرضية التي وقعت على آدم وحواء ، هي مثال واضح لما يقاسيه الإنسان على الأرض نتيجة خطيئته حتى إن غفرها الله له في السماء ...

مثال المرأة الزانية :

من المعروف أن السيد المسيح غفر لكثير من الزانيات كالمرأة الزانية التي بللت قدميه بدموعها ، ومستحها بشعر رأسها . والمرأة التي ضبطت في ذات الفعل ، وأنقذها الرب من الرجم قائلاً للمشتكين عليها « من كان منكم بلا خطية ، فليرجع أولاً بحجر » (يو ٨: ٧) .

ومع هذه المغفرة فقد عاقب الرب المرأة الزانية بتطبيقها وبعدم الزواج ثانية (مت ٥: ٣٢ ، مت ١٩: ٩ ، لو ١٦: ١٨) .

وكثير من الناس يتساءلون لماذا لا يسمح بالزواج للزانية ، وقد غفر الرب للمرأة الزانية . والجواب بسيط . يمكن أن يغفر الرب للزانية إذا تابت ، وهكذا لا تفقد أبديتها بل تجد لها نصيباً في الفردوس . أما ههنا فإنه توجد لها عقوبة أرضية تكايد بها جزاء خطيئتها . مادامت لم تكن أمينة لزوجها ، فلا يمكن أن يأتئنها الرب على زواج آخر ، بل تكون درساً لغيرها ...

والعقوبة الأرضية على أنواع :

إما أن تكون نتيجة طبيعية للخطية ...

وإما أن تكون ضربة من الله ...

وإما أن تكون عقوبة من المجتمع ، أو من الدولة ، أو من الكنيسة .

العقوبة الأرضية كنتيجة طبيعية للخطية :

هناك خطايا كثيرة تحمل عقوبتها في ذاتها :

فالزاني مثلاً قد يصاب بالضعف أو الأنيميا أو بعض الأمراض السرية .

والذى يتعاطى المخدرات مثلاً قد يصاب بفقدان الشخصية وبتلف الأعصاب .

والذى يدخن قد يصاب بالسرطان أو داء الرئة أو ضغط الدم أو غيرها من

الأمراض .

والطالب الذى يهمل دروسه ، له عقوبة على الأرض هى الرسوب والفشل .

والذى يلعب الميسر (القمار) ، يصاب بالفقر والعوز .

والأم التى لا تترى إبنها ، تقاسى الأمرين على الأرض من سوء أخلاق هذا

الإبن .

كل هذه عقوبات على الأرض ، غير العقوبة الأبدية . وقد تمحى

العقوبة الأبدية بالتوبة ، وتظل العقوبة الأرضية كما هى . فالأم التى لم ترب

إبنها ، قد تتوب وتغفر لها خطيتها ، ويظل إبنها مرارة قلب لها على الأرض . والتلميذ

الذى لم يذاكر ورسب ، قد يتوب ويغفر له الرب إهماله ، ولكن هذا لا يمنع أن

سنة من عمره قد ضاعت على الأرض سدى ... والذى تسبب له الخطية مرضاً ، قد

تغفر له الخطية بالتوبة ، ويظل المرض معه كعقوبة أرضية هى نتيجة طبيعية

للخطية .

● العقوبة الأرضية كضربة من الله :

قد يكون المرض مثلاً نتيجة طبيعية للخطية كالأعراض التى تنتج عن

التدخين وتعاطى المخدرات والزنى وشرب الخمر ... الخ . على أن هناك نوعاً

آخر من الأمراض يعتبر ضربة من الله . مثل ضربة البرص التى أصابت جيحزى

تلميذ أليشع عقاباً له على محبته للمال وكذبه على معلمه (٢مل ٥ : ٢٧) ، ومثل

ضربة البرص التى أصابت مريم أخت هارون وموسى عقاباً لها على تكلمها ضد

موسى (عدد ١٢ : ١٠) ، ومثل ضربة الدمامل التى أصابت مصر عقاباً على قساوة

قلب فرعون (خر ٩ : ١٠) . ومثل ضربة الوبأ الذى أصابت بنى إسرائيل عقوبة

على خطية داود الملك ، فمات منهم فى يوم واحد سبعون ألف رجل (٢صم ٢٤ :

١٥). وعن مثل هذه الضربة يقول الرب في لعنته للخاطيء « يلصق بك الرب
الوبأ حتى يبيدك عن الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها . يضربك الرب
بالسبل والحمى والبرداء والإلتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك ...
يضربك الرب بقرحه مصر وبالبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء »
(تث ٢٨ : ٢١، ٢٢، ٢٧).

وغير المرض هناك ضربات أخرى من الله : كالفشل مثلاً ... قد يكون
الفشل نتيجة طبيعية لإهمال الإنسان وتقصيره، وقد يكون أيضاً ضربة من الله لزوال
البركة (تث ٢٨).

كذلك من أمثال هذه الضربات : المهزمية ، والعبودية ، بل الموت أيضاً . إن
الخطية هي موت ، وعقوبة الخطية هي الموت أيضاً . مثلما حدث مع عالي الكاهن إذ
لم يرب أولاده (١ صم ٤ : ١٨) .
تأمل يا أخى في حياتك . أنظر في كل ما فعلته وفشلت فيه ، لعل هناك خطية
هى السبب فى كل ما يصيبك من ضربات .

● عقوبات للخطية من المجتمع والدولة والكنيسة :

هناك عقوبات للخطية تصيب الإنسان على الأرض لا يوقعها الله مباشرة، وإنما
يوقعها المجتمع أو الدولة أو الكنيسة .

فن العقوبات التى بناها الإنسان الخاطيء من المجتمع الفضيحة والعار وسوء
السمعة، بل قد يصل الأمر إلى الإحتقار أو إلى نبذ الإنسان من المجتمع الذى يعيش
فيه وتحاشى الخلطة معه ..

وقد تكون العقوبة الأرضية صادرة من الدولة كالأحكام التى يصدرها القضاء
على المذنبين بالسجن أو الأشغال الشاقة أو الإعدام أو النفي . وقد يكون الحكم
بالفصل من العمل أو بجزاءات مالية ... الخ
وقد تجتمع العقوبات معاً . عقوبة من الله . مع فضيحة من المجتمع ، مع سجن
تحكم به الدولة ...

وهناك أيضاً عقوبات كنسية كثيرة تشملها كتب القوانين الكنسية . ومن
ضمنها الحرمان من تناول فترة معينة ، أو الحرمان من دخول الكنيسة ، أو الإيقاف
عن الكهنوت أو التجريد ... أو عقوبات أخرى لا داعى الآن لسردها . ولكنى أقول

أن الكنيسة عندما كانت صارمة وحازمة في عقوبتها ، كانت جماعة المؤمنين أكثر قداسة وحرصاً وتديقياً ، وفيها خوف الله ...

وانت أيها الأخ ، إسأل نفسك : هل ارتكبت خطأ تستوجب به حكماً كنسياً لم يطع عليك ؟ ربما تكون هارباً من مثل هذا الحكم ولا تستحق دخول الكنيسة حسب القوانين ..

إن العقوبة الأرضية أمر سمح الله أن يوقع حتى على أحبائه القديسين الذين جاهدوا لأجله وفعلوا معجزات بإسمه .

عقوبات للأعيان والله القديسين

١) مثال داود النبي

أخطأ داود النبي ، زنى وقتل ... ثم اعترف بخطيئته على ناثان قائلاً «أخطأت إلى الرب» وسمع العفو الإلهي بقول ناثان له «والرب قد نقل عنك خطيئتك . لا تموت» (٢ صم ١٢ : ١٣) . وهكذا رفع الرب عن داود العقوبة الأبديّة . أما العقوبة الأرضية فبقيت ... وكيف كان ذلك ؟

تاب داود توبة عجيبة وعميقة ، وصارت له الدموع خبزاً ناراً وليلاً ، حتى قال «أعوم في كل ليلة سريري ، وبدموعي أبل فراشي» (مز ٦) . وانسحق نفسه في التراب وتذلل أمام الله ... ومع كل هذا ظل يطارده قول الرب «والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد ، لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثي لتكون لك امرأة . هكذا قال الرب ... هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك ، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطين لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس» (٢ صم ١٢ : ١٠ ، ١١) ... وقد كان ...

فلم يفارق الزنى بيته متمثلاً في خطايا إبنيه أمنون وإشالوم . ولم يفارق السيف

بيته أيضاً حيث قام ضده إيشالوم . وخرج داود من أورشليم حافي القدمين وبأكياً ومضطرباً وخائفاً من إبنة ... وقضى فترات ذل وتعب على الأرض نتيجة لخطيته ...

وحتى عندما أراد داود أن يبني بيتاً للرب ، وأعد كل شيء من حجارة وحديد ، « ونحاس كثير بلا وزن ، وخشب أرز لم يكن له عدد » ، لم ينس له الرب الدماء التي سفكها ، بل كان إليه كلام الرب قائلاً « قد سفكت دماً كثيراً ... فلا تبني بيتاً لإسمى ، لأنك سفكت دماء كثيرة على الأرض أمامي (١ أى ٢٢ : ٣-٨) . وهكذا حرّمه الرب من بناء الهيكل ، وبقيت العقوبة الأرضية على الرغم من المغفرة في السماء ...

تكرر الأمر مرة أخرى عندما أخطأ داود وعدّ الشعب ، فغضب عليه الرب . عندئذ ندم داود : ضربه قلبه ، فأحس بخطيئته وتاب عنها ، واعترف بها إذ صرخ إلى الرب قائلاً « لقد أخطأت جداً في ما فعلت . والآن يارب أزل إثم عبدك ، لأنني انحمت جداً » (٢ صم ٢٤ : ١٠) .

فهل رضى الرب بهذه التوبة منه ، وهذا الإعتراف ، وهذه الصلاة ... ؟ نعم ، قبل توبته ، وغفر له خطيئته ، ومحا عنه العقوبة الأبدية . ولكن بقيت العقوبة الأرضية . وهكذا مضى الرب في معاقبته لعبده ، وعرض عليه ثلاث ضربات شديدة تحمل معنى الإفناء والإهلاك ، وهي الجوع والوبأ وسيف الأعداء ! وقال داود مستسلماً « قد ضاق بي الأمر جداً . أقع في يد الله - لأنّ مراحمه كثيرة - ولا أقع في يد إنسان » . إلا أن الله على الرغم من هذا التذلل لم يشأ أن يعفو . وأرسل ملاكاً مهلكاً رفع سيفه على أورشليم وقتل منها سبعين ألف رجل ، حتى صاح داود في ألم لا يطاق مخاطباً الرب « ها أنا قد أخطأت وأنا أذنبت . وأما هؤلاء الخراف ، فإذا فعلوا؟! فلتكن يدك علىّ أنا وعلى بيت أبي » (٢ صم ٢٤ : ١١-١٧) .

ما هذا يارب الذى فعلته مع عبدك داود؟! أليس هو الذى قلت عنه « وجدت داود بن يسى رجلاً حسب قلبي »؟! (أع ١٣ : ٢٢) . لماذا لا تتراءف وتغفر؟ يقول : نعم ، أنا أغفر في السماء ، أما على الأرض فيأخذ عقوبته ... يا للهول ... ! حتى مع داود يارب !؟

حتى مع داود الذى يحبك ، الذى قال لك « محبوب هو إسمك يارب ، فهو طول النهار تلاوق » (مز ١١٨)؟! داود الذى كان ينهض فى نصف الليل ليشكر على أحكام عدلك ، الذى كان يقول «سبقت عيناي وقت السحر، لأتلو فى جميع أقوالك» (مز ١١٨)؟! داود الى كان يقول لك «يا الله ، أنت إلهي ، إليك أبكر. عطشت نفسى إليك. إلتحقت نفسى وراءك» (مز ٦٢)...! داود رجل التسبيح والصلاة ، رجل المزمار والقيثار والعشرة الأوتار... داود تعمل معه هكذا؟!!

فإن كان الأمر هكذا مع داود ، النبي ، المحبوب ، فإذا نقول نحن عن أنفسنا ، وليست لنا مثل دالته ، ولا مثل قداسته ، ولا مثل توبته؟! علينا أن نستيقظ إذن ونصحوا لأنفسنا ، لأن إلهنا عادل ومحاسب كل واحد حسب أعماله ، مهما كان مركزه الروحي عند الله نفسه .
إنه لم يفعل هكذا مع داود وحده ، بل مع موسى أيضاً :

٩ سؤال موسى النبي

مثال موسى النبي ، أصعب فى دلالاته من مثال داود . من ذا الذى يستطيع أن يصف المحبة التى كانت بين الله وعبده موسى؟! موسى حبيب الله وكليمه ، موسى رجل الآيات والمعجزات ، الذى شق البحر الأحمر ، الذى ضرب الصخرة فأخرجت ماءً. موسى الذى بصلاته حول الله المياه المرة إلى مياه حلوة ، الذى بصلاته أنزل اله المن والسلوى من السماء ، الذى كان رفع يديه أقوى من جيش يشوع . موسى الذى دافع الله عنه لما تقولت عليه مريم وهارون ، فضرب مريم بالبرص ، وقال لمريم وهارون «إن كان منكم نبي للرب ، فبارؤيا استعلن له ، فى الحلم أكلمه . وأما عبدى موسى فليس هكذا ، بل هو أمين فى كل بتي . فإ إلى فم وعياناً أتكلم معه لا بالألغاز ، وشبه الرب يعاين . فلماذا لا تحشيان أن تتكلما على عبدى موسى» (عد ١٢: ٥-٨) .

أخطأ موسى عندما ضرب الصخرة مرتين قائلاً للشعب المتذمر المتمرد «إسمعوا أيها المردة ، أمن هذه الصخرة نخرج لكم ماءً». فكانت النتيجة أن الله حكم عليه بعدم دخول أرض الموعد» (عد ٢٠: ٧-١٢) .

ما هذا يارب الذى تفعله ؟ هل تنسى كل هذه العشرة الطويلة من أجل

خطية واحدة حدثت في ظروف قاسية؟! ولكن الله بصر على أن موسى لا يدخل الأرض! ما هذا الذي تقول يارب؟ دا على رأى المثل (طباخ السم بيدوقه). وأنت تعرف كيف أنى تعبت من أجل هذا الشعب عشرات السنين، واحتملت تدمره في صبر وأنا أقوده في البرية وهو متمرّد صلب الرقبة... هل تنسى تعبي، أنا موسى عبدك، حبيبك، صديقك، كليحك...!

كل هذا ولا فائدة، والرب مصر على عقوبته. وتضرع إليه موسى: أنا أخطأت، يارب سامح، يارب اغفر، يارب إنس هذه الخطية «دعني أعبر وأرى الأرض الجيدة». وكان الله يقول بنفس المبدأ...

أنا أسامح في ملكوتي. أما ههنا فتنفذ العقوبة، حتى على موسى. ولما ازداد تضرع موسى النبي، غضب الله عليه وقال له «كفاك. لا تعد تكلمني أيضاً في هذا الأمر» (تث ٣: ٦). وأخيراً بعد إلحاح، وتوسلات وتضرعات، سمح له أن يرى الأرض من بعيد، من على الجبل، ولكن لا يدخل إليها!!

إن الله في عدله لم يجمال موسى حبيبه على الرغم من دالته عنده. وأنت يا أخى ما هي دالتك؟ هل مقامك عند الله أعلى من موسى؟! إن كان الأمر هكذا، أفلا تشفق على نفسك وتتب، لئلا تتعرض لعدل الله نتيجة خطيتك، فلا تشفع فيك حياة مقدسة سابقة. إن كان موسى وداود لم يفلتا من العقوبة، فهل تفلت أنت؟

أعطيك مثلاً آخر للعقوبة الأرضية هو يعقوب أبو الآباء:

٣) **سُكَّانُ يَعْقُوبَ أَبِي الْآبَاءِ**

يعقوب هذا الذى أحبه الله وهو فى البطن، قبل أن يولد، وقبل أن يفعل خيراً، قال الله «أحببت يعقوب وأبغضت عيسو» (رو ٩: ١٣). وأعطاه الرئاسة على أخيه الكبير وهو فى البطن، فقال لرفقة «فى بطنك أمتان، ومن أحشائك يفترق شعبان... وكبير يستعبد لصغير» (تك ٢٥: ٢٣). يعقوب هذا أخطأ، إطاعة لمشورة أمه التى كانت تحبه أكثر من عيسو، وخدع أباه وأخذ البركة...

فلم يتركه الله بدون عقوبة، على الرغم من ظهوره له، إذ نظر الله وجهاً لوجهه (تك ٣٢: ٣٠)، وعلى الرغم من المواعيد التي منحه إياها، والبركة التي زوده بها، والرؤى التي أعلنها له. إذ ظهر له على السلم الواصلة بين السماء والأرض وقال له «يكون نسلك كتراب الأرض... ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض. وها أنا معك، وأحفظك حيثما تذهب» (تك ٢٨: ١٤، ١٥).

على الرغم من كل هذا، كما غش يعقوب أباه، سمح الله لأولاده أن يغشوه بالمثل، عندما باعوا يوسف وغمسوا قبضه في دم تيس ذبحوه، وأشعروا أباهم أن وحشاً قد افترس يوسف. ووقع يعقوب في خدعة أولاده، ومزق ثيابه، وناح على ابنه أياماً كثيرة (تك ٣٧: ٣١-٣٤). كذلك خدعه خاله لابان، وزوجه ليثة بدلاً من راحيل التي كانت أحب إلى قلبه والتي تعب من أجلها سنوات طويلة. وغشه خاله أيضاً في أجرته فغيرها مرات عديدة...

وظلمت المتاعب تلاحق يعقوب، حتى أنه - في كلامه مع فرعون - لخص حياته في عبارة موجزة قال فيها «أيام سنى غربتي... قليلة وردية» (تك ٤٧: ٩)... حقاً إن خطيته كانت قد غفرت، وأظهر له الله رضاه بالبركة والرؤى والمواعيد. ولكنه - على الرغم من محبته له - لم يمنع عنه العقوبة الأرضية... هل اقتنعت أيها الأخ المبارك بخطورة عقوبة الخطية. يعوزني الوقت لو ضربت لك أمثلة أخرى عديدة من الكتاب المقدس، إنما أترك هذا الأمر لتأملك الخاص. وأعطيك الآن مثلاً أو مثالين من تاريخ الآباء:

٤ سأل القديس موسى الأسيوطي

كان في مبدأ حياته قاتلاً وقاسياً. ثم تاب، وأتى إلى الدير وترهب، وتدرج في حياة النعمة حتى صار مثلاً للوداعة والطيبة ومحبة الأخوة، وبلغ من محبته أنه كان أحياناً يمر على قلالي الرهبان يحمل جرارهم سراً ويمضي إلى البئر ليملاها لهم ماءً. ومنحه الرب موهبة الرؤى وصنع المعجزات. وتناهى في القداسة جداً حتى صار مرشداً روحياً لكثيرين. فأخذوه ورسموه قساً. وصار من أعمدة البرية المعدودين.

ولكن على الرغم من كل هذه التوبة ، وهذه القداسة ، وهذه المواهب ، هل نسي له الله خطاياہ الأولى التي تستحق العقوبة ؟

نسمع أنه عندما هجم البربر على الدير ، هرب الرهبان ، ودعوا الأنبا موسى ليهرب معهم . فقال لهم : أنا أعلم يا أولادى أن البربر سيقتلونى ، لأننى قتلت كثيرين فى شبانى . والكتاب يقول : « من أخذ بالسيف ، بالسيف يؤخذ » (مت ٢٦ : ٥٢) . وحدث هذا فعلاً ، وهجم البربر على أنبا موسى فقتلوه ، وتمت النبوءة ...

لعل البعض يتساءل : ما معنى أن يموت قديس عظيم هذه المينة البشعة ، وقد تاب عن جهالات شبابه ؟! ولكنها طريقة الله . مثال آخر :

٥١ مثال القديس الأنبا بيمن

قرأت قصة فى إحدى المخطوطات الثمينة بالدير ، قيل إن قديساً يدعى الأنبا بيمن كان متقشفاً جداً ، وكان يعيش حياة الفقر والعوز ، وتخلو مغارته من غطاء يقيه البرد بالليل ، هذا القديس زاره شاب فقضى الليلة فى مغارة أخرى إلى جواره . ولما أصبح الصباح سأله القديس بيمن كيف قضى ليلته ، فأجاب الشاب « تعبت من شدة البرد لعدم وجود غطاء » . فقال القديس فى خجل « أما أنا فنمت متدفئاً » . فسأله الشاب كيف كان ذلك ، فأجاب « أتى أسد بالليل ونام إلى جوارى فدقأتى بجسمه » .

ولما انذهل الشاب مما حدث للقديس وكيف يرقد إلى جواره أسد دون أن يفترسه . حينئذ قال القديس « أنا أعلم يا ابنى ، أنه لا بد ستفترسنى الوحوش فى يوم من الأيام . ذلك لأن شاباً طرفنى ذات ليلة فلم أفتح له وكان خائفاً وقد افترسته الوحوش فعلاً . كما عرفت » ...

وحدث ما توقعه الأنبا بيمن ...

هذه أمثلة للعقوبة الأرضية . ويوجد من أمثلتها الكثير جداً لمن يقرأ الكتاب ويطالع على قصص التاريخ ، وضعت كلها مثلاً لتعليمنا ...

• لهذا كله ، لا يصح أن نفهم مراحم الله الواسعة منفصلة عن عدله ، لئلا بحجة مراحم الله وحنوه وعطفه ، نقاد إلى الإستهانة والإستهتار ، ونرتكب

الخطية غير شاعرين بخطورتها ، وفي محبة الله لنا ننسى مخافته... !
لأن بعض الناس تستبيح لنفسها الخطية ، وتظن أن الأمر في منتهى السهولة !
بمجرد دقائق تقضيها مع أب الاعتراف ، تعترف وتسال الحل ، وكأن شيئاً لم
يحدث... !! كأن وصايا الله لم تكسر ، وكأن قلب الله لم يُجرح... !

حقاً أيها الأخ ، إن الأب الكاهن عندما يقرأ لك صلاة التحليل ، إنما يضيف
خطيتك إلى الكأس التي شرب الرب مرارتها ، فتنجو من العقوبة الأبدية بدم المسيح
إن كنت تائباً . أما العقوبة الأرضية فلها حساب آخر ربما لا تنجو منه ...
إحذر إذن لنفسك ، فالأمر ليس سهلاً كما تظن ...

ومع ذلك فلتعزيتكم ، ولكي لا تقعوا في الرعب واليأس ، أقول لكم :
إن الله لا يعاقب بعقوبة أرضية على كل خطية ...
وذلك لأن خطايا الإنسان لا تحصى ، وهو في كل يوم يخطيء... « وفي أشياء
كثيرة نعثر جميعنا » (يع ٣ : ٢) . فلو كان الله يعاقب بعقوبة أرضية على كل
خطية ، لتوالى العقوبات في غير نهاية ، وبغير حصر ، لتناسب عدد الخطايا ..
ولكن الله يترك الكثير ... ووسط مئات الخطايا ، قد يعاقب على واحدة منها ،
حتى لا يستهتر الإنسان ويقع في اللامبالاه ، وأيضاً لكي يتضع ويستفيد روحياً ،
كما حدث لداود النبي .

إن العقوبة الأرضية ، هي ولا شك من مراحم الله ، يدعونا بها إلى
البقطة ، فنفتيق من غفلتنا ، كما أنه يقودنا بها إلى الإنسحاق . فنشعر أننا
أخطأنا ، وأنا أغضبنا الله منا ، فنتوب ، ونرجع إليه ... وهكذا ننجو من العقوبة
الأبدية ، ليس لأن العقوبة الأرضية قد حلت محلها ، حاشا ! بل لأنها أيقظتنا
لنتوب ، فنستحق المغفرة .

إننا إن تألمنا هنا ، فهذا أفضل من آلام الأبدية ، ومن عارها ...
ومع ذلك ، فإن كانت عقوبات الأبدية مخيفة ، فإن الأمر لا يزال بيدنا .
فحتى هذه اللحظة ، مازال في أيدينا أن نقرر مصيرنا ...

لقد استطاع القديس بولس الرسول أن يقول بكل جرأة « وأخيراً وضع لي
إكليل البر ، الذي يهبه لي في ذلك اليوم الرب الديان العادل » (٢ تي ٤ : ٨) .

فهل تستطيع أن تقول نفس عبارة القديس بولس ١؟ ليتك تستطيع ...

وحتى إن كان إكليل البر قد وضع لك ، فاحترس ، و «تمسك بما عندك ثلثاً
يأخذ أحد إكليلك» (رؤ ٣ : ١١) . وعش في حياة التوبة والإحتراس كل
أيامك .

إن الخوف من عقوبة الخطية ، يدفعك إلى التوبة . ولا شك أن هناك دوافع
أخرى ، فما هي ؟ ...



الفصل الخامس

دوافع أخرى للتوبة

هناك دوافع للتوبة ، تصدر من داخل الإنسان ، من مشاعر قلبه ، ذكرنا الكثير منها . وهناك دوافع أخرى للتوبة تكون من الخارج ، تأتي إلى الإنسان حتى دون أن يطلب . ونذكر من بين هذه الدوافع :

زيارات النعمة :

إن الله « يريد أن الجميع يخلصون ، وإلى معرفة الحق يقبلون » (١ : ٢ : ٤) . ولذلك فهو يسعى إلى خلاص الكل . ونعمته تعمل في الخطاة لكي يتوبوا ، لكي يريدوا ولكي يعملوا (في ١٣ : ٢) . كل إنسان لا بد أن تأتيه زيارات النعمة ...

شاوول الطرسوسي كمثال :

لقد شهد عن نفسه أنه كان من قبل مجدفاً ومفترياً ومضطهداً للكنيسة (١ : ١٣ : ١) . وكانت مناخس تنخس ضميره لكي يترك هذه القسوة وهذا العنف . ولكنه كان يرفس هذه المناخس ولا يستجيب ... وأخيراً ظهر له الرب في طريق دمشق وعاتبه بقوله « شاوول شاوول ، لماذا تضطهدني ؟ صعب عليك أن ترفس مناخس (أع ١٣ : ٢٦ ، ٤ : ٩ : ٥) .

وواضح أن قيادة شاوول إلى التوبة وإلى ترك اضطهاده للكنيسة ، لم تبدأ من داخل نفسه ، إنما أتاه الدافع من الخارج من زيارة النعمة بقاء الرب له ، الذي صالحه وأصلحه ودغاه لخدمته ...

نفس الوضع حدث مع يونان النبي ...

كان هارباً من الرب ، وكان غير موافق على المناادة لنيوى ، لئلا تدركها رحمة

الله ، فتسقط كلمته... (١) وفعلاً لما قبل الرب توبة نينوى وخلصت هذه المدينة ،
جلس يونان شرقى المدينة مغتاضاً...! بل إنه «إغتاظ حتى الموت» وقال «موتى خير
من حياى» (يون: ٤: ١-٣) .

وفيا هو هكذا ، زارته نعمة الرب لتخلصه من غمه الخاطيء... كلمه الرب
بنفسه لكى يصلحه ، لكى يشرح له ، ويغير قلبه ، ويقوده إلى التوبة...
وهكذا كانت النعمة بصوت الله وصلت إلى النبي ، كما حدث مع شاول...
ولكن لا يشترط فى النعمة أن يكلم الله الإنسان...

إنما قد يرسل الله شخصاً ، يبكت هذا الخاطيء لكى يتوب ...

كما حدث حينما أرسل الرب ناثان لكى يبكت داود ليتوب...

لم يكن داود يحس ما هو فيه ، بل كان يتدرج من خطية إلى أخرى : من
الشهوة إلى الزنى إلى القتل... إلى أن زارته النعمة بمجىء ناثان إليه ، وتعرفه
بخطورة ما حدث منه... حينئذ فقط بدأت تستيقظ نفسه الغافلة ، وقال «أخطأت
إلى الرب» (٢صم ١٢: ١٣) . ثم بدأ قصة توبة عميقة ، بلل فيها فراشه بدموعه
(مز: ٦) .

وهكذا لم تبدأ توبة داود من دوافعه الداخلية ، إذ كانت نفسه فى غفوة مستمرة
فى الخطية ، إنما بدأت التوبة بدافع خارجى ، بتبكيك من الخارج . وهنا دخلت
مشاعر التوبة إليه ، وبدأ العمل الداخلى فيه ...

وأنت أيها القارىء العزيز ، هل تدري ... ربما الإنسان الذى يبكتك على
خطية ، هو مرسل من نعمة الله إليك ، ليقودك إلى التوبة ...

فإن رفضته ورفضت توبيخه - حتى لو كان قاسياً - تكون رافضاً لنعمة الله
العاملة فيك . وتكون زيارة النعمة قد افتقدت ولم تستفد منها .

لا تظن أن زيارة النعمة ، لا تأتى إلا عن طريق صوت الله أو صوت نبي ، أو
عن طريق حلم أو رؤيا ، أو أمثال هذه الأمور الفائقة ، إنما قد يكون الأمر أبسط
من هذا بكثير...

(١) أنظر كتابنا « تأملات فى سفر يونان النبي » .

فقد تفتقدك النعمة بمرض مثلاً ، يكون هو صوت الله إليك ...

كالمرض الذى افتقد به الرب مار أوغريس ، وقاده ليس فقط إلى التوبة ، وإنما إلى الرهبنة أيضاً . وكالمرض الذى افتقد به الرب الأنبا تيموثاوس السائح . وكقصص أمراض عديدة وردت في الكتاب وفي التاريخ ...

وقد يكون المرض الذى يفتقدك الرب به ، مرضاً لا يصيبك أنت ، وإنما يصيب أحد أحبائك المقربين إليك جداً . ويستطيع هذا المرض أن يشد ركبتك إلى أسفل^ه ويرفع يديك إلى فوق ، فتصرخ من أعماقك إلى الرب . وقد استطاع المرض أن يعصر قلبك عصراً ، فيتجه إلى الله ويصطلح معه من أجل هذا الذى تجبه ...

وقد تكون زيارة النعمة على شكل ضيقة أو مشكلة ...

تكون هى أيضاً صوت الله إليك ، يناديك أن تتوب ، لكى يترأف الرب عليك ويخرجك من هذه الضيقة (١) .

وقد يدفعك الرب الى أيدى أعدائك ، فيقومون عليك ، فترجع إلى الرب ، لكى ينقذك ، وأمثلة هذا الأمر كثيرة في سفر القضاة ...

المهم أن تكون حواسك الروحية مدربة ، تستطيع أن تميز بها صوت الله الذى يناديك لكى ترجع إليه ...

لذلك في كل ما يربك من أمراض ومن ضيقات ومن مشاكل ، لا تفصل شيئاً من هذا عن علاقتك بالله . إجعلها كلها تقوى علاقتك به ، وتعمق صلواتك ، وتر يد عبتك للرب ...

وقد تأتبك زيارة النعمة ، أثناء قراءتك لكتاب روحى ، أو أثناء سماعك عظة روحية أو لحن مؤثر ...

فتجد شعوراً في داخلك ، يحثك أن تعمل شيئاً من جهة علاقتك بالله ... تجد قلبك في حالة غير طبيعية ، يتحرك داخلك ، أو يتحرك عمل الروح داخله . وتجد الروح القدس يببكتك على خطية ، أو يشوقك إلى الحياة مع الله ، وإلى التصالح معه ... إنها زيارة من النعمة . إحرص ألا تفلت منك ...

إن زيارة النعمة افتقدت فيلكس الوالى حينما كان القديس بولس الرسول يتكلم

(١) أنظر كتابنا « اليقظة الروحية » فهو في الواقع جزء من سلسلة موضوع « حياة التوبة والنقاوة » وفيه بناب عن (دوافع اليقظة الروحية) من ٢٨ صفحة ، يصلح أن ينضم إلى موضوعنا هذا الذى نظره الآن ...

عن البر والتعفف والدينونة العتيدة أن تكون ، فارتعب فيلكس (أع : ٢٤ : ٢٥) .
ولكنه للأسف لم يستغل زيارة النعمة لمنفعته . بل قال لبولس « إذهب الآن ، ومتى
حصلت على وقت إستدعيتك » .

أما أنت فإن زارتك النعمة ، لا تنس قلبك ، ولا تؤجل التوبة ...
إستفد من كل شعور روجي تحدئه النعمة في داخلك ، وبخاصة حينما تشعر
بشورة في داخلك على حياة الخطية ، وبمحة طارئة نحو الله ، ربما لم تكن موجودة في
داخلك من قبل ...

لقد زارت النعمة أغريباس الملك فيما كان القديس بولس يتكلم ، فقال
أغريباس لبولس « بقليل تقنعني أن أصير مسيحياً » (أع : ٢٦ : ٢٨) .
واكتفى أغريباس بمجرد الإقتناع ، دون أن يخطو خطوة أخرى ...

أما أنت فإن زارتك النعمة ، لا نكتف بمجرد الإقتناع ...
لأنه ماذا يفيدك إن اقتنعت أن طريقك خاطيء ... دون أن تقوم عملياً بتغيير
هذا الطريق ...

لا تجعل زيارة النعمة تعمل في عقلك فقط ، أو حتى في قلبك فقط ، إنما يجب
أن تعمل أيضاً في إرادتك ، فتقوم وتعمل عملاً .
على أن زيارات النعمة تقدم لنا حقيقة جميلة ومعزية وهي :

حتى إن كنت أنت لا تسعى إلى خلاص نفسك ، فإن الله المحب يسعى
بنعمته لكي يخلصك ، وهو الذي يبدأ ...

كل ما يريد الرب منك هو الإستجابة لصوته في داخلك ،
يريدك أن تعمل معه ، حينما يبدأ هو أن يعمل فيك ،
يريدك حينما تسمع صوته أن لا تقسى قلبك ،
وحيث تقودك زيارة النعمة إلى التوبة ، كما قادت كثيرين ...

إن زيارات النعمة تعطى لكل خاطيء دفعة من رجاء ...
يثق بها أن الله يحبه ، وأنه لا ينسأه أبداً في رعايته ، ويبحث عنه كما بحث عن
خروفه الضال . وإن لم تكن في قلب هذا الخاطيء مشاعر تقوده إلى التوبة ، فإن
الرب يغرس في قلبه هذه المشاعر بعمل نعمته ، ويهد كل الوسائط التي تجعل قلبه
يتحرك نحو التوبة ...

الباب الثالث

وَسَائِلُ التَّوْبَةِ

{كيف تتوب}

قد يكون لكل إنسان الأسلوب الذى يصل به إلى التوبة ، أو الأسلوب الذى تراه النعمة مناسباً له ، أو مناسباً لظروفه ...

على أن هناك قواعد عامة - فى الطريق إلى التوبة - تناسب الكل .
ولعل من أهم هذه القواعد النصائح التالية :

- ١ - إجلس مع نفسك . حاسبها . واخرج معها بقرار ...
- ٢ - لا تلتمس لنفسك الأعذار والتبريرات .
- ٣ - لا تؤجل التوبة . إبدأ من الآن ، وانتزح الفرص .
- ٤ - إهتم بخلاص نفسك . واعرف ما يطلبه الله منك .
- ٥ - إبعد عن الخطوة الأولى إلى الخطية .
- ٦ - إبعد عن قساوة القلب ، حينما تعمل النعمة فيك .
- ٧ - أعد تقييم سلوكك . وابدع عن الخطايا التى تلبس ثياب الحملان .
- ٨ - إبعد عن الثعالب الصغار المفسدة للكروم . واسلك بتدقيق .
- ٩ - إهتم بالإعتراف والتناول .
- ١٠ - إهتم بعلاج نقط الضعف التى فيك ، وبالذات الخطايا المحبوبة منك .
- ١١ - إهتم بحبة الله ، لتطرد منك حبة الخطية .
- ١٢ - صارع مع الله وخذ منه قوة ، لكى بهذه القوة تتوب .

* * *

وسنحاول أن نتناول كل هذه النقاط واحدة فواحدة ... لكى نتأمل نفعها فى حياة التوبة ...



إجلس مع نفسك

أنت تريد أن تتوب . هذا حسن جداً . الله أيضاً يريدك أن تتوب لأنه «يريد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون» (١١:٢:٤) . ولكن يبقى السؤال أماننا هو:

تتوب عن ماذا ؟ وكيف تتوب ؟

لذلك فأنت محتاج أن تجلس إلى نفسك ، لأنك واحد من اثنين :

١ - إما أنك لا تحس ما أنت فيه من خطأ . لا تعرف حالتك بالضبط ، ولا تدرك أخطائك ، ولا عمقها وبشاعتها ، لأن دوامة المشغوليات والإهتمامات تجذبك إليها باستمرار ، وأنت غارق فيها تماماً ... ليس لديك وقت أن تفكر في نفسك وفي روحياتك ، وربما لم يخطر هذا الموضوع على ففرك !

فأنت إذن محتاج أن تجلس إلى نفسك ، لتدرك حالتك وتعرف أخطائك .

٢ - أو أنت تعرف أخطائك ، أو تعرف البارز منها . ولكن ليس لديك وقت ولا فرصة ، لكي تفكر كيف تترك هذه الأخطاء ، وكيف تعالجها ... فقبل أن يدور بذهنك أن تعالج خطأ معيناً ، تكون قد وقعت فيه مرة أخرى ، أو وقعت في غيره أو في ما هو أبشع منه ... والأخطاء والخطايا تحيط بك من كل ناحية . وليست هناك فرصة للتخلص منها .

فأنت محتاج إذن أن تجلس أيضاً إلى نفسك لكي تعالجها .

إنك تشبه مريضاً : إما أنه لا يحس ما فيه من مرض ، أو يدرك أنه مريض ، ولكنه يحتاج إلى كشف وتشخيص دقيق ، وعلاج ...

بحاجة أن يجلس إلى أجهزة التحليل ، وإلى كشف الأشعة ، ومعرفة ما يدور في داخله بالضبط ، ونوعية ومدى خطورة أمراضه . وهو يحتاج أيضاً أن يعرف العلاج ، ويمارسه لكي يشفى ، وأن يتابع هذا العلاج مع طبيب حكيم خبير بالأمراض وعلاجها ... وهذا كله لا يتأق للمريض إلا إذا انتزع نفسه من جميع مشغوليته مها

كانت أهميتها، وجلس إلى أجهزة التحليل والأشعة لمعرفة نفسه، بعيداً عن الناس .
وهنا تبدو أهمية الجلوس مع النفس روحياً ...

ولكن ما هو برنامج هذه الجلسة الروحية وعمل الإنسان فيها ؟
إنها جلسة هدفها التوبة وتنقية النفس . وذلك بأن تكتشف خطاياك
وضعفاتك، وتلوم نفسك عليها . ثم تعرف أيضاً أسباب سقوطك، سواء أكانت أسباباً
خارجية تضغط عليك، أو أسباباً داخلية تسمى فيها أنت إلى الخطية، أو هي طبع
وعادات أو تأثير بآخرين ... وتحاول أن تتحاشى كل هذا وتبعد عنه أو تعالجه .

وفي هذه الجلسة تعرض ضعفاتك وخطاياك على الله ...
تعرض عليه كل ضعفاتك ، لكى تنال منه القوة ،
وتعرض عليه فى ندم كل خطاياك ، ليهيك الخلل والمغفرة ...
تعرضها وأنت تقول للرب فى صلاة منسحقة ، ما سبق أن قاله داود : « إنضج
علتى بزوفاك فأطهر، واغسلنى فأبيض أكثر من الثلج » (مز ٥٠) . ثم تخرج من هذه
الجلسة، لكى تعترف بهذه الخطايا أمام الأب الكاهن، لكى يقرأ لك صلاة
التحليل، ويرشدك بما يلزم، ويسمح لك بالتناول ...

وفي جلستك الروحية مع نفسك، تعزم فى قلبك عزمًا أكيداً على ترك
الخطية، بكل رضى واقتناع داخلى ...
فأنت لا تقصر جلستك فقط على بحث الماضى والندم عليه، ولوم النفس
وتبكيها على سقوطها ... إنما أنت أيضاً فى جلستك مع نفسك :
تضع خطة حكيمة للمستقبل من واقع حالتك واختياراتك ...
وتصمم فى أعماقك أن تسلك فيها بتدقيق شديد، وبجدية والتزام .
وفى هذا العزم على حياة نقية فى المستقبل، لا تتوسط تفاصيل عديدة، إنما
إهتم أولاً بنقط الضعف الواضحة التى فىك، وبالفضائل الأمهات التى تحوى داخلها
باقى الفضائل ... فإنك إن أدركت واحدة منها فى عمقها - كمحبة الله مثلاً - أدركت
الحياة الروحية كلها ...

وهذا العزم المقدس ، لا بد أن تعرضه على الله ليباركه ويقويك .
وأنا أنصح أن هذا لا يكون نذراً تنذره كما يفعل البعض . ولا يكون استنزالاً

للويلات على نفسك ، كما يقول البعض « يفعل بي الله ويزيد ، إن فعلت هذا مرة أخرى في المستقبل... » .

فهذه النذور والويلات ، قد تحوى في داخلها اعتماداً على ذراعك البشرى .

كأن لك القوة الذاتية التي تستطيع أن تنفذ بها ما تعد الله به ، مهما كانت العقبات والحروب التي تصادفك . وما أكثر من وعد الله وعوداً ، ولم ينفذ . ثم عاد ليقول في حزن :

كم وعدت الله وعداً حائثاً ليتنى من خوف ضعفى لم أعد

إنما الأمر لا يعدو أنها رغبات مقدسة ، تعرض فيها إرادتك وعزمك أمام الله ، ليعطيك قوة على التنفيذ ، لأنك بدونه لا تستطيع أن تفعل شيئاً (يو ١٥ : ٥) . وهكذا تتحول جلستك مع نفسك إلى صلاة تطلب فيها القوة للسير في حياة التوبة ونقاوة القلب ...

ولا شك أن الشيطان يقاوم بكل قوته جلوسك مع نفسك . لأنه يخشى أن تفلت من سيطرته ، عن طريق أمرين :

أ - إنه يخشى أن تجلس مع نفسك ، فتدرك سوء حالتك الروحية ، فتفكر جدياً في التوبة ، وبهذا تفلت من يده .

ب - يخشى إن جلست مع نفسك ، أن تجلس مع الله أيضاً ، وتنال منه قوة روحية لا يقوى الشيطان على مقاومتها ، فتغلبه بهذه القوة الإلهية .

والشيطان جرب أن كثيرين ، جلسوا مع أنفسهم فتابوا ...

وكمثال هؤلاء قصة الإبن الضال (لو ١٥ : ١١ - ٢٤) .

لما كان هذا الإبن الضال مشغولاً مع أصحابه ، إستمر في ضلاله ، إذ لم يكن لديه وقت ولا رغبة للجلوس مع نفسه ...

ولكن كيف إذن بدأت قصة توبته ؟ تلك القصة التي استحققت أن تسجل في الإنجيل من فم الرب نفسه ...

بدأت لما جلس إلى نفسه في يوم ما ، وفحص حالته ، وفكر في حياته وفي لوضع الذي وصل إليه . وأدرك الحقيقة المرة .

أدرك - في جلسته مع نفسه - مقدار سوء حالته التي انحدر إليها ... فقال
« كم من أجبر عند أبي يفضل عنه الخبز، وأنا هنا أهلك جوعاً » ... ولكن هل مجرد
إدراك سوء الحالة يكفي؟ كلا. إنما لا بد من الوصول إلى جل. وما هو الحل؟ قال
« أقوم وأذهب إلى أبي، وأقول له « أخطأت إلى السماء وقدامك، ولست مستحقاً أن
أدعى لك إبناً. إجعلني كأحد أجراءك » (لوقا: ١٧-١٩).

لقد أدرك سوء حالته، وعرف الحل، ووصل إلى قرار، ونفذ ...
نفذ في الحال، إذ يقول الكتاب بعدها مباشرة « فقام وجاء إلى أبيه... » (لوقا: ٢٠: ١٥). وبدأ حياة جديدة إصطلح فيها مع الآب ...

ويقيناً لو لم يجلس الإبن الضال هذه الجلسة المصيرية مع نفسه، ما كان قد
وصل إلى القرار وإلى التوبة والإنسحاق والرجوع والتصالح، والخروج من قبضة
الشیطان، إلى حيث لبس الحلة الأولى ...

مثال آخر هو القديس أوغسطينوس ...

إنه لم يستطع أن يتوب وهو في دوامة المشغوليات، دوامة الأصحاب والخطية
واللذة، ثم دوامة الفلسفة والفكر... ولكنه لما جلس إلى نفسه، تلك الجلسة العميقة،
استطاع أن يصل إلى الإيمان وإلى التوبة، ويرجع إلى الله، ويفلت إلى الأبد من
قبضة الشيطان، ويصير بركة لكثيرين.

إنها ليست مجرد جلسة عادية، إنما هي جلسة مصيرية ...
صدقوني إن أهم عمل للآباء والمرشدين والوعاظ، هو دعوة كل إنسان خاطيء
إلى الجلوس مع نفسه في حضرة الله، وفي ضوء وصاياه، مثلما فعل أوغسطينوس أو
الإبن الضال الذي حسناً قيل عنه إنه « رجع إلى نفسه » (لوقا: ١٧).

لذلك فالشيطان يقاوم جلوس الإنسان مع نفسه. وذلك بأمرين:

أ - إما أنه يمنع جلوسك مع نفسك بأن يقدم لك عشرات المشغوليات،
ومئات الأفكار. ويذكرك بأمر ترى أنها هامة جداً ويجب أن تنفرد لها. وكل ذلك
لكي تعود إلى دوامتك مرة أخرى ...

مثال ذلك إن انتهزت فرصة بداية عام جديد من حياتك لتجلس مع نفسك،
يمكن للشيطان أن يعمل على شغل هذه المناسبة بالحفلات والمجاملات، حتى تشتغل
بها ولا تخلو للتفكير في نفسك.

وإن كانت بداية عام ميلادى ، أو عام قبطى ، تريد أن تجلس فيها مع نفسك ، يحاول أن يمنعك عن ذلك بأنشطة روحية واجتماعات وكلمات ، حتى لا تتفرغ لنفسك . فما أسهل في عيد النيروز مثلاً ، أن ننشغل بالحديث عن الشهداء وعذاباتهم واحتمالهم وشجاعتهم وأمجادهم ، وننسى أنفسنا ... نتحدث عن التاريخ ، وننسى الواقع الذى نعيشه ... نتحدث عن جدودنا العظام ، ولا نفكر في كيف نشابههم ... حسنة بلا شك هي أخبار الشهداء ، ولكن إلى جوارها فلنفكر في أنفسنا ، لأنهم تركوا لنا مثلاً لنقتدى به ...

ولكنها محاولة - ولو بأسلوب روحى - لمنع الإنسان من الجلوس مع نفسه . فإن أصرت على الجلوس مع نفسك . وقلت «إفعلوا هذه ، ولا تتركوا تلك» ... حينئذ يلجأ الشيطان إلى حيلته الثانية وهى :

ب - يحاول الشيطان أن يدخل في جلستك مع نفسك ، ليفقدها فوائدها ... إنه لا ييأس أبداً . مادام لم يستطع أن يمنعك عن الجلوس مع نفسك ، فليمنع عنك روحياتها . وذلك بأن يقدم لك أفكاراً وأحاسيس ، ويمنعك من تبكيت نفسك ، ويخفف من مشاعر ندمك ... ! فكيف ذلك ؟

إن تذكرت أية خطية ، فبدلاً من أن ينسحق قلبك بسببها ، وتوبخ ذاتك عليها بدموع التوبة ، يقدم لك الشيطان عنها أعذاراً وتبريرات !

أما أنت فاعلم أن هدفك من هذه الجلسة الروحية هو تنقية نفسك وليس تبريرها . وتنقية النفس تأتي بمعرفة خطاياها وتبكيها عليها ، وليس بتدليل النفس أو مجاملتها أو تخفيف المسؤولية عنها بإلقائها على الوسط الخارجى أو على الآخرين .

لذلك في جلستك مع نفسك ، كن صريحاً معها إلى أبعد حد ...

لا تجاملها ولا تدللها ، فهذا لا ينفعك روحياً ، ولا يقودك إلى التوبة . بل إكشف لها كل أخطائها وكل ضعفاتها ، بكل ما فيها من دنس ومن بشاعة . ولا تحاول أن تقدم عنها أعذاراً وتبريرات . إنما قدم عنها توبة وندماً وانسحاق قلب . واعرف أن العشار قد خرج مبرراً دون الفريسي ، لأنه انسحق أمام الله وطلب الرحمة لأنه خاطيء (لوقا : ١٨ : ١٣) . والكتاب يقول «أنت بلا عذر أيها الإنسان» (رو : ١ : ٢٠) . ويقول أيضاً «ليس لهم عذر في خطيتهم» (يو : ١٥ : ٢٢) .

إنك لا تنال المغفرة بالتبريرات ، إنما بالتوبة تؤهل للغفران ...

فكما تميز العشار على الفريسي بإدائه لنفسه ، كذلك تميز اللص اليمين على زميله اللص الآخر في قوله «نحن بعدل جوزينا ، لأننا ننال استحقاق ما فعلناه» (لو ٢٣: ٤١) ...

مغبوط هو الإنسان الذي يتكشف خطاياها في جلسته مع نفسه . ومغبوط أكثر من يقدم هذه الخطايا للرب محفوفة بالندم ، مبللة بالدموع .

إهتم إذن بإدانة نفسك ، فإن ذلك يساعدك على التوبة ويجلب لك الإلتضاع وانسحاق القلب ، ويمكنك من الإعتراف ، ويجعلك قريباً من الرب الذي يقول عنه الكتاب «قريب هو الرب من المنسحقين بقلوبهم» . وحسناً قال القديس الأتبا أنطونيوس «إن دنأ أنفسنا ، رضى الديان عنا» .

ولهذا فإن جلست مع نفسك ، وتذكرت خطاياك ، فلا تعذر ذاتك ، ولا تجلب اللوم على غيرك ناسياً ما فعلته أنت ، كما فعل آدم وحواء ...

إن لومك لغيرك لا يبررك ، حتى لو كان ذلك الغير ملوماً فعلاً ... لهذا يجب أن تركز على ما فعلته أنت ، لأنك مطالب به ...

إنها حيلة ولا شك من الشيطان أن يجعلك في محاسبتك لنفسك ، تهتم بمسئولية الآخرين عن خطاياك ، وليس بمسئوليتك أنت ... !

ولعل من حيله أيضاً ، أنه يقلل لك من خطورة خطاياك ...

ولا يجعلها تبدو على حقيقتها في بشاعتها ، كما لو كانت شيئاً بسيطاً ، لا تستحق أن تحزن بسببها وتندم . وما أسهل أن يسمى لك الخطايا بغير أسمائها ، أو يفلسف الخطية ، ويحاول أن يخفيها وراء سلامة القصد أو حسن النية ... ! وهكذا يوسع ضميرك ، لكى يتلع خطايا معينة ، لا تريد أن تتحمل مسئوليتها أو نتائجها ...

وكل هذا يقودك ولا شك إلى الإستهانة واللامبالاة ، ولا يساعدك على التوبة ، بل ربما يدفعك إلى الإستمرار فيما أنت فيه ، ويبعد عنك خشوع القلب ، وانسحاقه .

أما أنت فكن حازماً مع نفسك ووبخها . وإن كنت لا تتحمل أحياناً أن يكلمك الغير بصراحة من جهة أخطائك ويوبخوك ، فعل الأقل يمكنك أن توبخ

نفسك بنفسك . قل لها ما يريد الناس أن يواجهوك به ، ولكن يمنعهم الخجل ، أو الأدب والإحتشام ، أو عدم رغبتهم في جرح شعورك ... وكما قال القديس مقاريوس الكبير «أحكم يا أخى على نفسك ، قبل أن يحكموا عليك» .

وإن كان في طبعك شيء من القسوة أو الشدة فاستخدمه ضد نفسك ولا تستخدمه مع الناس ... إن نفسك هى التى تحتاج إلى الشدة لكى ترتدع ولا تعود تخطئ . أديها إذن بقضيب من حديد ، وربها فى خوف الله وفى طاعته . وإن كان يلزمك باستمرار محاسبة النفس ، فإنه يلزمك أيضاً معاقبة النفس ، بدلاً من أن يعاقبها الله ...

وفى إيدانتك لنفسك ، تذكر قول القديس العظيم الأنبا أنطونيوس :
« إن ذكرنا خطايانا ، ينساها لنا الله ، وإن نسينا خطايانا ، يذكرها لنا الله » .

إن داود الملك ، لما كان لا يحس بخطيئته ولا يذكرها ، أرسل له الله ناثان النبي ، فشرح له بشاعة الخطية وقال له «أنت هو الرجل» (٢صم ١٢ : ٧) . ولما أدان داود نفسه وقال «أخطأت إلى الرب» سمع بعدها مباشرة عبارة «والرب نقل عنك خطيتك . لا تموت» (٢صم ١٢ : ١٣) . فلا تنتظر أنت أن يرسل لك الله ناثان آخر يكشفك ...

إجلس إذن مع نفسك لكى تدينها ، وتؤهلها بالتوبة لنوال المغفرة ...
وإن كان البعض قد تعود أن يجلس جلسة جديدة مع نفسه فى بداية العام الجديد ، أو فى الأصوام ، أو فى مناسبات هامة فى حياته ...

فاجلس أنت مع نفسك كل يوم وحاسبا ...
إفحصها ، واطمنن باستمرار على نقاوتها . واسهر على سلامة اتجاهاتها ، وتابعها فى حياة التوبة ، إن كانت قد بدأت هذه التوبة من قبل ... خوفاً من أن تفتقر الحرارة التى بدأت بها الطريق مع الله ...



لا تستخدم أساليب التبريرات والأعذار

إن كنت تريد أن تحيا في حياة التوبة ، فلا تحاول أن تقدم أعذاراً أو تبريرات عن كل خطية تقع فيها...

فالأعذار لا تتفق مع حياة التوبة ، ولا مع حياة التواضع ...
فالتبريرات معناها أن الإنسان يخطيء ، ولا يريد أن يتحمل مسؤولية أخطائه...
يخطيء ويقدم الموضوع كأنه شيء طبيعي جداً ، هناك أسباب دعت إليه ! كأن لا خطأ في الأمر...

مثل هذا الذي يجد لخطيته ما يبررها ، كيف يمكن أن يتوب عنها؟!

التبريرات هي محاولة لتغطية الخطية ، وليست توبة عن الخطية . وبإيجاد مبرر للخطية ، ما أسهل أن يستمر المخطيء فيها ، وعذره معه !!

إنسان يغطي الخطية بعذر ، كما يغطيها غيره بالكذوبة . ويريد بهذا التبرير أن يخرج من الخطية سليماً بلا عيب ، بلا لوم ، يلتف بثوب من المجد الباطل ... بينما الخطية هي الخطية مهما كانت الأسباب المحيطة بها ، أو الظروف المصاحبة لها...
ألسنا في صلاة الثلاثة تقديسات نطلب جلاً ومغفرة حتى عن الخطايا الخفية ، والتي فعلناها بغير معرفة ، أو بغير إرادتنا ، ولا نعتبر كل هذه مبررات ...

صدق الذي قال إن طريق جهنم مفروش بالأعذار والتبريرات والحجج .

تاريخ الإعذارات قديم :

خطية المبررات قديمة بقدم البشرية ، منذ أبونا آدم وحواء ...
حاول آدم أن يبرر خطيته بأن المرأة أعطته . وحاولت حواء أن تبرر خطيتها بأن الحية أغرقتها . ولكن الله ما قبل عذراً من آدم ولا من حواء . ولا حتى وجد هذه الأعذار تستحق الرد أو المناقشة . بل على العكس عاقب آدم على العذر الذي قدمه ،

وقال له في مقدمة عقوبته «لأنك سمعت لقول إمرأتك وأكلت من الشجرة...»
(تك ٣: ١٧).

وللأسف . توارثنا نحن خطية التبرير هذه من آدم وحواء عبر الأجيال ...

بل أن قديساً عظيماً مثل إبراهيم أبي الآباء ، وقع في هذه الخطية عينها ،
لما قال عن سارة إنها أخته (تك ٢٠ : ٢ : ١١) .

وبسبب هذا أخذها أبيمالك ملك جرار إلى بيته . وكان من الممكن أن يقترب
إليها ، لولا أن الرب منعه في حلم وأنذره بالموت بسبب ذلك ... فلما عاتب أبيمالك
أبانا إبراهيم قائلاً له «بماذا أخطأت إليك ، حتى جلبت علي وعلى مملكتي خطية
عظيمة؟! أعمالاً لا تعمل عملت بي!» ... أجاب أبونا إبراهيم بمحاولة يبرر فيها
مسلكه ، وقال «إني قلت ليس في هذا المكان خوف الله البتة ، فيقتلونني لأجل
إمرأتي» (تك ١٠ : ١١) .

وما أسهل الرد على هذا التبرير ، الذي ألقى فيه المسؤولية على غيره ...

لأنه يمكننا أن نقول : ولماذا أتيت يا أبانا إلى هذا المكان الذي لا يوجد فيه
خوف الله ؟ ولماذا أقمت فيه ولم تتركه مادام هو هكذا ؟ وهل دخلت هذا المكان
بإرشاد من الله الذي قال لك من بدء دعوتك «إذهب... إلى الأرض التي أريك»
(تك ١٢: ١) . وهل يجوز يا أبانا أن تضحي بإمرأتك من أجل سلامتك ، وتعرضها
بهذا لخطر إقتراب رجل غريب إليها ، وتعرض هذا الغريب لغضب الله ؟! ولماذا
تلجأ إلى هذه الطرق البشرية لحمايتك ، دون اللجوء إلى معونة الله ؟!

ويبدو أن أبانا إبراهيم لما وجد التبرير ، إستمر وجعله سياسة ثابتة !

وهكذا قال لزوجته في صراحة تامة « هذا هو معروفك الذي تصنعيه إلي : في
كل مكان نأتى إليه ، قولى عنى هو أخى» (تك ٢٠: ١٣) . وهذا كان ممكناً في
كل مكان يملآن فيه أن تتكرر نفس المشكلة ، لأن إبراهيم وجد تبريراً لذلك (تك
٢٠ : ١٢) ، ولم يقل : هى زوجتى !

يندر أن يقول إنسان « أنا أخطأت » ، مادام أسلوب التبرير ممكناً .

وقد تكون الخطية واضحة جداً ، لا تقبل النقاش ، ومع ذلك لا مانع من
أن تقدم عنها تبريرات وأعداراً... !

مثال ذلك صاحب الوزنة الواحدة الذى أخذها ودفنها فى حفرة فى الأرض ، دون أن يتاجر بها ويربح كزميليه ... هذا أيضاً لما حاسبه سيده لم يخجل من أن يقدم تبريراً وعذراً ، ولكنه حسباً يقول المثل « عذراً أقبح من ذنب » ... فقال « ياسيد ، عرفت أنك إنسان قاسٍ ، تحصد من حيث لم تزرع ، وتجمع من حيث لم تبذر ، فخفضت ومضيت وأخفيت وزنك فى الأرض » (مت ٢٥ : ٢٤ ، ٢٥) . وطبعاً لم يقبل الرب هذا العذر منه ، وأمر بطرحه فى الظلمة الخارجية .

مخالفة يونان النبي للرب ، كانت مخالفة واضحة ، وأيضاً كان لها تبرير !
 هرب يونان من الرب ، ورفض أن يذهب إلى نينوى حسب أمر الرب ، بل ذهب بسفينة إلى ترشيش . ولما أرجعه الرب ، وكرز لأهل نينوى وتابوا « غم ذلك يونان غمماً شديداً فاغتاظ » . ومع ذلك قدم تبريراً لموقفه ، ليثبت أنه على حق ، فقال « آه يارب ، أليس هذا كلامى إذ كنت بعد فى أرضى . لذلك بادرت بالهرب إلى ترشيش ، لأنى علمت أنك إله رؤوف ورحيم بطىء الغضب وكثير الرحمة ونادم على الشر . فالآن يارب خذ نفسى منى ، لأن موقى خير من حياقى » (يون ١ : ٣-٤) .
 هذا هو العذر الذى قدمه النبي ليبرر به مخالفته للرب ، وحزنه على خلاص ١٢٠ ألف نسمة !! من يقبل هذا الكلام !؟

خطية واضحة أخرى ، وهى أن شاوول الملك أصدع محرقة للرب ، وهو ليس كاهناً ... ومع وضوح الخطية قدم لها تبريرات ...
 فلما وبخه صموئيل النبي على ذلك ، لم يقل « أخطأت » ، ولم يقدم ندماً وتوبة ، إنما قدم أعذاراً وتبريرات ... ! فقال للنبي « لأنى قد رأيت أن الشعب قد تفرق عنى ، وأنت لم تأتى ، والفلسطينيون متجمعون فى غمماس ... فتجلدت وأصدعت المحرقة » (١ صم ١٣ : ١١ ، ١٢) .

وطبعاً لم يقبل النبي منه هذه الأعذار . وأسمعه عقوبة الله له ، بأن مملكته لا تقوم ، وأن الرب اختار رئيساً آخر للشعب بدلاً منه ...

ويليا النبي الجبار ، وجد له عذراً ، لما خاف من إيزابل وهرب !
 وصله تهديدها (١ صم ١٩ : ٢) فخاف وهرب ! ولما سأله الله عن هروبه بقوله « مالك ههنا يا إيليا ؟ » ، وجد تبريراً ... فقال مرتين « قتلوا أنبياءك

بالسيف، وبقيت أنا وحدي. وهم يطلبون نفسي ليأخذوها» (١ مل ١٩ : ١٠ .
١٤). وفي هذا التبرير، نسي كل أعمال الله العجيبة معه، وكيف قواه على
مقابلة آخاب الملك وتوبيخه (١ مل ١٨ : ١٨)، كما قواه على قتل ٤٥٠ نبياً من
أنبياء البعل (١ مل ١٨ : ٢٢، ٤٠). فلم يكن هناك داع للخوف والهروب
مادامت يد الله معه ...

ولم يقبل الله طبعاً هذا العذر من إيليا. وأمره بعدة مهام، منها أن يذهب
ويمسح إيليش بن شافاط نبياً عوضاً عنه» (١ مل ١٩ : ١٦). أما عبارة «بقيت أنا
وحدي» فرد الرب عليها بأنه استبقى ٧٠٠٠ ركة لم تجث للبعل (١ مل ١٩ : ١٨).

حقاً، ما أكثر التبريرات، وكلها غير مقبولة. فما الهدف منها؟
يريد الإنسان بهذه التبريرات، أن يكون بلا لوم أمام الناس، وربما أمام
نفسه أيضاً، لكي يريح ضميره إذا احتج عليه ...

ولكن حتى لو قبل الناس هذه الأعذار، وحتى لو استطاع الإنسان أن
يخدع نفسه ويخدر ضميره ليقبل هذه التبريرات، أترى الله يقبلها؟! الله العالم
بكل شيء، والذي رفض كل هذه الأمثلة التي أوردناها، الله الذي أمامه
«يستند كل فم» (رو ٣ : ١٩) ... إن التبريرات لا تصلح مع الله، إنما يصلح
الخنوع والإعتراف بالخطية ...

وهناك تبريرات أخرى تبدو كلون من تدليل النفس ...

مثال ذلك عذراء النشيد التي قرع الرب على بابها ... وظل طول الليل هكذا،
حتى امتلأ رأسه من الطل، وقصصه من ندى الليل، وهو يناديها بأرق الأنفاظ ...
ومع ذلك اعتذرت عن أن تفتح له بقولها «قد خلعت ثوبي فكيف ألبسه؟ قد
غسلت رجلي فكيف أوسخها» (نش ٥ : ٢، ٣).

أترى قبل الرب منها هذا العذر؟! كلا، بل تحول وعبر، وجعلها تقاسى مرارة
التخلي بقولها «طلبته فما وجدته، دعوته فما أجابني» ...

ومن أمثلة التبريرات غير المقبولة، الاعتذارات عن الخدمة ...

موسى، الذي اعتذر عن الخدمة بقوله للرب «لست أنا صاحب كلام، منذ
أمس ولا أول من أمس ... بل أنا ثقيل الفم واللسان» (خر ٤ : ١٠). ولم يقبل
الرب هذا العذر من موسى. وعالج له موضوع ثقل اللسان.

وأرميا أيضاً اعتذر عن الخدمة بقوله « لا أعرف أن أتكلم لأني ولد » (أر ١: ٦). ولم يقبل الرب منه هذا الاعتذار، بل وبخه قائلاً « لا تقل إني ولد، لأني إلى كل من أرسلك إليه تذهب، وتتكلم بكل ما أمرك به. لا تخف... لأني معك، أنقذك » (أر ١: ٧، ٨).

وهكذا لم يقبل الرب أيضاً إعتذار من قال له « إئذن لي أن أمضي أولاً وأدفن أبي » بل قال له « إتبعني ودع الموتى يدفنون موتاهم » (مت ٨: ٢١، ٢٢).

ولكن ما أعجب الراعي الصغير، الذي يهجم الأسد على غنمه... فلا يعتذر عن حمايتها بضعفه أمام عنف الأسد...

يشبه شيئاً من هذا ما فعله داود الصغير (١ صم ١٧).



تبريرات وأعذار واهية، نرد عليها بأسئلة لقيسين رفضوا التبريرات

من يتخلص المخطيء من تبريره لعمله ، كما تخلص داود النبي ، الذي لما عد الشعب ، لم يحاول أن يقدم لذلك تبريراً ، بل ضربه قلبه وقال للرب « لقد أخطأت جداً فيما فعلت . فالآن يارب أزل إثم عبدك ، لأني انعمت جداً » (٢صم ٢٤: ١٠) .

هكذا يتكلم الإنسان المتواضع التائب المعترف بخطيئته أمام الله ...
أما غير المتواضع وغير التائب ، فإنه يحاول أن يجد تبريراً عند ارتكاب الخطية ، وبعد ارتكابها أيضاً ، وفي الحديث عنها بصفة عامة ...

ويؤسفي أن أقول أن توالى الأعذار والتبريرات عند مثل هذا الشخص تجعل المبادئ والقيم عنده تهتز... ومادام كل خطأ له ما يغطيه ، إذن فلا توجد مثل يسير على منهاجها ، أو روحيات يتمسك بها ...

وسنحاول هنا أن نذكر بعض الأعذار العامة التي يعتذر بها البعض ، إذا لم يسلكوا حسناً في حياتهم .

١ - يقولون كل الناس هكذا (الكل كده) . هل نشذ عن المجتمع؟! وكأنهم بهذا يعتبرون أن الخطأ إذا صار عاماً ، لم يعد خطأ يلام عليه الفرد! كأن نقائص المجتمع كله لم تعد نقائص ، أو صار الخطأ العام مبرراً لخطأ الفرد؟! كلا ، فالخطأ هو خطأ ، عاماً كان أو خاصاً . ومن أجل ذلك يقوم المصلحون الإجتماعيون بإصلاح أخطاء المجتمع . وكذلك يهاجمها الرعاة والكهنة والكتاب وأصحاب المبادئ .

ثم لننظر إلى الكتاب المقدس . ونرى مدى الحكيم على هذا العذر...

نوح أبو الآباء ، كان يعيش بيره في عصر كنه فاسد ...
وبلغ من فساد الناس في تلك الأيام ، أن الله أغرق العالم كله بالطوفان ، إذ رأى « أن شر الإنسان قد كثر في الأرض ، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير

كل يوم...» (تك ٦ : ٥) . «فحيا الله كل قائم كان على وجه الأرض...»
(تك ٧ : ٢٣) .

أكان هذا الفساد العام عذراً لنوح أن يسلك مثلهم هو وأسرته، ويقول «كل الناس هكذا، هل نشذ عن المجتمع؟» ... أم هو سلك بكامله أمام الله والناس . وكان لا بد أن يشذ عن هذا المجتمع الفاسد... وإن كانت عبارة «نشذ عن المجتمع» تعبككم، فلنقل بتعبير أفضل «نتميز عن المجتمع» . وهذا التمايز قال عنه الكتاب :
« لا تشاكلوا هذا الدهر » (رو ١٢ : ٢) . أى لا تصيروا شكله ...

ونفس هذا الكلام نقوله أيضاً عن لوط في سدوم ...

كانت المدينة كلها فاسدة ، مما أدى إلى أن يجرعها الرب بالنار (تك ١٩) . ولم يوجد فيها عشرة فقط من الأبرار، حتى لا يهلك الله هذه المدينة من أجل العشرة (تك ١٨ : ٣٢) . فهل كان هذا عذراً يسمح للوط أن يسلك مثلهم ، حتى لا (يشذ) عن المجتمع...! وهل في ذلك يتبع المثل القائل «إن كنت في بلد بعيد فيه العجل، جش وارمى له»...!

كلا ، بل يحتفظ الأبرار بمبادئهم السامية ، مهما كان الخطأ عاماً . وعلى العكس يمكن أن يقال : إن كان الخطأ منتشرأ ، فهذا يحتاج إلى حرص أكثر...
سدوم خلص منها ثلاثة فقط : لوط وابنتاه . وهلك الجميع...

مثال آخر ، هو يوسف الصديق في أرض مصر ...

لعله كان الوحيد في أرض مصر ، الذى يعبد الله ، بينما كان الكل يعبدون الديانات المصرية القديمة : رع وأمون وإيزيس وأوزوريس وبتاح وحتحور... إلخ . ولم يسمح يوسف لنفسه أن يجارى المجتمع .

وهكذا كان دانيال أيضاً والثلاثة فتية في أرض السبي ...

حتى في طعامهم كانوا مميزين ، مع أنهم كانوا أسرى حرب ، مستعبدين وتحت قوانين ملزمة . وما أجمل قول الكتاب في ذلك : «وأما دانيال فجعل في قلبه ألا يتنجس بأطياب الملك ولا بخمر مشروبه» (د ١١ : ٨) .

هكذا أنت ، عش بروحياتك السليمة ، حتى لو عشت بها وحدك .

إن لم تستطع أن تؤثر على المجتمع بروحياتك ، فعلى الأقل لا تندمج فيه وتخضع له . ولا تجعل الأخطاء العامة تؤثر عليك .

المفروض في أولاد الله أنهم يطيعون ضمائرهم ، ولا ينجرفون مع التيار، معتذرين بأن الجو العام هكذا. إن القلب الضعيف هو الذى يسقط ويحتسى وراء الأعدار. وكذلك محبو الخطية ، والذين يعرجون بين الفرقتين (١ مل ١٨ : ٢١). أما القلب الذى يجب الله فهو قوى. مهما وجد من صعوبات في طريق التوبة، يحاول أن ينتصر عليها...

لماذا إذن تأخذ موقفاً ضعيفاً أمام الذين يعبرونك بتدينك؟

أولئك الذين يسخرون بالأسلوب الروحى ، محاولين بسخريتهم أن يضعفوا معنوياتك ، ويجذبوك إلى طرقهم ، ويفقدوك ثمار توبتك!! فإن كنت تائباً حقاً، لا تجعلهم سبب نكسة لك. فإما أن تكون قوياً في إقناعك، وتثبت لهم سمو حياة الروح. وإما أن تصمت وتظل ثابتاً في طريقك الروحى، دون أن ترتد.

هنا وتحدث عن سبب آخر يعتذر به البعض ، وهو العوائق :

٢ - البعض يعتذر بالعوائق . بينما يليق بالأقوياء أن ينتصروا على العوائق .

وسنقدم اللص اليمين كمثال رائع ، رفض العوائق كمبرر ...
 ما أكثر العوائق التى كانت تقف أمام إيمان هذا اللص ... حتى أنه لو كان لم يؤمن - كزميله - لكان له عذره بل أعذاره ...

بمن يؤمن ؟ إنه لم ير المسيح في قوته وتجليه ومعجزاته . والذين رأوا الكثير من معجزات المسيح الباهرة ضعفوا في ذلك الحين ، وواحد من أبرز تلاميذه أنكر ... وفي أذنى اللص كانت تدوى أصوات الجماهير «أصلبه . أصلبه» . فهل يؤمن اللص بشخص يراه مصلوباً أمامه ، في ضعف ، والدم ينزف منه ، وألفاظ الإستهزاء والتعبير والتحدى تحيط به من كل جانب ، وهو صامت ... والكهنة ورؤساء الكهنة ضده ، وشيوخ الشعب ضده ، والقادة ومعلمو الشريعة ضده ، والحكام ضده ، وحتى اللص الآخر المصلوب إلى جواره يسخر به أيضاً ...

الذين حملوا المفلوج هم مثال آخر على نخطى العوائق (مر ٢ : ١ - ١١)

ما كان أسهل على هؤلاء أن يعتذروا للمفلوج بأنهم لا يستطيعون مساعدته وتوصيله إلى المسيح . فالبيت الذى يوجد فيه مملوء بالشعب ، والزحام شديد جداً ،

والطرق كلها مسدودة، ولا يوجد أى منفذ أو أى مدخل، ولا توجد أية طريقة للوصول إلى المسيح.

أما هم، فلم يعترفوا بكل تلك العوائق، لأن محبة الخير التي فيهم كانت أقوى من العوائق. فحملوا المفلوج على محفة، وثقبوا سقف البيت، وأنزلوا مريضهم إلى الرب ليشفيه. ما أعظم هذه النية الخيرة، وهذه الإرادة القوية، وعلى رأى المثل «حيثما توجد إرادة، توجد وسيلة» وأيضاً:

القلب القوى يجد مائة وسيلة للشىء الذى يريد أن يفعله ...

وأيضاً قال الآباء «إن الفضيلة تريدك أن تريدها لا غير» ...
يكفى أن تريد، وحينئذ تجد النعمة تفتح أمامك أبواباً كانت مغلقة، وروح الله القدوس يقويك، وأرواح الملائكة والقدسين تحيط بك.
لا تعتذر إذن بالعوائق، إنما فكر جيداً كيف تنتصر عليها ...

زكا العشار أيضاً، كانت أمامه عوائق في الوصول إلى المسيح ...

بل حتى مجرد رؤية المسيح كانت غير ممكنة بالنسبة إليه: الزحام شديد جداً، وكان هو قصر القامة. وأيضاً كان رئيساً للعشارين أى إنساناً مكروهاً من الكل، بعيداً عن الروحيات، يسخرون به إن طلب اللقاء بالمسيح. ففكر أن يصعد على جيزة ليراه. وكان أمام هذا عائق آخر هو مركزه الكبير. ولكنه انتصر على هذا كله. لذلك استحق أن يكلمه الرب ويقول له: «ينبغي أن أمكث اليوم في بيتك» (لو: ١٩: ٥).

حقاً إنه لو كان الدافع الداخلى ضعيفاً في قلب زكا، لوجد تبريراً من العوائق التي أمامه، وما وصل إلى المسيح.

فهل أنت دوافعك الداخلية ضعيفة لذلك تعتذر بالعوائق!؟

هوذا أمامنا مثل حدث في عصر الإستشهاد: شاب لم تنفع معه كل طرق التعذيب. فأرادوا إسقاطه بإغرائه من جهة عفته، ففشل الإغراء. فربطوه إلى فراش لتأقي امرأة وتخطفىء معه. فلما رأى هذا الشاب أنه لا حيلة للتخلص، جز على لسانه، حتى سال دمه وبصقه في وجهها، فاشمأزت وتركته، وأنقذ الشاب عفته ...
لو كان ضعيفاً من الداخل، لوجد تبريراً للسقوط. ولكن قوته الداخلية جعلته ينتصر، ولا يعترف بالعوائق ولا التبريرات.

وهذا يجعلنا نتنقل إلى الحديث عن عذر آخر يقدمونه :

٣ - يعتذر البعض بشدة الضغوط الخارجية ، أو شدة الإغراء الخارجى ...
إن القلب الثابت فى الداخل ، لا يمكن أن يخضع للضغوط الخارجية ، ولا يسقط بسببها ، ولا يتخذها تبريراً لسقوطه ...
إنما يبرر موقفه بالضغوط الخارجية ، الشخص الذى ليست محبته ثابتة من نحو الله ومن نحو الوصية ، أو فى قلبه خيانة فى الداخل ، وليس هو مخلصاً لله بالحقيقة ، ولا مخلصاً لوصاياه ... !

خذوا يوسف الصديق كمثال رائع فى الإنتصار على الضغوط الخارجية ...
لا شك أن الضغط الخارجى كان شديداً عليه جداً ... كان عبداً مستعبداً لإمرأة . والمرأة هى التى تطلب منه الخطية ، وتلج فى ذلك ، وهو يرفض . وتلج أيضاً . وهو تحت سلطانها ، تستطيع أن تسيء إلى سمعته ، وأن ترميه فى السجن ، كما فعلت أخيراً . ولو كان ضعيفاً من الداخل ، لوجد ما يبرز سقوطه ! ولكنه قال :
كيف أفعل هذا الشر العظيم وأخطيء إلى الله « (تك ٣٩ : ٩) ، واحتمل من أجل بره ...

إن القلب النقى الثابت فى بره ، لا يعترف بالمبررات ، ولا يخضع للإغراء الخارجى . ومثال ذلك قصة داود مع شاول الملك ...
حاول شاول مراراً عديدة أن يقتل داود بلا ذنب ، وطارده من برية إلى أخرى . وأخيراً وقع فى يد داود ... رآه نائماً فى كهف . وقال رجال داود له « هوذا اليوم الذى قال لك عنه الرب هأنذا أدفع عدوك ليذك ، فتفعل به ما يحسن فى عينيك » (١ صم ٢٤ : ٤) .

وكان الإغراء شديداً ، يتخلص به من عدوه ، ومن الموت الذى يتهده ، ويتولى الملك بدلاً منه . ولكن داود رفض هذا الإغراء وقال «حاشا لى من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى مسيح الرب ، فأمد يدي إليه ، لأنه مسيح الرب هو» .
وويخ داود رجاله (١ صم ٢٤ : ٦ ، ٧) .

وكانت هناك تبريرات كثيرة : ... من قال إيه مسيح للرب ؟ لقد أعلن الرب رفضه له (١ صم ١٦ : ١) . كذلك كان روح الرب قد فارق ، وبفته روح ردىء

من قبل الرب» (اصم ١٦ : ١٤) . وكان داود يعرف هذا ، لأنه هو الذى كان يضرب له على العود ، فيرتاح ويذهب عنه الروح الردىء (اصم ١٦ : ٢٣) .

هذا إذن إنسان خاطيء ومرفوض . فإن تخالفت منه تكون قد خلصت الشعب من شره ... كلا ، إنه مسيح الرب هو ...

وأنت ياداود ، أنت هو مسيح الرب الحقيقى . مسح صموئيل النبى ملكاً ، وحل عليك روح الرب (اصم ١٦ : ١٢ ، ١٣) . فأصبحت أنت البديل الرسمى لذلك الشرير . ولو أخذت الملك ، لا تكون قد اغتصبته فهو حقك . والشعب كله سيفرح بك . كما أن الله هو الذى دفعه إلى يدك ... وتذكر أن هناك حرباً بينك وبينه ، وهو يريد قتلك . فإن قتلكه تكون طبيعة الحرب ...

ولكن داود لم يقبل شيئاً من هذه التبريرات جميعها . وقال « كيف أمد يدي إلى مسيح الرب ؟! » . ليكون خاطئاً وشريراً ، وليكن مرفوضاً ، وليكن عدواً لى ، ليكون ما يكون ولكنه مسيح الرب هو ، لا أمد يدي إليه ...

إنها صورة مثالية للقلب النقى الذى يرفض التبريرات ، والإغراءات ...

نتقل إلى نقطة أخرى فى مشكلة الأعذار :

٤ - يعتذر البعض فيقول أنا ضعيف ، والوصية صعبة ...

قد تقول إنك ضعيف ، إن لم تضع معونة الله فى اعتبارك . فأنت لست وحدك . قد تكون ضعيفاً ، ومع ذلك تقول « أستطيع كل شىء فى المسيح الذى يقوينى » (فى ٤ : ٣) . طالما صلاتك موجودة ، فأنت لست ضعيفاً لأن قوة الله ستعمل فيك . تنصرك ضد كل خطية ، وتقيمك من كل سقطة ...

لو كان داود نظر إلى نفسه كضعيف ، ما حارب جليات ...

هذا الشعور بالضعف ، كان مبرراً لكل رجال الجيش أن يقولوا فى أماكنهم ولا يقوموا محاربة جليات . أما داود ، فلم يكن يسمح للمبررات أن تحميه من وصية الله وعمل الروح .

كانت هناك مبررات أمام داود تعفيه من منازلة جليات ، لكنه لم يستخدمها :

أولاً : هو ليس من رجال الجيش ، إنما جاء يحمل طعاماً لأخوته ، وكان يمكن أن يقتصر على هذه المهمة ويمضى ، طالباً لهم صالح الدعوات ...

ثانياً : كان جلييات رجلاً مخيفاً في جسمه المهائل وأسلحته الجبارة . ولا يلوم أحد صيباً صغيراً مثل داود إن امتنع عن محاربتة .

ثالثاً : إن أحداً لم يطلب منه هذا الأمر أو حتى يفكر فيه !

رابعاً : كان كل قادة الجيش خائفين من الرجل ، حتى الملك شاول نفسه لم يتقدم لمحاربتة ...

فما كان أسهل على داود أن يعتمد على هذه المبررات ، ويقول « ما شأني بهذا الأمر . ولماذا أحشر نفسي في مسؤوليات غيري ؟! » وعيسى . ولكن غيرة داود دفعته أن يتقدم لمقاتلة جلييات ويخلص الشعب منه .

الأعذار موجودة ، ولكنه رفض استخدامها والإحتواء بها ...
وصعوبة العمل يشهد بها الكل ، ولكنه انتصر عليها بالإيمان .

لقد عاقب الرب الذين أضعفوا معنويات الشعب بالحديث عن المصاعب .

أولئك الذين رأوا الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً ، ولكنهم قالوا « غير أن الشعب معترز ، والمدن حصينة ... لا نقدر أن نصعد إلى الشعب لأنهم أشد منا ... وقد رأينا هناك الجبابرة بني عناق ... فكنا في أعيننا كالجراد ، وهكذا كنا في أعينهم » (عد ١٣ : ٢٧-٣٣) .

وهذا الحديث الذي يحطم الروح المعنوية « رفعت كل الجماعة صوتها وصرخت . وبكى الشعب تلك الليلة وتذمر » (عد ١٤ : ١) . ورفض الرب أولئك الذين صعبوا الأمر وشرحوا استحالة تنفيذه .

لذلك لا نقبل عن وصية الرب إنها صعبة . لأنها لو كانت صعبة ما أمر الرب بها . كيف يأمر بما لا يمكن تنفيذه ؟!

إن الله لا يمكن أن يأمرنا بالمستحيل . إنه يعطي الوصية - مهما كانت تبدو صعبة - وفي نفس الوقت يعطي القدرة على تنفيذها . يعطي الوصية ، ويعطي معها النعمة . والروح القدس يعمل داخل القلب لكي يؤهله للعمل ، بل ويشترك في العمل معه ... وإلا ما كان أحد يقدر أن ينتصر على إبليس الذي هو مثل أسد يزار يحول ملتصقاً من يبتلعه هو (١ بط ٥ : ٨) .

إن إبراهيم أبا الآباء لم يمتنع عن تنفيذ وصية تبدو صعبة جداً ...
قال له الرب « خذ إبنيك ، وحيدك ، الذي تحبه ، إسحق ... وأصعده
محرقة ... » (تك ٢٢: ٢). ولم يعتذر أبونا إبراهيم بصعوبة الوصية، وبأنها فوق
مستوى الطبيعة، وبأن هذا ابن المواعيد، وابن شيخوخته، وماذا يقول لأمه ... بل
بكر صباحاً، وذهب لينفذ وصية الله ...

الله الذي أعطى إبراهيم القوة على التنفيذ ، هو أيضاً قادر أن يعطيك قوة ...
الذي جعل أرميا الصغير مدينة حصينة وأسوار نحاس على كل الأرض (أر ١ : ٨).
هو قادر أن يقويك مثله ...

في طريق التوبة ، لا تخف من خطية ، ولا من عادة أو طبع ، ولا من
شيطان ، بل قل « أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني » ... ولا تجعل هذا
الخوف مبرراً لك في ترك العمل الروحي ...

أبونا إبراهيم طلب الله منه إنه الوحيد ليذبحه ، فلم يبخل به عليه ، ولم يقل
الوصية صعبة . ولم يحاول أن يوجد مبررات ليمتنع .
وأنت ، ما هو الشيء الصعب الذي يطلبه الرب منك ولا تستطيعه ؟! هل هو
يطلب منك أن تذبح إبنيك الوحيد ، أم المطلوب منك بسيط جداً ؟!

طوباهم أولئك الجبابرة الذين انتصروا على قلوبهم من الداخل ، ولم
يعتذروا بصعوبة الوصية كما نفعل نحن في تبرير أنفسنا ...
حقاً إن ملكوت السموات يحتاج إلى قلوب كالصخر ، لا تلين أمام العوائق ، ولا
تضعف أمام الصعاب . وتنفذ وصية الكتاب في قوله « تشدد ، وكن رجلاً » (١ مل
٢ : ٢). هنا تظهر الرجولة الحقة ، في حياة النقاوة .



الذين لا يريدون يتحولون المبررات

عند البعض ، مادام العذر موجوداً ويمكنهم تقديمه ، حينئذ تصير الخطية سهلة والتقصير سهلاً . دون مراعاة لمشاعر الرب الذى يتحولون عن محبته ، ودون أمانة للوصية أو التزام بها . وأثناء الاعتذار، يخادع الإنسان نفسه ، ويكون ضمير مغلخلاً غير ثابت .

وباب الاعتذار واسع ، قد يدخل فيه الصدق والكذب ...

أى قد تكون الأعذار غير حقيقية ، أو من السهل الانتصار عليها ، وليست عائقاً حقيقياً له قوة المنع التى تغلب الإرادة . وقد تكون الأعذار فرصة للتهاون أو لمحبة الخطية . أو قد تكون ستاراً للكبرياء التى ترفض الاعتراف بالخطأ . وقد تكون سبباً ثانوياً وليست هى السبب الحقيقى .

وعلى العموم فالتبريرات والأعذار دليل على عدم التوبة ...

العجيب أن الإنسان غير الثابت ، على الرغم من أخطائه ، نفسه جميلة فى

عينيه ، يناقش من أجلها ويجادل ... !

كل شىء يعمل ، له فى نظره أسبابه وحكمته . وكل خطية لها تبريرها . وكل تقصير فى أعمال الفضيلة ، له أيضاً تبرير . ولا يوجد خطأ فى أى تصرف يتصرفه ! ... يتكلم كما لو كان معصوماً لا يخطئ ... يدافع ويبرر . من الصعب أن تخرج من فه كلمة «أخطأت» ... ! وإن شددت عليه الخناق ، فأقصى ما يقوله هو «آه ... هذا العمل ، من الجائز أن البعض يفهمونه على غير المقصود منه ... ! ولكنى أقصد ...» وتتوالى سلسلة أخرى من التبريرات ...

كأنه إله ... لا يخطئ !! « ألم أقل إنك آلهة » (مز ٨٢ : ٧) .

هؤلاء (الآلهة) الذين لا يخطئون ، لا يمكن أن يتوبوا ! عن أى شىء يتوبون ؟ حقاً لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب ... هؤلاء لا يحتاجون إلى المسيح الغافر والمخلص ! فأى شىء تراه سيفغر لهم أو يخلصهم منه ؟! ...

حتى الذين يقصرون فى كل الواجبات الروحية من صلاة وصوم وحضور الكنيسة

والتناول ... يجدون أيضاً مبررات لتقصيرهم ، وكأنهم لم يخطئوا .

تسأل أحدهم لماذا لا تصلى ؟ ولماذا لا تذهب إلى الكنيسة ؟

فلا يقول لك مطلقاً « أنا مقصر » أو « أنا مخطيء » . إنما يبرر تقصيره بأنه ليس لديه وقت . وإن ناقشته في ذلك يضع أمامك قائمة طويلة من المشغوليات ... فإن سألته « ولماذا لا يكون الرب ضمن مشغولياتك ؟ ولماذا لا تحسب الصلاة أمراً هاماً تحجز له مكاناً في تنظيمك لوقتك ؟ ... حينئذ يدخلك في تبرير آخر ، في محاولة لفلسفة الخطأ ، فيقول :

المهم في القلب . وما دام قلبي نقياً ، لا حاجة إذن إلى الصلاة ! فإن الله هو إله القلوب ...

وطبعاً الرد واضح . فالقلب النقي لا يغني عن الصلاة ، بل يساعد عليها . القلب النقي فيه محبة الله . والذي يحب الله يتكلم معه ، ويصلى ... والإنسان الروحي يجمع بين الأمرين : نقاوة القلب ، والصلاة . وكما قال الكتاب « إفعلوا هذه ، ولا تتركوا تلك » . نقاوة القلب لازمة للصلاة ، فالصلاة التي تخرج من قلب نقي هي المقبولة أمام الله ...

كذلك يبدو أن الذي يرد بهذه العبارة لا يفهم معنى عبارة (نقاوة القلب) . فإن كان القلب نقياً ، لا يمكن أن يقول إنه لا حاجة به إلى الصلاة . فالذي لا يحتاج إلى صلاة ، ليست له نقاوة القلب .

وقد تسأل إنساناً آخر: لماذا لا تصوم ؟

فيقول لك : وهل الذين يصومون كلهم قديسون : فلان يصوم ويفعل كذا... وفلان يصوم ويفعل كذا... ! فإن قلت له : وما شأنك بهؤلاء ؟ إن الله سوف لا يسألك عنهم ، وإنما سيسألك عن نفسك ... حينئذ يرجع إلى نفس التبرير ، بفلسفة الموضوع ويقول : الحياة مع الله ليست بالأكل والشرب . المهم في نقاوة القلب !! كما لو كان الصوم لا يساعد على نقاوة القلب !!

وعبثاً تحدث مثل هذا عن روحانية الصوم وفائدته ، وأن من يسلك فيه بطريقة روحية ينمو في حياة الروح ، وأن الله أمر بالصوم لفائدته ، والأنبياء كانوا يصومون مع نقاوة قلوبهم . والسيد المسيح نفسه صام ...

وهنا لا نجد منطقاً ، إنما هي تبريرات مجرد التخلص من المسؤولية .

وقد يعتذر آخر بعدم وجود مرشدين روحيين ولا قدوات صالحة ...

ويبدو أن هذا الاعتذار أيضاً مبالغ فيه . فالذي يحتاج إلى إرشاد لا بد سيجده . وإن لم يجد مرشدين ، أمامه الكتب تملأ الدنيا وفيها كل شيء ... وأمامه الصلاة ، يطلب من الرب فيرشده . ومعه الضمير ، ومعه الكتاب المقدس ...

إن القديس الأنبا أنطونيوس ، الذى عاش وحده فى البرية ، ولم يكن هناك راهب قبله ليرشده ، لم يعتذر بعدم وجود مرشدين ، بل شق الطريق وحده ، وبنعمة الله وصل ، وأرشد غيره ...

أما القدوات الصالحة فهى كثيرة . على الأقل لا تطلب كل الصفات المثالية من شخص واحد ، إنما خذ من كل إنسان فاضل قدوة فى نقطة معينة . وهناك أيضاً سير القديسين والأبرار الذين انتقلوا .

وخلاصة القول إن الذى يريد أن يصل إلى الله ، لن يعدم الوسيلة . ويبقى السؤال الوحيد هو : هل تريد ... ؟

جميل من السيد المسيح أنه كان يسأل بعض المرضى الذين يأتون إليه طالبين الشفاء ، بعبارة الخالدة العميقة :

« أتريد أن تبرأ ؟ » (يوحنا ٥ : ٢٦) (٥) .

نعم ، إن كنت تريد ، فإن الله مستعد أن يعمل معك ويقويك ، وهو الذى يفلسك فتبيض أكثر من الثلج ، وهو الذى يطهرك من كل خطية ، ويطهرك من كل دنس الجسد والروح . ولكن المهم أن تريد .

أما إن كنت لا تريد ، فلا داعى للتبريرات . كن صريحاً مع نفسك .

(٥) اقرأ كتاب (الرجوع إلى الله) ، فهو من «سلسلة حياة التوبة والتقاوة» . يكمل لك مفهوم التوبة ، والوسيلة إليها ...

لا تَوَجَلْ التَّوْبَةَ وَلَا تَضِيعِ الْفُرْصَةَ

فرص للتوبة ضيَعها البعض :

من مراحم الله على الخطاة ، أنه يقدم لكل خاطيء فرصاً كثيرة لكي يتوب ، تزوره فيها النعمة وتعمل في قلبه ...

ونتيجة لعمل الله داخله ، يجد قلبه قد التهب برغبة مقدسة في التوبة والرجوع إلى الله ... ربما يكون قد تأثر بعظة ، أو بكتاب أو باجتماع روحي ، أو بقدوة صالحة ... أو أن حادثة موت أو مرض هزته من الداخل ، أو مناسبة معينة رأى أنه يجب عليه استغلالها .

والحكيم هو الذي يستغل تلك التأثيرات ، ولا يدع الفرصة تفلت منه ... مثلما حدث مع الإبن الضال ، الذي حينما زارته النعمة ، وأثرت في قلبه وفكره ، قال « أقوم الآن ... » وقام وذهب إلى أبيه ، وقدم توبة .
أما الجاهل فيجعل الفرصة تعبر دون أن يستفيد منها ... ثم يبحث عنها فلا يجدها ... وفي ذلك ، ما أخطر العبارة التي قيلت عن عيسو إنه :

« لم يجد للتوبة مكاناً ، مع أنه طلبها بدموع » (عب ١٢ : ١٧)

كان قد جاء إلى أبيه متأخراً ، بعد أن تحولت البركة إلى يعقوب ، وأصبح هو المختار الذي ينسله تتبارك جميع قبائل الأرض ...
وبكى عيسو ، « وصرخ صرخة عظيمة ومرة » (تك ٢٧ : ٣٤ ، ٣٨) .
ولكن بعد فوات الوقت ، بعد أن صار البكاء لا يفيد شيئاً ...

أنظر إلى عذراء النشيد ، ماذا حدث لها . وخذ درساً ...
كانت نائمة ، كأى خاطيء ... ولكن قلبها كان مستيقظاً لنداء الرب . وسمعت صوته يناديا « إفتحى لى ... » ولكنها تباطأت ، والتست الأعذار . ثم قامت أخيراً

لتفتح ، ولكن بعد فوات الفرصة ، بعد أن كان حبيبها قد تحول وعبر... وإذا بها تصرخ وتقول « خرجت نفسى عندما أدبر . طلبته فما وجدته ، دعوته فما أجابني » (نش : ٥ : ٦) . وتعرضت المسكينة لآلام كثيرة... غير أن الرب من أجل محبتها منحها فرصة أخرى . أما بالنسبة إليك :

ربما نضيع منك هذه الفرصة ، ولا نجد فرصة أخرى ...

فهكذا حدث لفيلكس الوالى ، وللملك أغريباس ...

كل منها جاءته الفرصة ، حينما وقف بولس الرسول يترافع أمامه .

ومن جهة فيلكس ، يقول الكتاب إنه « بينما كان (بولس) يتكلم عن البر والتعفف والدينونة العتيدة أن تكون ، إرتعب فيلكس » (أع ٢٤ : ٢٥) . عملت النعمة في قلبه ، وحركته إلى الإيمان والتوبة . ولكنه لم يستغل الفرصة ، ورأى أن يؤجلها إلى مناسبة أخرى ، فقال للقديس بولس « إذهب الآن ، ومتى حصل لى وقت أستدعيك » (أع ٢٤ : ٢٦) .

وللأسف الشديد ، لم يقلل سفر أعمال الرسل أن فيلكس حصل على وقت واستدعى بولس ... وهكذا ضاعت منه فرصة العمر كله ...

وهكذا أغريباس الملك أيضاً ، تحدث أمامه القديس بولس العظيم ، بكل ما فيه من عمق وإقناع ، وبكل ما فيه من عمل الروح . فتأثر أغريباس جداً ، وعملت النعمة في قلبه ، وقال لبولس « بقليل تقنعنى أن أصير مسيحياً » (أع ٢٦ : ٢٨) .

ولكن المسكين لم ينتهز الفرصة ، وقام من منصة القضاء ومضى . ومضت معه التوبة والإيمان ، وضاعت الفرصة . ولم يقل الكتاب شيئاً بعد ذلك عن أغريباس ... وبينما كان بينه وبين الله هذا القليل ...

ليته فعل ، مثل الخصى الحبشى ، الذى انتهز الفرصة ونال الخلاص ...

هذا الخصى دبرت نعمة الله أن يقابله فيلبس فى الطريق ، ويشرح له ما كان يقرأه من سفر أشعياء . وتأثر الرجل ، وعمل الله فى قلبه ، فأمن ، ولم يترك الفرصة تفلت فقال لفيلبس « هوذا ماء . ماذا يمنع أن أعتمد » (أع ٨ : ٣٦) . وفى الحال نزلا إلى الماء ، وتعمد ... « وذهب فى طريقه فرحاً » ... إنه من الأمثلة الرائعة لانتهاز الفرصة ..:

وأنت يا أخى كم فيلبس أرسله الله فى طريقك ، وتأثرت به ، ولكنك جعلت الفرصة تفلت من يدك ، ولم تستفد منها ...

لذلك لا تؤجل التوبة . فكثيرون من الذين أجلوا التوبة ، لم يتوبوا على الإطلاق ، وضاعت حياتهم ...

أنظر إلى اليهود ، كم من مرة رفضوا الرب ، وساروا وراء آلهة أخرى . وكم كان الرب يرسل إليهم الأنبياء والرسل لكي يجذبهم إليهم وكانوا يضيعون هذه الفرصة كلها ، حتى ألقاهم الرب إلى أيدي أعدائهم ، ورفض صلواتهم وذبائحهم . وقال لهم « حين تبسطون أيديكم ، أستر وجهى عنكم . وإن أكثرتم الصلاة لا أسمع » (أش ١ : ١٥) . وأيضاً قال لأرميا النبي « وأنت فلا تصل لأجل هذا الشعب ، ولا ترفع لأجلهم دعاء ولا صلاة ، ولا تلح على ، لأنى لا أسمعك » (أر ١٦ : ٧) .

فهل تريد بتوالى التأجيل أن تصل إلى هذا الوضع !؟ ...

إن توالى تأجيل التوبة ، قد يعنى رفض التوبة ...

وهذا هو الذى حدث لفرعون ... حتى هلك ...

كم مرة قال فرعون لموسى وهرون « أخطأت . صلوا لأجلى » ... ومع ذلك لم يتب ... أنظروا إلى قوله بعد ضربة البرد والرعود « أخطأت هذه المرة . الرب هو البار ، وأنا وشعبى الأشرار . صلوا وكفى حدوث رعود الله والبرد فأطلقكم » (خر ٩ : ٢٧ ، ٢٨) ... ومع ذلك لم يتب فرعون ، ولم يف بوعوده ، وبلأ إلى التأجيل . وها هو بعد ضربة الجراد يقول لموسى وهرون « أخطأت إلى الرب إلهكما وإليكما . والآن إصفح عن خطيى هذه المرة فقط . وصلوا إلى الرب إلهكما ، ليرفع عنى هذا الموت » (خر ١٠ : ١٦ ، ١٧) . ورفع الرب عنه هذه الضربة ، كما رفع غيرها ، ولم يتب ...

كانت ألفاظ التوبة على فم . ولم تكن التوبة فى قلبه ...

كان يصرخ خوفاً ، وليس إقتناعاً . وكان يعد بالتوبة ولا يوفى . وظل يؤجل وعوده للرب يوماً بعد يوم ، وضربة بعد ضربة ، إلى أن أدركه الغضب الإلهى ، وغرق فى البحر الأحمر وهلك .

وكان تأجيل التوبة بالنسبة إليه ، هو رفض عمل للتوبة ...

إنها فرص عرضها الرب عليه ، بالضربات العشر . وكان يتأثر بها ، ويوقن أنه لا بد أن يتوب . ولكنه لم يستغل هذه الفرص لخلاص نفسه . وكانت محبة العالم في قلبه ، أكثر من محبة التوبة ، فهلك ...

ومن أمثلة الذين ضيعوا فرص التوبة ، الكرامون الأردباء (مت ٢١) ... أولئك الذين كم من مرة يرسل لهم صاحب الكرم عبده ، فلا يستجيبون ، ولا يرجعون عن شرهم . وأخيراً أرسل إليهم ابنه ، وكانت فرصة للتوبة ، فلم يتوبوا... فإذا حدث ؟ لقد قال لهم أخيراً « ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل أثماره » (مت ٢١ : ٤٣) .

لنأخذ شمشون الجبار مثلاً لتأجيل التوبة ...

كان قد بدأ بداية طيبة ، إذ حلّ عليه روح الرب . ثم بدأت خطيئته حينما تعرف بدليلة وأسلمها قياده وخضع لمشورتها . وقد خدعته هذه المرأة أكثر من مرة ، وسلمته لأعدائه ، وكان يعرف هذا ، ومع ذلك لم يتب (قض ١٦) ، واستمر فيما هو فيه .

وأخيراً كسر نذره ، وأخذته أعداؤه وقلعوا عينيه ، وأوثقوه بسلاسل ، وكان يطحن في بيت السجن (قض ١٦ : ٢١) .

هكذا فعلت به الخطية وتأجيل التوبة . وإن كان الله قد أعطاه فرصة أخرى يوم وفاته ، كرجل من رجال الإيمان (عب ١١ : ٢٢ ، ٢٣) .

إن التباطؤ في التوبة قد يهلك الإنسان ، كما حدث لعاخان بن كرمي ... هذاأخذ من المال الحرام وخبأه . وانهزم الشعب بسبب خطيئته أمام قرية صغيرة هي عاي ، فلم يتحرك ضميره ويعترف بالخطأ . وقال الرب « في وسطك حرام يا إسرائيل » . وأعلن يشوع هذه الحقيقة ، ولم يتحرك عاخان . ثم بدأ يشوع يلقي القرعة ليعرف من هو المتسبب في غضب الله . ولم يتقدم عاخان ليعترف . ووقعت القرعة على سبطه يهوذا ، وعلى عشيرته (الزارحين) . وكل ذلك وعاخان لا يتقدم ليعترف ... إلى أن أشار الله إليه بالإسم ...

فاعترف بما فعله ، بعد فوات فرصة التوبة . إعترف كمن كشفه الرب ، وليس كمن يكشف نفسه . وأخذوه فرجوه (يش ٧ : ٢٥) .

لذلك حسناً أن الملاكين لم يسمحا للوط بأن يتباطأ ...

حدث ذلك حينما أراد الله أن يحرق سدوم ... يقول الكتاب « وكان الملاكان يعجلان لوطاً... » ولما توانى ، أمسكا بيده وبيد امرأته وبيد إبنتيه ، وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة . وقالوا له «إهرب لحياتك» (تك ١٩ : ١٥ - ١٧) ... كان لابد أن يتعد لوط بسرعة عن مكان الشر ، حتى لا يهلك .

هناك أمور خطيرة تلزم معها السرعة ، ومنها التوبة ... لا يصلح لها التباطؤ ، ولا يصلح التأجيل ...

إن العذارى الجاهلات ، جئن متأخرات ، بعد أن أغلق الباب ...

لذلك خسرن الملكوت . ووقفن أمام الباب المغلق يقلن في أسى أو فى يأس « ياسيد افتح لنا » . فلم يسمعن سوى تلك العبارة المخيفة «الحق أقول لكن إني لا أعرفكن» (مت ٢٥ : ١٢) . لقد جئن ، ولكن بعد فوات الفرصة ، بعد أن أغلق الباب ...

حقاً ما أخطر وما أعمق تلك العبارة التى قالها الرب فى سفر الرؤيا عن الخاطئة إيزابيل :

« وأعطيتها زماناً لكي تتوب عن زناها ، ولم تتب » (رؤ ٢ : ٢١) .

وعبارة « أعطيتها زماناً » هذه ، يقف القلب أمامها بخشوع ... ويصمت . وإذا لم تتب هذه الخاطئة فى الزمان الذى أعطاها الرب إياه ، فإن الرب شرح ما سوف يوقعه بها من ضربات ... وقال فى ذلك أيضاً ، إنه «سيعطى كل واحد بحسب أعماله» (رؤ ٢: ٢٣) .

إن الله بطول أناته ، أعطى زماناً لهذه الخاطئة لكي تتوب فيه .

فلا يجوز أن يؤجل الإنسان توبته ، مستهيناً بطول أناة الله .

هوذا الرسول يوبخ على ذلك قائلاً « أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته ، غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة » (رو ٢ : ٤) . ويرى الرسول أن مثل هذا الإنسان يدل على أن فى قلبه قسوة ، وعلى أنه غير تائب ، ويدخر لنفسه غضباً فى يوم الغضب (رو ٢: ٥) .

يعجبني في داود النبي ، أنه كان سريع التوبة ...

كان إنساناً مثلنا ، يمكن أن يخطيء . ولكن قلبه كان رقيقاً حساساً ، يستجيب لصوت الله بسرعة ، ويتوب توبة صادقة دون تأجيل أو إبطاء . ظهر هذا لما وبخته أيبجايل في لطف ، حينما أراد الانتقام لنفسه من نابال الكرمل ، فلم يجادلها ولم يبرر موقفه ، وإنما قال لها « مبارك عقلك . ومباركة أنت ، لأنك منعتني اليوم عن إتيان الدماء وانتقام يدي لنفسى » (١ صم ٢٥ : ٣٣) .

وكانت توبته سريعة جداً ، لما عذ الشعب . إذ ضربه قلبه ، وقال « أخطأت جداً فيما فعلت ... إنحمت جداً ... » (٢ صم ٢٤ : ٢١ ، ١٧) .

ولما نبه ناثان إلى خطيئته نحو امرأة أوريا الحثي ، لم يجادل ، وإنما قال « أخطأت إلى الرب » (٢ صم ١٢ : ٧ ، ١٣) . وامتثلت مزاميره بعبارات التوبة الصادقة والإنسحاق ، وبلل فراشه بدموعه (مز ٥٠ ، ٦) .

كذلك كانت توبة أهل نينوى ، وتوبة القديسة باثيسة ...

فع أن يونان النبي أعطى نينوى فرصة طويلة للتوب ، ونادى قائلاً « بعد أربعين يوماً تنقلب نينوى » (يون ٣ : ٤) ... إلا أن هذه المدينة العظيمة لم تؤجل توبتها إلى قرب نهاية هذه المدة ، وإنما تابت مباشرة في المسوح والرماد ، توبة عميقة ، شملت الكل . فرفع الله غضبه عنها ...

والقديسة باثيسة ، التي أخذ الرب روحها في نفس يوم توبتها ، في نفس الأُمسية التي افتقدها فيها القديس يوحنا القصير ، لو أنها أجلت توبتها ، وموعد صعود روحها تلك الليلة ، ترى ماذا كان سيصبح مصيرها ؟

سعيد إذن من يستغل الفرصة التي يرسلها الله لتوبته ، ولا يقسى قلبه . من يدري ، ربما هذه الفرصة لا تعود ...

حدث هذا مع سجان فيلبي ، الذي كان حافظاً للسجن ، حينما أحدث الرب زلزلة في نصف الليل ، فانفتحت أبواب السجن ، وانفكت القيود ، لإنقاذ بولس وسيلا . هذا لم يتأخر ، وإنما قال لبولس وسيلا « ياسيدي ، ماذا ينبغي أن أفعل

لكى أخلص؟» (أع ١٦ : ٣٠) . وآمن . وأخذ بولس وسيلا إلى بيته . « في تلك الساعة من الليل » - أى بدون أى إبطاء - « واعتمد في الحال هو والذين له أجمعون » (أع ١٦ : ٣٣) .

أليس درساً لنا في قصة سجان فيلبي ، أن نقرأ عبارة « في الحال » ... وأيضاً عبارة « في تلك الساعة من الليل » . وكان ذلك « نحو نصف الليل » (أع ١٦ : ٢٥) . لماذا إذن نؤجل توبتنا .

نفس الأسلوب نقرأه تقريباً في توبة زكا ...

قول الرب له « إسرع وانزل » . وقد نفذ زكا في الحال ، وأخذ المسيح إلى بيته . وفي ذلك يقول الإنجيلي « فأسرع ونزل وقبله فرحاً » (لو ١٩ : ٦) . وهكذا قال الرب : (اليوم) حدث خلاص لهذا البيت .

إن أمور التوبة ، لا يجوز فيها التأجيل مطلقاً ، إنما يناسبها عبارات :

الآن ، كما في قصة الإبن الضال (لو ١٥) .

(في الحال) ، (في تلك الساعة) كما في قصة سجان فيلبي (أع ١٦) .

(أسرع) ، (اليوم) كما في قصة زكا (لو ١٩) .

كل قصص التوبة في سير القديسين ، تتميز أيضاً بعدم التأجيل :

مرم القبطية ، حالما أمكنها أن تدخل كنيسة القيامة وتتبارك من الأيقونة ، للحال نفذت ما عزمته عليه في توبتها . وهكذا صارت سائحة قديسة ...

وبيلاجية ، لما تأثرت بعظة القديس نونيوس ، لم تتركه حتى منحها نعمة

العماد ، وترك لكم باقي التفاصيل في أمثلة التاريخ ...

الرب ولم يستبدل

ونقول إن أول إنسان في العالم أضاع فرصة التوبة ، هلك ...

إنه قايين : كلمه الرب بنفسه ، وأذره من جهة خطيته ، ولم يكن قد تورط فيها بعد . وقال له « عند الباب خطية رابضة ... وأنت تسود عليها » (تك ٤ : ٧) . ونصحته بالتوبة « إن أحسنت ، أفلا رفع » ... ولكن قايين أضاع الفرصة ، ولم يسمع

للنصيحة ، وترك الأفكار والمشاعر تسيطر عليه ... فسقط ، وكان سقوطه عظيماً ...

والعجيب أن هناك كثيرين تقابلوا مع الرب ، وأضاعوا هذه الفرصة !

الشاب الغنى ، كانت له فرصة لقاء مع الرب ، وسمع منه نصيحة لخلاصه .
ولكنه للأسف سمعها ، ومضى حزيناً (مت ١٩ : ٢٢) . وعبارة « وتعال إتبعني »
التي قالها له الرب ، لم يعمل بها ... وهكذا أضاع الفرصة .

والفريسي الذي دعا المسيح إلى بيته (لو ٧ : ٣٦) لم يستفد أيضاً من هذه
الفرصة . وكذلك كثيرون من الذين عاشوا في جيل المسيح والتقوا به ...
أما أنت فإن تكلم روح الله في قلبك ، فلا تضيع الفرصة .

إن ملايين من الذين في الجحيم ، يتمنون دقائق حياة كالتى لك ...

بمجرد دقائق ، أو حتى لحظات ، يقدمون فيها توبة ... ولكنهم لا يجدون . لقد
ضاعت الفرصة وأغلق الباب ... وأنت يا أخى ، لك هذه الحياة كلها ، ألا تفكر في
التوبة ، وتنتهز الفرصة . وكما قال الرسول « مفتدين الوقت ، لأن الأيام شريرة »
(أف : ٥ : ١٦) .

واعلم أن تأجيل التوبة عمل من أعمال الشيطان الذى لا يريد التوبة .

هو يعلم أن منعك عن التوبة منعاً صريحاً ، أمر لا يقبله ضميرك . لذلك لا
يقول لك مطلقاً « لا تتب » إنما كلما تحرك قلبك نحو الله . يقول لك لا مانع ، ولكن
ليس الآن . الفرصة أمامنا طويلة ... !

ويظل يقودك في سلسلة لا تنتهى من التأجيلات ، حتى تنتهى الحياة !

أنت تأجيل التوبة

إن تأثرت تأثراً روحياً ، وعزمت على التوبة فلا تؤجل :

١ - أنت لا تضمن نفسك . لا تضمن أن تستمر فيك هذه المشاعر الروحية .

بل ربما تبحث عن هذه الرغبة في التوبة ، فلا تجدها ... !

٢ - ولا تضمن الظروف المحيطة بك .

٣ - ولا تضمن الغد وما يأتي به . فاستغل حالتك الآن .

٤ - ولا تضمن أية عراقيل يضمنها العدو في طريقك ، وقد عرف بعزمك على التوبة ، وبزيارة النعمة لك .

٥ - وإذا بسقيت في الخطيئة ، منتهزاً فرصة أخرى ، ربما تتحول حاللتك إلى أسوأ ، وتشتد الخطيئة عليك ، وتتحول من مجرد سقطنة أو ممارسة ، إلى عادة أو إلى طبع ، وتسيطر عليك تماماً ، وتربطك بسلاسل لا يكون من السهل الفكك منها . وتدخل في سقطات متتابة لا تعرف لها نهاية ... !

إن الشيطان يوحل لك التوبة ، ريثما يسيطر عليك تماماً ... !

وتصبح في حنالة لا تعرف فيها كيف تتوب ، أو لا تريد فيها أن تتوب ، إذ يكون قد أدخل الخطيئة إلى عمق أعماق قلبك ، وفي نفس الوقت عمل على شل إرادتك . وحينئذ يوفقك في اليأس ...
وهنا وناقش نقطة أخرى وهي :



إنه يدل على عدم محبتك لله ، بقائك في مخالفتك وكسر وصاياه ، ورفض الحياة معه ، والتصالح معه ...

ويدل أيضاً على أن محبة الخطيئة مازالت في القلب .

ويدل على عدم جدية الرغبة في التوبة . فالرغبة الجادة تنفذ .

ويدل أيضاً على أن إهتمامك الخاطيء بذاتك أعمق عندك من إهتمامك بالله ومشاعره وعلاقته بك . وأقول إهتمامك الخاطيء بذاتك ، لأن الذى يهتم بذاته إهتماماً سليماً ، إنما يهتم بأبديتها وخلصها ، وبالتالي بتوبتها ...

لذلك لا تؤجل توبتك أبداً ، إنما كما يقول الرسول :

« إن سمعت صوتك ، فلا تقسوا قلوبكم » (عب ٣ : ٧ ، ١٥) .



لا تقسّ قلبك

رسالة الاستجابة لصوت الله

إن الله يدعو الجميع إلى التوبة ...

ولكن القلوب تختلف في مدى إستجابتها .

الله من فرط محبته للبشر « يريد أن الجميع يخلصون » (١ تي ٢ : ٤) . وهو بنفسه يسعى إلى خلاصهم . ومن أجل خلاصهم أرسل الأنبياء والرسل ، وأرسل وحيه الإلهي ينادينا في كتابه المقدس أن نرجع إليه ونتوب « متغاضياً عن أزمته الجهل » (أع ١٧ : ٣٠) . ووضع فينا الضمير لكي يبيكتنا ، وأرسل إلينا روحه القدس يعمل فينا . وأقام لنا الرعاة والكهنة والوعاظ والمعلمين ، لكي نسمع صوت الله إلينا من أفواههم ... ولكن المهم هو: من يسمع ؟ ومن يقبل ؟ وما مدى إستجابتنا لصوت الله ؟ وهنا تختلف نوعية القلوب :

مثال ذلك : الغصن اللين ، والغصن اليابس :

الغصن اللين يتجاوب معك : تعدله ينعدل ، تقيمه يستقيم تغير وضعه يتغير . إنه طييع في يديك . أما الغصن اليابس فلا يلين لك . وإن أردت أن تعدله يقاوم ... وعلى رأى الشاعر الذى قال :

إن الفصون إذا قومتها اعتدلت ولا يلين إذا قومته الخشب
هناك قلوب قاسية من هذا النوع ، يعمل الرب معها فلا تستجيب .

تماماً مثل مريض لا يستجيب للعلاج .

يقدم له الطبيب الأدوية المألوفة لمرضه ، والتي يستجيب لها أمثاله من المرضى . أما جسده هو ، فلا يستجيب لها . لا تأتي هذه العلاجات بنتيجة معه . وقد يستمر المرض كما هو ، على الرغم من العلاج ، أو تتأخر الحالة عن ذى قبل ...

أخذنا هذا الفصل عن ثلاث محاضرات عن (قساوة القلب) . أقدمها بتاريخ

١٩٦٩/١١/٢٨ . ثم محاضرتين متتابعتين بتاريخ ١٩٧٧/٧/٢٩ ، ١٩٧٧/٨/٥ .

هكذا القلب القاسى الذى لا تأتى وسائله النعمة بأية نتيجة معه . وتستمر طباعه كما هى ، وأخطاؤه كما هى .

يقيناً إن هذا القلب القاسى لا يريد أن يبرأ .

أو هو - لقساوة قلبه - لا يريد أن يعترف بأنه مريض يحتاج إلى شفاء . فيبقى فى مرضه كما هو . كالفرسيسين القساة الذين عاصروا وعاشروا المسيح سنوات . ورأوا معجزاته ولم يستفيدوا ، بل قالوا بعدها إنه خاطىء ! وسمعوا تعليمه ولم يستفيدوا ، بل قالوا إنه مضل وناقض للشريعة . وينطبق على هؤلاء القساة القلوب ، قول سليمان الحكيم :

إن دقت الأحمق فى هاون ... لا تفارقه حماقته (أم ٢٧ : ٢٢) .

ذلك لأن قساوة القلب ، لا تسمح للخاطيء المتمسك بمسلكه ، أن يغير سلوكه أو يترك خطيئته . إنه رافض لله مهما سعى الله إليه ليخلصه ...

عجيب أن الله الحنون يسعى وراء الإنسان . والإنسان يرفض الله !

الله العظيم يسعى إلى التراب والرماد . والتراب الرماد يعلق قلبه أمام الله . الله يتكلم وينادى . وهذا المخلوق المسكين يسد أذنيه ، ويسد قلبه ، ويرفض أن يفتح للرب . الله يقرع على الباب ، حتى يمتلئ رأسه من الطل ، وقصصه من ندى الليل (نش ٥ : ٢) . والإنسان يعلق بابه ، ولا يأبه بهذا القلب الكبير الذى أتاه «طافراً على الجبال ، وقافزاً على التلال» (نش ٢ : ٨) ... إنها قساوة قلب . وقد نرى أحياناً إنساناً يقسو على أخيه الإنسان ، فلا نستريح لقساوته ...

أما أن يقسو الإنسان على الله نفسه ، فهذا كثير ...

ما أعجب أن يكون الإنسان قاسياً فى معاملته مع الله ، الله الحنون الطيب الذى روح هذا الإنسان فى يده ، والذى يعامل الكل برقة متناهية . ولكن ليست كل القلوب هكذا ، فهناك قلوب طيبة ، لا تحمل طرقة الله على بابها ، فتقوم لتفتح له بلا إبطاء ، حالما تسمع صوته الإلهى .

أوغسطينوس - صاحب القلب الرقيق الطيب - قضى فترة طويلة بعيداً عن الله ، لأن الصوت الإلهي لم يكن قد وصل إليه واضحاً . فلما وصله صوت الرب ، استجاب للتو ، بكل القلب وبكل العاطفة ... وصار قديساً ...

ومريم القبطية ظلت بعيدة عن الله زمناً ، وبعيدة عن صوته . ولكن لما شعرت بصوت الله وهو يناديها عند الأيقونة المقدسة ، تغيرت تغيراً كاملاً ، واستجابت للرب ، وعاشت بقية عمرها في محبته .

وهكذا بيلاجية ، مجرد منظر القديسين أثر فيها ، مجرد عظة سمعتها ، كان لها قلب رقيق سهل التأثر . وعلى الرغم من زناها وغناها ، تابت بسرعة . وكانت إستجابتها عجيبة .

عجيب في قصص التوبة ، أن الزواني يستجيبون للرب بسرعة .

وفي الواقع ليس هذا بعجيب ، لأن غالبية هؤلاء الزواني لم تكن لهم قلوب قاسية . وإنما كانت لهم قلوب عاطفية ، تستجيب للحب بسرعة . ولكنها انحرفت في حبها ، فاتجهت به نحو الجسد ، وغلبها الجسد . ولكنها حالما تجد حباً حقيقياً من الله أو من قديسيه ، ترجع بسرعة . فالعاطفة موجودة ، والحب موجود ، ولم يكن ينقصهما سوى التوجيه السليم ... بعكس أصحاب القلوب القاسية الذين لا يستجيبون بسرعة ، وربما لا يستجيبون على الإطلاق . ولذلك حسناً قال الرب لبعض هؤلاء القساة من رؤساء اليهود « الحق أقول لكم إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله » (متى ٢١ : ٣١) .

وعجيب أن كثيراً من هؤلاء الزناة ، تحولوا من خطاة إلى قديسين .

العاطفة الملتية التي لهم ، لما تحولت إلى الله ، إشتعلت بمحبته ، واستطاعت أن تصل إلى حياة القداسة بسرعة . لسنا نذكر فقط أوغسطينوس ومريم القبطية وبيلاجية ...

إنما يعوزني الوقت إن تحدثت عن خاطئات أخريات استجبن للرب بسرعة ، وتحولن إلى قديسات : مثل القديسة باثيسة ، والقديسة تاييس ، والقديسة مرثا ،

والقديسة مريم بنت أخى القديس إبراهيم المتوحد ، والقديسة أفدوكيا ... وغيرهن
كثيرات (١)

ومن أمثلة هؤلاء من الرجال : القديس يعقوب المجاهد ، والقديس تيموثاوس
السائح ، وبدء حياة مار أوغريس .

إنهم جميعاً لم يأخذوا من الله مجهوداً في إرجاعهم إليه .

لم يتركوا الله يلح عليهم ، أو يناديهم بلجاجة .

المرأة السامرية ، مجرد جلسة واحدة مع المسيح ، غيرت حياتها كلية . وتحولت
من امرأة خاطئة « لها خمسة أزواج ، والذي معها ليس لها » إلى القديسة السامرية ...
كان لها قلب رقيق يمكن أن يستجيب بسرعة للرب أكثر من الفريسيين العنفاء
الذين يتكلمون عن المبادئ العالية ولا ينفذونها .

وداود النبي - بعد خطيئته وزناه - لم يحتمل من ناثان عبارة واحدة هي « أنت
هو الرجل » . فصرخ للتو قائلًا « أخطأت إلى الرب » . وقاب توبة عجيبة ، كان
فيها : في كل ليلة يعوم سريره ، وبدموعه يبيل فراشه » (مز ٦) .

نعم إن القلب الرقيق ، قد تكفيه كلمة لتغيير حياته .

عبارة واحدة سمعتها تاييس من القديس بيساريون ، جعلتها تسقط على الأرض ،
وتنفجر باكية ، ثم تخرج معه من مكان الإثم لتحيا كقديسة .

وعبارة واحدة سمعتها باثيسة من القديس يوحنا القصير ، جعلتها تتأثر ، كما
تأثرت ببكائه عليها ... وخرجت معه تائبة . وصعدت الملائكة بروحها في تلك الليلة
طاهرة كشعاع من نور .

القصص كثيرة ، وكلها تدور في فلك واحد ، وهو القلب الرقيق الذى
يستجيب بسرعة ...

وليس هذا فقط في دائرة الزواني الذين تابوا . وإنما في نطاقات أخرى كثيرة نجد
قلوباً رقيقة ، سهلة الإستجابة ، لا تعاند الرب ، بل تسمع له بسرعة ، وترجع إليه .

شاوول الطرسوسى غيرته عبارة واحدة من الرب .

كان شاوول شديداً جداً في تنفيذ الشريعة . وكان مضطهداً للكنيسة . ولكن لم

(١) أنظر كتاب [اليقظة الروحية] ، لتأخذ فكرة عن حياة هؤلاء .

تكن في قلبه قسوة، إنما كانت في قلبه غيرة حسبها مقدسة، وفعل ما فعله بجهل (١١: ١). فلما ظهر له السيد المسيح الذي كان شاول يضطهده، وسمع منه عبارة واحدة... قبل الكلمة بفرح، وتحول إلى العكس... وآمن وتأم لأجل المسيح.

وبطرس الرسول، مجرد أن سمع صياح الديك بكى بكاءً مرأً. لم يكن محتاجاً إلى كثير من التوبيخ. يكفي أنه سمع الديك، حتى قامت ثورة في داخله ضده، عصرت قلبه وعصرت عينيه. هكذا القلب الطيب، يكفي القليل ليتوب.

زكا العشار تطلع إليه المسيح، وكلمه. فلم يحتمل. وأعلن توبته أمام الجميع (لو ١٩: ٥). وكلم المسيح كنية وفريسيين وكهنة، ولم يستفيدوا. أما زكا، فلم يكن قلبه في التوبة قاسياً مثلهم، على الرغم مما هو معروف عن العشارين من ظلم.

ومنى العشار، لم يعوزه أيضاً لتغيير حياته، سوى كلمة واحدة من المسيح، هي «إتبعني» (متى ٩: ٩). فترك كل شيء، وقام وتبعه. وبنفس الوضع فعل بطرس وأندراوس الصيادان حينما قال لهما المسيح «هلما ورائي فأجعلكما صيادي الناس» (مر ١: ١٧).

القلب الحساس ليس فقط يطيع صوت الله، بل يستجيب لأية إشارة منه ولو من بعيد، يهتز قلبه لها، لأن قلبه متفتح لله باستمرار.

المسألة إذن تتركز في القلب: هل هو قاسٍ أم سهل.

والنوعان بظهران معاً في قصة داود ونابال الكرملى...

نابال الكرملى سمع رجاء من داود أن يعطيه من جزاز غنمه، لأنه كان هو وجنوده محتاجين إلى الطعام. فلم يستجب نابال لأجل قساوة قلبه. فأنذره داود فلم يرتدع، بسبب قساوة قلبه أيضاً. ما نفع معه الرجاء ولا التهديد.

أما أبيجايل زوجة نابال، فإذ سمعت بقصة داود مع زوجها، حتى تحرك قلبها بسرعة واستجابت. وقابلت داود وقدمت له ما يحتاجه جنده من طعام، واستعطفته. وفي نفس الوقت وبخته في أدب على أنه حاول أن ينتقم لنفسه...

وداود في هذه القصة - مع شدته - يقدم مثلاً للقلب الطيب الذي يقبل التوبيخ

بسرعة، ويرجع عن أخطائه. إذ قال لها «مبارك عقلك، ومباركة أنت، لأنك منعتي اليوم من إثيان الدماء وانتقام يدي لنفسى» (١ صم ٢٥ : ٣٣).

القلب الطيب يقبل التوبخ . أما القلب القاسى فيثور .

داود قبل التوبخ من أبيجاييل ، وهى امرأة ... وكذلك القديس الأنبا أنطونيوس قبل التوبخ من تلك المرأة التى قالت له « لو كنت راهباً ، لكنت تسكن فى الجبل » .

ولم يقبل الكلمة فقط وينفذ ، بل قال فى قلبه بالأكثر إن ذلك صوت الله إليه . بعكس ذلك ، شاول الملك - وهو معروف بقساوة القلب - لما كلمه ابنه يونانان من أجل داود قائلاً « لماذا يُقتل ؟ ماذا عمل ؟ » (١ صم ٢٠ ، ٣٢) ، حتى غضب شاول على يونانان ابنه ، ووجه رجمه إليه ليقتله ، وشمته بشتائم صعبة ، وأخزاه (١ صم ٢٠ : ٣٠ ، ٣٤) .

إن القلب القاسى ، لا يقبل التوجيه ولا النصيح ، ولا يتحول عن فكره . إنما تقنعه كبرياؤه بأن يثبت حيث هو . لذلك حسناً قال الكتاب :

الرب يقاوم المستكبرين (يع ٤ : ٦) .

لم يقف الرب يوماً ضد العشار المسكين ، لكن وقف ضد الفريسي القاسى المتكبر ، وضد الكتبة والفريسيين القساء ، الذين فى قساوتهم يحملون الناس أحمالاً عسرة الحمل ... (متى ٢٣) .

هؤلاء القساء يخسرون أنفسهم ، ويخسرون الناس ، ويخسرون الله .

● فسوة العذبة لعل الرب :

ولعل من أبرز الأمثلة هذه القسوة فرعون .

لم تستطع جميع الضربات أن تلين قلبه . وإن كان أحياناً قد قال «أخطأت إلى الرب» (خر ١٠ : ١٦) ، إنما كان يرجع بعدها ويشدد قلبه كما كان ... وكما كان يعد وعداً ، كان يرجع فى وعده بعد ارتفاع غضب الرب . وكما قال الكتاب «فلما رأى فرعون أنه قد حصل الفرج ، إغلظ قلبه ولم يسمع لها (لموسى وهارون)» (خر ٨ : ١٥) .

وظل فرعون في قساوة قلبه حتى هلك ... كان الله يريد أن يجذبه إليه بتلك الضربات، ولكنه رفض أن يستمع للرب، على الرغم من كل عجائب الله التي لها بنفسه ...

مثال آخر: هو الشعب المتمرد في البرية .

كل عجائب الله معهم في أرض مصر، وكل عجائبه معهم في البرية، وكل إحساناته الكثيرة إليهم ... كل ذلك لم يلين قلوبهم! ... لا الضربات العشر، ولا شق البحر الأحمر، ولا المن والسلوى، ولا الماء الذي فجره الله لهم من الصخرة، ولا عمود النار الذي كان يضيء لهم ليلاً، ولا السحابة التي كانت تظلمهم وتهديمهم نهاراً ... لا شيء من هذا كله جعلهم يتوبون ...

فوصفهم الرب مراراً عديدة بأنهم شعب صلب الرقبة

(خر ٣٢ : ٩ ، ٣٣ : ٣ ، ٥ ، ٣٤ : ٩ ، تث ٩ : ٦) . وقال إنهم « قساة الوجوه، صلاب القلوب » (حز ٢ : ٤) . وقال عنهم « صلاب الجباه، قساة القلوب » (حز ٣ : ٧) ...

وبسبب قساوتهم هذه، لم يستجيبوا للرب ولم يطيعوه، بل كانوا دائمي التذمر عليه. لا يتوبون مطلقاً مهما أحسن إليهم، حتى قال عنهم: مددت يدي طول النهار لشعب معاند مقاوم (رو ١٠ : ٢١) .

تصوروا الله يمد يده ليصالح شعباً . فيرفض الشعب يد الله الممدودة باستمرار، طول النهار. ولا يمد يده إليها ليصالح أو ليصالح ... فإذا انتفعوا من قساوة قلوبهم؟ لقد خسروا الرب، وخسروا أرض الموعد، ولم يدخلوها، بل هلك جيلهم المتذمر كله في البرية. وغضب الله عليهم وكاد يفنيهم، لولا شفاعة موسى فيهم (عد ٣٢) .

وابتلعت قساوة القلب كل شيء . ولم تذكر شيئاً من إحسانات الله، ولم تلتن، ولم ترجع إليه . وكل أقوال الأنبياء وإنذاراتهم لم تأت بأية نتيجة .

وكأن بذار الله بالنسبة إليهم، قد وقعت على صخر!

بذار على صخر، لا يصلح معها ماء، ولا سماد، ولا أيدي عاملة، ولا خبرة زراعية. إنها على صخر، لا تدخل إلى داخل .

هكذا القلب القاسى لا يتأثر بشيء : يوبخه ضميره ، فلا يشعر بوخز الضمير .
 يفتقده الروح القدس ، ليكته على خطية ، فلا يستجيب لصوت الروح فيه . يسمع
 كثيراً ، ويقراً كثيراً ، ولا فائدة ... يدخل الكنيسة ويخرج ، وهو كما هو بنفس
 القلب . ويعترف ويتناول مراراً ، ولا يغير فيه الإعراف شيئاً ولا التناول ... لا
 تنفع معه إحسانات الله إن تذكرها ، ولا تخيفه إنذارات الله ولا تردعه . إنه صخر .
 قلب قاس لا يتأثر . ينطبق عليه قول آيينا إبراهيم أبى الآباء « ولا إن قام واحد من
 الموقى يصدقون » (لوقا : ١٦ : ٣١) .

لأجل هذا ينهنا الكتاب قائلاً :

إن سمعتم صوته ، فلا تقسوا قلوبكم (عب ٣ : ٧) .

وصوت الله يأتينا من مصادر متعددة ...

قد يكلمنا الله من خلال كتابه المقدس ، أو عن طريق العظات والإرشاد
 الروحى . أو من خلال الأحداث التى تظهر فيها يد الله ، أو فى الجلسة الهادئة مع
 النفس ... والمهم فى كل ذلك أن نقابل صوت الله بأذن صاغية وقلب مفتوح ... قلب
 لين ، غير معاند .

حتى إن وقعنا فى قساوة القلب مرة ، لا نستمر .

فعذراء النشيد ، وإن كانت لم تفتح للرب فى أول مرة ، وقسى قلبها عليه ، إلا
 أن القلب عاد فرق مرة أخرى . وقالت : حببى مد يده من الكوة ، فأنت عليه
 أحشائى (نش ٥ : ٤) . وقامت تبحث عن هذا الحبيب فى كل مكان ، وتقول
 « أحلفكن يا بنات أورشليم ، إن وجدتن حببى ، أن تخبرنه بأنى مريضة حباً »
 (نش ٥ : ٨) .

ليتنا نحارب قسوة القلب فينا ، لأنه إن رق قلبنا ، ستؤثر فينا كل الوسائط
 الروحية ، وتقودنا إلى التوبة ومحبة الله .

الإنسان الحساس الرقيق ، كل شيء روحى يؤثر فيه .

إن سمع قداساً أو لحناً يتأثر . إن سمع عظة أو قرأ كتاباً روحياً يتأثر . وقد
 يتأثر أيضاً بتذكر أحبائه الذين رقدوا ... فإن أخطأ يقول « لعل روح فلان ترانى
 الآن » ... وبذلك يرجع عن الخطأ لتوه . مجرد صورة يراها للمسيح مصلوباً ، قد

تعصر مشاعره فيبكي ، كما فعلت القديسة العذراء التي قالت في داخلها « وأما أحشائي فتلهب بالنار عند نظري إلى صلبوتك الذي أنت صابر عليه يا إني وإلهي » .

عينا الإنسان الحساس ، أشبهها بأسفنجة مملوءة ماءً .

بأقل لمسة أو ضغطة ، يفيض ما بها . وهكذا الإنسان ذو القلب الرقيق ، دموعه قريبة باستمرار . إن أخطأ يرجع بسرعة ، ولا يستمر في الخطأ . كما فعل داود النبي ، وكما حدث لبطرس الرسول في إنكاره ... يدرك خطأه بسرعة ، ويندم بشدة ، ويتوب لوقته ...

إبعد يا أحي إذن عن قساوة القلب . وليكن قلبك رقيقاً حساساً ، يستجيب لكل تأثير روحي بلا إبطاء .

واعلم أن قساوة القلب لها أضرارها الخطيرة :

فهي تؤدي إلى الفتور الروحي ، وإلى السقوط ، وتجعل الإنسان لا يأتي بشمر على الإطلاق . وإن استمرت القساوة في القلب على الدوام كمنهج حياة ، فإنها تجعل الحياة تيبس تماماً ، وتكون نهايتها الحريق (عب ٦) .

لا تقل : « وماذا أفعل ؟ هذه طبيعتي » ...

كلا . إن طبيعتك هي في الأصل صورة الله ومثاله (تك ١ : ٢٦) . وكل خطأ أتى بعد ذلك هو عرض زائل ، يمكن التخلص منه بالتوبة ، وقبول عمل الروح القدس فيك . وكم من قساوة تحولوا إلى ودعاء ... كالقديس موسى الأسود الذي تحول من قاتل ، إلى راهب وديع طيب القلب جداً ، وصار مرشداً لكثيرين ، وتخلص قلبه تماماً من كل قساوة تجاه الله والناس .

لنبحث إذن عن أسباب قساوة القلب ، ونرى كيف يكون علاجها .



أسباب

قساوة القلب

وعلاجها

هناك أسباب لقساوة القلب . نستعرض المؤلف منها :

١- ممارسة الخطيئة :

الخطيئة تقسى القلب . والإستمرار في ممارسة الخطيئة يقسى القلب بالأكثر . لأنه طالما الإنسان يحيا في الخطيئة ، فإنه ينسى الله ، وينسى الوصية ، وينسى الصليب ، وينسى الموت والفداء . والنسيان يقسى قلبه . فيشرب الخطيئة كالماء ، ويتعود عليها . وتصبح سهلة أمامه . لا يسمع فيها صوت ضميره ، ولا صوت الروح ... والتوبة عن الخطيئة تزيل هذه القسوة . بل إن مجرد التأمل في بشاعة الخطيئة ، يطرد هذه القسوة من القلب . وقد تحدثنا عن هذا بالتفصيل في الباب الأول من هذا الكتاب .

٢- الشعور بحلاوة الخطيئة :

إن ذاق الإنسان الخطيئة ، ووجدها حلوة ، ما أسهل أن ينسى محبة الله ، وينسى وصاياه ، ويتقسى قلبه . وتغضى حلاوة الخطيئة على كل شيء ، وتبسط غشاوة على العقل والقلب .

حواء لما رأت الشجرة شهية للأكل ، تقسى قلبها .

ونسيت وصية الله ، ونسيت حكم الموت . ولم تعد أمامها حياة النقاوة ولا محبة الله . وشهوة الشجرة غطت على كل شيء .

كذلك شمشون نسي نذره ، وخذرتة حلاوة الخطيئة .

حينما كان مع دليلا ، لم يكن مع الله . أنسته الشهوة الخاطئة كل شيء .

ونداء روح الله الذى فيه ، لم يعد يعطى تأثيره . بل نسى أن دليلا لم تكن مخصصة له ، وسلمته لأعدائه أكثر من مرة . ولكن القلب بالشهوة كان قد تقسى حتى

نحن سماع صوت العقل . أصبح صلباً ، لا يؤثر فيه شيء ... وفقد شمشون كرامته
ونذره (قصر ١٦) .

لهذا السبب أيضاً رفض الشاب الغنى وصية المسيح .
كان يبحث عن الحياة الأبدية ويسأل عنها . وكان يحفظ الوصايا منذ صباه .
ولكن كانت هناك عجة المال في قلبه . وحلاوة هذا المال ، قست قلب هذا الشاب .
فسمع الوصية من المسيح ، ومضى حزيناً ، لأنه كان ذا أموال كثيرة
(متى ١٩ : ٢٢) .

وحلاوة الخطية قست قلب فرعون ...

أمامه مئات الآلاف يمكنه أن يسخرهم في أعماله . كيف يمكن أن يترك كل
هؤلاء يمشون ، ويحضر هذا الجيش من السحرة؟! حلاوة هذه الخطية ، خطية
السحرة ، وخطية السيادة ، قست قلبه ، فلم يستفد من كل الضربات التي حلت
عليه وعلى مصر كلها . وكلما كان القلب يستجيب ، كانت حلاوة الخطية تشبه
فيرجع .

كذلك فعل آخاب ، حين انتهى حقل نابوت اليزرعيلي .

من أجل حلاوة هذا الحقل في عينيه ، كسر وصية الله ، واستسلم لنصيحة
إيزابل ، وقتل نابوت ظلماً بعد أن لفق حوله تهماً ، واستحضر شهود زور . كانت
حلاوة هذا الحقل تغشى على ضميره تماماً ، وتقسى قلبه الذي قبل الظلم والقتل .

حلاوة الخطية تجعل صوت الضمير يفقد تأثيره ، ويتقسى القلب .

فإما أن الإنسان ينسى وصية الله ، وإما أن يؤجل تنفيذها لكي يستمر بقاؤه مع
الخطية التي يجلبها فترة أطول . وخلال هذا يصم أذنيه عن كل صوت داخل بيئته ،
وعن كل صوت خارجي ينصحه . ويصبح قلبه صلباً غير قابل للتحول . يناديه
العقل أن يبعد عن هذه الخطية التي يجلبها ، ويناديه ضميره ، وتناديه كل المؤثرات
الروحية . ولكن القلب الذي تقسى بالخطية ، يقول : « نعم سأبعد ، ولكن ليس
الآن » ويؤجل التوبة .

والتأجيل يقسى القلب ، فلا يلين للهاتف الروحي .

قساوة القلب تجعل الإنسان يؤجل التوبة . وتأجيل التوبة يقسى القلب بالأكثر . فكلما يؤجل الإنسان توبته ، ويستمر شاعراً أنه يتمتع بالخطية ، تزداد حالته سوءاً . ممارسته للخطية تشعره بجلاوتها ونفعها . وجلاوة الخطية تدعوه إلى مزيد من الممارسة . وفي كل ذلك يكون القلب قاسياً لا يتأثر بالروحانيات .

لا حلّ إلا أن يفقد الشعور بجلاوة الخطية .

فيما أن يصل إلى الإقنتاع بأنه في حالة ضياع ، وبأن الخطية تضره هنا وتفقدته أبديته . وإما أن بعض نتائج الخطية تهزه هزاً . وإما أن الله يضربه ضربه فيستيقظ . وإما أن يبل من الخطية ويتعب . وحينئذ يفكر تفكيراً آخر وهناك علاج آخر هام وهو :

الإكثار من أغذية الروح ، حتى تفقد الخطية حلاوتها .

لا بد أن تتغير نظرة الإنسان إلى الخطية . ولعل هذا ما يقصده الرسول بقوله « تغييروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم » (رو ١٢ : ٢) . وبتجديد الذهن لا يشعر بجلاوة في الخطية .

نتناول سبباً آخر لقساوة القلب وهو :

٣- التأثير الروحي الضار :

إن العشرة والصدقة والبيثة ، لها بلا شك تأثير على حالة القلب ... فإن عاشرت أشخاصاً ، لهم قلوب حساسة لوصايا الله ، فإنك تتعلم منهم هذه الحساسية ، وتتعلم الدقة في السلوك الروحي .

وإن عاشرت أشخاصاً لا يباليون ، يعلمونك قساوة القلب .

ربما لولا عشرة إيزابل ، ما كان آخاب الملك قد تقسى قلبه ليقتل نابوت اليزرعيل (١ مل ٢١) . إيزابل هي التي قدمت له الفكرة الخاطئة ، وساعدته على تنفيذها ، ودبرت له كل شيء ، وسهلت له العقبات ، وقست قلبه فتقسى ...

وهكذا فعلت نصيحة الشباب مع رحبام ، فتقسى قلبه .

نصحوه أن يقول للناس « إن خنصرى أغلظ من متنى أبى ... أبى أدبكم

بالسياس ، وأنا أؤدبكم بالعقارب» (١ مل ١٢ : ٨ - ١١) . وهكذا أفهموه الكرامة بأسلوب ضيعه . فتقى قلبه ، ونفذ نصيحتهم ...

وهكذا من يسهلون الخطية للآخرين ، ويساعدونهم عليها .

هناك أشياء قد ينفر منها القلب بطبيعته . ولكنه إن شجعه أحد عليها ، أو قاده ، فإنه يستسلم ويسقط . كمن يتعلم التدخين لأول مرة ، أو كجماعات المييز الذين كانوا يقتربون أموراً بشعة كالعري أمام الناس ، أو ممارسة الجنس أمام الأصدقاء ، أو أنواع أخرى من الإباحية ، ومن القتل وشرب الدماء . وكان أتباعهم يشمئزون منها في أول الأمر ، ولكنهم ينقادون أخيراً ويمارسونها ، كما ورد في مذكراتهم ... ويتقى قلبهم .

وقد صدق أحد الأدباء ، حيناً قال :

قل لي من هم أصدقاؤك ، أقول لك من أنت .

أصعب شيء هو الضمير الواسع ، الذي يبرر كل خطأ ، ويجد لكل خطيئة تعليلاً ، ويجعل العقل في خدمة رغبات النفس . فإن وجدت هذا النوع من الناس ، فابعد عنه ، لئلا يفرس في قلبك أفكاراً وشهوات لم تكن فيه ، ويقسى قلبك بتبرير الخطيئة ، أو باعتبارها شيئاً طبيعياً ، أو على الأقل يهزأ من تدقيقك في الحياة الروحية ، معتبراً ذلك تطرفاً أو عقداً ... فيقتسى قلبك .

وقد تكون الصحبة الشريرة كتباً أو وسائل إعلام .

أو مطبوعات ، أو تسجيلات صوتية ، أو أفلام ، أو شرائح ...

وكل ذلك يترك في نفسك تأثيراً في اتجاه معين ، ويقودك حيث لا يريد الله لك ، ويعلمك أشياء جديدة قد تضررك ، ويفرس فيك أفكاراً قد تغير نظرتك الروحية ، فيقتسى قلبك ... أو يقدم لك مفاهيم جديدة عن الحرية ، وعن القوة ، وعن الشخصية ، وعن السعادة ، ربما تشوش على مبادئك وقيمك ...

إحترس إذن . وكن مدققاً في اختيار ما تقرأ وما ترى . وافحص ما تسمع ، حتى داخل بيتك .

وافحص كل فكر جديد . وتدرّب على تمييز الأرواح .

لا تقبل كل مشورة وكل فكر وكل رأى . إنما كن قوياً من الداخل . ولتكن

لك فضيلة الإفراز، وتمييز الأرواح (١ يو ٤ : ١) . ولا تفقد مبادئك الروحية . وكن دقيقاً في اختيار أصدقائك . وكن كثير الإستشارة في كل جديد تقابله . وافحص كل شيء في ضوء تعليم الكتاب وسير القديسين والمبادئ الروحية الثابتة... وأيضاً من الأشياء التي تساعد على تقسية القلب :

٤- الاستسلام للعوائق :

المفروض أن ننتصر على العوائق لا أن نستسلم لها . ما أسهل أن يضع الشيطان أمامك عوائق في كل تفاصيل حياتك الروحية : فالخوف على الصحة قد يقف عائناً أمام الصوم . وقلة الوقت قد تقف عائناً أمام الصلاة والقراءة الروحية والاجتماعات والخدمة . والإحتياج المالى ربما يقف عائناً أمام دفع العشور لله . والمشغولية قد تقف عائناً أمام تقديس يوم الرب . وما يسمى بالحكمة قد يغطى كل تصرف خاطيء . فتكون الحكمة العالمية عائناً أمام تقدمك الروحي . (وبالحكمة) قد تتعلم الكذب ، وتتعلم التملق والمحاباة والخوف...

واستسلامك للعوائق ، يعلمك التهاون ، ويقسى قلبك .

إن القلب القوى لا يعترف بأن هناك عائناً يقف أمامه . ولا يسمح لهذه العوائق أن تقسى قلبه ، بل يجيأ في حياة الإنتصار المستمر . ويجد في الإنتصار على كل عائق لذة روحية... وإن وضع الشيطان عوائق أمامه ، يتذكر قول الرسول «فقاوموه راسخين في الإيمان» (١ بط ٥ : ٩) .

من الأسباب الأخرى التي تقود إلى قساوة القلب :

٥- اللامحانة بلطف الله :

أحياناً يخطئ الإنسان . وإذا لا يجد أمامه عقوبة إلهية رادعة ، يستهين بوصايا الله ، ويفقد مخافته ، ويقسى قلبه... بينما نرى الإنسان يدقق في تصرفاته الرسمية ، حيث توجد مؤاخظة ومساءلة وعقوبة...

وذكرنا هذا بقول الرسول «أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته ، غير عالم

أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة . ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير النائب تذخر لنفسك غضباً في وقت الغضب» (رو ٢ : ٤ ، ١٥) .

القلب القاسى ينفعه أحياناً الحديث عن مخافة الله .

الذى تذييه المحبة ، يمكن الحديث معه عن محبة الله . أما الذى يستهين ويستہتر ولا يبالي ، فإن مخافة الله قد تنفعه . والرسول يقول «لا تستكبر بل خف» (رو ١١ : ٢٠) . ويقول أيضاً «مكلمين القداسة في خوف الله» (٢ كو ٧ : ١) .

لعل هذا يذكرنا بأن الكبرياء هى أحد أسباب قساوة القلب :

٦- اللب رياؤ :

الكبرياء تقسى القلب . والمتكبر لا يفكر إلا في ذاته وفي كرامته . لا يضع الله أمامه ، ولا الناس . وفي سبيل تنفيذ مشيئته ، يمكن أن يفعل أى شىء ، ولا يبالي . وهكذا يصل إلى قساوة القلب .

أما المتواضع ، فينسحق قلبه أمام الله ، ويطيع ، ولا يقسو . وإذا وصل الإنسان إلى انسحاق النفس ، يمكن أن يقوده الإنسحاق إلى التوبة ، إذ تفارقه قساوة القلب ، وتلازمه النعمة .
من الأسباب التى تؤدى أيضاً إلى قساوة القلب :

٧- فقراً هيبة الوسائط الروحية :

فالذى يمارسها بلا روح ، تفقد هيبتها عنده .

وبالتالى تفقد تأثيرها عليه . وهكذا لا يستفيد منها ، فيتنقى قلبه . قديماً كان يدخل إلى الكنيسة ، فيتخشع قلبه ويخاف ، إذ يشعر أنه أمام الله في بيته . أما الآن ، فهو يدخل إلى الكنيسة - مع استمراره في خطيته - ويتجول فيها ، ويتحدث ويناقش ، ولا تترك في نفسه أثراً . وكذلك الهيكل ...

كذلك اعتاد التناول ، والإعتراف بغير خشية ، واعتاد الصلاة والقراءة بغير روح . واعتاد الصوم كعمل جسدى ... ولأن قلبه تقسى بالخطية والإستمرار فيها ، لم

تعد هذه الوسائط الروحية تغير من أمره شيئاً .

كمريض تعود أدوية معينة ، فقدت تأثيرها عليه .

أو كإنسان يأخذ مسكنات بكثرة ، إلى أن تفقد هذه المسكنات مفعولها بالنسبة إلى آلامه . أو كموظف يقابل رئيساً له باستمرار ويحتلط به ، فلم يعد يخشاه أو يهابه كبقاى الموظفين ... أو كإنسان عاش فى أماكن مقدسة واعتادها ، فلم يعد يتأثر بها كمن يزورها لأول مرة ...

لذلك يحتاج من يمارس الوسائط الروحية ، أن يمارسها بروح ، بعمق ، بفهم وخشوع ، حتى تعود هيبتها إليه ، ويستفيد منها لترد قلبه إلى الله ...



إبعد عن الخطوه الأولى واحترس من الثعالب الصغار

إن كنت تريد أن تتوب ، فاحترس من الخطوة الأولى نحو الخطية . وفي غالبية الحالات لا تهجم عليك الخطية دفعة واحدة بكل قوتها ، إنما تزحف إليك زحفاً في مدة طويلة حتى تصل إليك بتدرج كثير... فانظر من أين تأتيك الخطية ، وارقب مراحلها .

ومراحل الخطية تبدأ غالباً باتصال ، ثم إنفعال ، ثم إشتعال .

تصل بك الخطية أولاً عن طريق العثرات ، أو التهاون ، أو المعاشرات الردية . فإن أعطيتها مجالاً ، قد تؤثر عليك فتتفعل بها سواء أكان إنفعالاً فكرياً أو عاطفياً فإن تهاونت مع هذا الإنفعال الداخلي ، يشتد فيتحول إلى اشتعال . وفي هاتين المرحلتين تكون مؤثرات الخطية قد انتقلت من الخارج إلى الداخل . وهذا أخطر . وقد يتطور الأمر إلى ما هو أشد .

يتطور الأمر إلى صراع داخلي ، ربما ينتهي إلى تسليم فسقوط .

إنه صراع بين الضمير والخطية ، أو بين الروح والمادة . والصراع يدل على أن الإنسان رافض للخطية ، وأنه يقاوم . وهي مرحلة متعبة ، ولكنها أفضل من التسليم والسقوط . ويكون الإنسان قد أوقع فيها نفسه بتهاونه في المراحل السابقة .

أنت لا تضمن هذا الصراع بينك وبين الخطية .

قد تنجح فيه بعد تعب . وقد تفشل فتلقى سلاحك ، وتستسلم للعدو وتسقط .

ألقى موضوع [الخطوة الأولى] في القاعة المرقسية بالأنا رويس يوم الجمعة ١٠/٦/١٩٦٦ ، وألقى في كنيسة الملاك بدمهور ضمن سلسلة محاضرات عن حياة التوبة . أما موضوع [الثعالب الصغار] ، فألقى في الكاتدرائية الكبرى يوم الإثنين ٦/٧/١٩٧٠ ضمن مجموعة محاضرات عن سفر نشيد الأناشيد .

فالخطية من طبعها ، إنها لا تستريح حتى تكمل ...

وإن سقطت في الخطية ، لا يترك العدو ، بل يستمر في حربه ، حتى تتكرر الخطية ، وحتى تتحول إلى عادة عندك أو طبع فيك . وتصل إلى الوضع الذى لا تستطيع فيه أن تقاوم ... بل تخضع لكل ما يقترحه الشيطان عليك كعبد له وللخطية التى سيطرت عليك .

سبى العدو لك ، وعبودية الخطية ، يمثلها سبى بابل ، حيث يقول المرتل «على أنهار بابل هناك جلسنا ، فبكينا حين تذكرنا صهيون» (مز ١٣٦) ، ويقول «كيف نسبح تسبحة الرب فى أرض غريبة؟!» ولا يكتفى عدو الخير بأن يجعل فرسته عبداً للخطية ، وإنما قد يتطور إلى وضع أبشع ...

قد تتطور العبودية إلى مذلة العبودية ... !

أى الوضع الذى يشتهى فيه الإنسان الخطية ولا يجدها ... ! ويطلبها متوسلاً بكل قواه . كمن يطلب شهوة المال أو شهوة المقتنيات ، أو شهوة الجسد ، فلا يجدها . أو كمن يطلب العظمة أو الكبرياء أو الإنتقام أو التشفى ، ويسمى بكل رغبته لعله يجد ...

وكانه يتوسل إلى الشيطان ، أو يتسول من الشيطان ، أن يمنحه الخطية ! ... وهذه مذلة ، وقد يتمادى الشيطان حتى يحتقر هذا الإنسان !
ففى أية مرحلة من هذه المراحل أنت كائن ؟

لينتج تختصر الجهاد ، وتبعد عن الخطوة الأولى .

فهذا أسهل لك وأريح ، وأكثر ضماناً . كما أنه يدل على نقاوتك ، وعدم قبولك للخطية . ويدل على عدم تفاوضك مع العدو ، وعدم تعاملك معه . وعن هذا شرح القديس دورثيوس :

مثال الشتلة الصغيرة ، والشجرة الضخمة .

فقال إنه من السهل جداً أن تقتلع شجيرة صغيرة من الأرض . تمد يدك فتزعجها بسهولة . ولكن إن صبرت عليها حتى تصير شجرة ضخمة ، يكون من الصعب عليك اقتلاعها ...

وحتى إن نجحت ، فهناك خطورة أخرى .

قد تنتصر على فكر شرير داخلك ، بعد صراع مرير .

ولكنه أثناء الصراع يكون قد نجس ذهنك وربما قلبك .

وحتى إن طردته من عقلك الواعى ، قد يبقى فى ذاكرتك ، وفى عقلك الباطن .
وربما يعود اليك بعد حين ، أو يظهر فى أحلامك أو فى ظنونك ... فلماذا كل هذا
التعب ؟ الوضع السليم هو أن تتخلص منه من بادىء الأمر، قبل أن يستقر، وقبل
أن يتسع نطاقه فى محاولة تدمير روحياتك . حاول أن تنتصر من البدء ، من مرحلة
الإتصال .

بقدر إمكانك ، حاول أن تبعد عن الإتصال بالخطية .

وفى ذلك يقول المزمور « طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار . وفى
طريق الخطاة لم يقف . وفى مجلس المستهزين لم يجلس » (مز ١) . وقد لاحظ أحد
القديسين لونا من التطور فيما ذكره المزمور . سلوك ، ثم وقوف ، ثم جلوس . المرحلة
الأولى هى السلوك أى المشى . أخطر منها الوقوف معهم . وأخطر منها الجلوس أى
الإستقرار . كما أن مرحلة المستهزين الأخيرة هى أشبع من مرحلة الخطاة ، إذ تعنى
خطاة مستهزين .

لذلك لا تسمح للخطية أن تتطور معك ، أو أن تجملك تتطور معها . ومن أول
خطوة إبعدها . هذا إن كنت تريد أن تتوب ، وإن كنت تريد أن تحفظ قلبك
نقياً . وعلى أية الحالات :

فى أية مرحلة وُجدت ، لا تتطور إلى أسوأ ...

لأن إرادتك قد تكون قوية فى أول هذا القتال ، فى مرحلة الإتصال . فإذا
انفعلت تكون إرادتك قد بدأت تستجيب للخطأ . وفى الإشتعال تكون قد ضعفت .
وفى الصراع تدخل فى مرحلة حياة أو موت . فإن سقطت ، تكون إرادتك قد وقعت
صريرة فى هذه الحرب . وإن صرت عبداً للخطية ، تكون إرادتك قد انتهت . وتصيح
إنساناً مسلوب الإرادة . فالتفت إلى نفسك ، واحترس منذ الخطوة الأولى . واعلم هذا
جيداً ، أنه :

كلما يخطو الإنسان خطوة فى طريق الخطية ، تضعف إرادته .

ويميل إلى الخطية ، ويكون قد أعطى الشيطان مكاناً ، ووسع له داخل نفسه .

وكلما يخطو خطوة أخرى نحو الخطية، تقل حبة الله في قلبه، ويكون سقوطه أمراً متوقماً جداً... لذلك يقول المزمور «يا بنت بابل الشقية...»

طوبى لمن يمسك أطفالك ، ويدفنهم عند الصخرة » (مز ١٣٦) .

بنت بابل (أرض السبي) هي الخطية . وأطفالها هم شهوات الخطية أو أفكارها منذ الخطوة الأولى، قبل أن تكبر الخطية . طوبى لمن يمسكهم ويدفنهم (أى يتخلص منهم) عند الصخرة . وكما يقول الكتاب «والصخرة كانت المسيح (١ كو ١٠ : ٤) . أى طوبى لمن يقاوم الخطية، من أول ولادتها في الفكر، ويستعين في القضاء عليها بقوة من المسيح نفسه .

وسنحاول أن نضرب أمثلة من الكتاب عن تطور مراحل الخطية :

كيف تطور الأمر في سقوط أمنا حواء ؟

لنأخذ درساً في حياتنا من هذه الخطية الأولى . هل سقطت حواء حينما قطفت من الشجرة فأكلت ، وأعطت رجلها فأكل معها ؟ كلا، فقد كانت هذه هي المرحلة الأخيرة من المأساة . وكانت تطوراً طبيعياً جداً لكل ما سبقها . وكان الأمر متوقماً... ! فكيف ذلك ؟

كيف تطور الأمر مع حواء ، حتى قطفت من الشجرة ؟

بدأت المشكلة حينما جلست مع الحية ، فأسمعتها الحية كلاماً عجيباً « لن تموتنا... يوم تأكلان تنفتح أعينكما ، وتصيران مثل الله ، عارفين الخير والشر » (تك ٣ : ٤ ، ٥) .

وهنا دخل الشك في قلب حواء ، ثم بدأت تفقد الإيمان في صدق كلام الله الذى قال « يوم تأكلان موتاً تموتنا » ، أو على الأقل بدأ إيمانها يتزعزع ، ودخلها الشك... وأسلمها الشك إلى الشهوة ، شهوة الألوهية ، وشهوة المعرفة ، وليس مجرد شهوة الثمرة . وهنا كان انفعالها الداخلى قد بلغ أقصاه . وفقدت حواء بساطتها ، وفقدت نقاوتها الداخلية . ونظرت إلى الشجرة ، فإذا هي : جيدة للأكل ، وهبة للعيون ، وشهية للنظر (تك ٤ : ٦) .

كل يوم كانت حواء تمر على الشجرة ، لأنها في وسط الجنة ، ولم تكن تنظر إليها هكذا . فمن أين أتت هذه النظرة ؟

فكر غريب دخل إلى القلب ، تحول إلى شهوة .

وسيطرت الشهوة على القلب ، واستسلمت لها الإرادة .

وما كانت حواء قادرة في ذلك الحين ، وما كان آدم قادراً ، على الإمتناع عن الأكل . فحالة قلبها كانت قد تغيرت تماماً عن وضع النقاوة والبساطة الأولى . وحل الشك محل الإيمان . واشتد الإغراء جداً . وضعفت الإرادة جداً . وسقطت حواء وآدم معها .

كان يجب على حواء أن تبعد عن الخطوة الأولى .

فلا تجلس مع الحية وهى «أحيل حيوانات البرية» . وإن جلست ، فما كان يجب أن تسمع كلاماً ضد وصية الله . وإن سمعت ، كان يجب أن ترفضه ولا تصدقه . ولا تجعل الفكر الخاطيء يدخل إلى القلب ، ويتحول إلى شهوة . وإن جاءت مثل هذه الشهوة ، كان يجب أن تقاومها ...

ولكنها تركت الأمور تتطور في قلبها ، وتقودها من خطية إلى أخرى ، حتى وصلت إلى أقصى درجات السقوط ... وما كان أغناها عن كل هذا ، لو بعدت منذ الخطوة الأولى ...

أتريد أنت إذن ألا تسقط ؟ إبعد عن الحية .

إبعد عن « المعاشرات الرديئة التى تفسد الأخلاق الجيدة » (١ كو ١٥ : ٣٣) .
إحترس من التأثيرات الخارجية الشريرة . واحترس من أن تنفخ عيناك لكى تبصر الخطية . إبعد عن هذه الخطوة الأولى ، حتى لا تقودك إلى الضياع شيئاً فشيئاً .

فبهذه السقطة عينها سقط شمشون ، بسبب حية أخرى .

شمشون الجبار ، القاضى العظيم ، ذو الكرامة والهيبه ، الذى كان روح الرب يحركه (قض ١٣ : ٢٥) ، والذى حل عليه روح الرب (قض ١٤ : ٦) . شمشون هذا ، باح بسره ، وكسر نذره ، وأذله أعداؤه . فقأوا عينيه ، وجعلوه يجر الطاحون في بيت السجن (قض ١٦ : ٢١) . وقد تأثرت جداً من هذا المنظر ، وأنا شاب صغير ، منذ حوالى أربعين سنة . وكتبت قصيدة على لسان شمشون أولها :

أنا الجبار أم شبحى أنا شمشون أم غيرى
إذا ما كنت شمشوناً فأين مهابة القدير ؟

وأيمن كرامة القاضى
وأيمن النور من عيني
وأيمن مواكب النصر ؟
وأيمن الطول من شعري ؟

حنانك يارحى الطاحون
أجيبى إننى مصمغ
هل تدريين ما سرتى ؟
فقد حُجِرْتُ فى أمرى ؟
أنا الجبار أم شبحى
أنا شمشون أم غيرى ؟

شمشون هذا : هل حلت مأساته فجأة ، أم لها تطورات ؟

نعم لها تطورات ، خطوة تقود إلى خطوة . أولها أنه ذهب إلى غزة ، وأخطأ هناك (قض ١٦ : ١) . ثم تعرف على امرأة إسمها دليلة . وتطورت علاقته بها إلى أنه أحبها وتعلق بها ، ثم أقام عندها . وفى كل هذا ما كان ضميره يتعبه ! وأحس أعداؤه بهذا فاستغلوا ضده . وحاولت أن تعرف سر قوته لتسلمه إلى أيدي أعدائه . وسألته أكثر من مرة ، وكانت تجبر أعداءه ، وهو يعلم هذا... ومع ذلك بقى على علاقته بها . ولكن ضاعت شخصيته معها... وتطور إلى أن أخبرها بسرّه ، فباعته لأعدائه بالفضة . ورضى أن يسلمها رأسه لخلق شعره . وضاعت قوته ، فأسروه... ما كان أغناه عن كل هذا ، لو أنه بعد عن الخطوة الأولى ... أو لو أنه استيقظ إلى نفسه فى أية مرحلة من المراحل التى مرت عليه ، قبل أن يصل إلى المأساة...

مأساة لوط ، مرت أيضاً بمراحل وتطورات .

لقد هلكت سادوم ، وهلك معها كل غنى لوط . وفقد كل شيء وجميع أقاربه ، وفقد إمرأته أيضاً . وكان يمكن أن يهلك مع المدينة لولا أن أخرجه مع إبنتيه ملاكان (تك ١٩) .

وأنا عندما أحلل مشكلة لوط ، إنما أرجع بعقارب الساعة إلى الخلف سنوات... حينما كان يعيش فى صحبة رجل الله إبرام ، إلى جوار البر والمذبح . ثم بدأت المشكلة...

أحب لوط الغنى والإتساع ، فاشتبه الأرض المعشبة .
وأدى به هذا الأمر إلى أن ينفصل عن رجل الله إبرام . وكانت أول خسارة

له ... ثم تطلع يبحث عن الأرض المعشبة ، فأرى سدوم . وكانت أرض سقى « كجنة الله ، كأرض مصر » (تك ١٣ : ١٠) . « فاختار لوط لنفسه » . وكان هذا خطأ روحياً . « وكان أهل سادوم أشراً وخطاة لدى الرب جداً » (تك ١٣ : ١٣) .
ومع ذلك :

لم ينظر لوط إلى روحيات المكان ، بل إلى خضرته !
فترك إبراهيم والمذبح ، ليذهب إلى الأرض المعشبة ، في عشرة الأشرار . ذهب إلى المكان الذى فيه خير مادي ، وليس إلى المكان الذى يعبد فيه الله ! وبدا أن روحياته في الدرجة الثانية من اهتمامه « وكان البار - بالنظر والسمع ، وهو ساكن بينهم - يعذب يوماً فيوماً نفسه البارة بالأفعال الأثيمة » (٢ بط : ٢ : ٨) .

ومع ذلك كله ، تطور الحال به إلى أسوأ .

فاختلط بشعب الأرض ، وزوجهم من بناته . وفقد هيبته الروحية بينهم ، حتى أنه عندما أنذرههم بحكم الله فيما بعد « كان كمازح في أعين أصهاره » (تك ١٩ : ٤) . وهجموا على بيته حين دخل عنده الملاكان ... وانتهى الأمر بهلاك المدينة وفقد كل ما كان له .

وكان الأجدر أن ينتبه من البداية ، ولا يترك إبراهيم .

كان عليه أن يحارب في قلبه الخطوة الأولى ، وهى محبة الأرض المعشبة ، محبة الغنى والإتساع . إذن ما كان يحدث له شيء من كل هذا الذى حدث .

لنتأمل إذن خطية داود . ونرى خطواتها الأولى .

لقد زنى داود ، وقاده الزنى إلى القتل ، ليغضى خطيئته . كما قاده الأمر إلى أسلوب من الكذب والإلتواء الخداع أوريا الحثي (٢ صم ١١ : ٨ - ١٣) . فهل كان الزنى هو الخطوة الأولى ؟ كلا . سبقها إنه رأى المرأة تستحم فاشتأها . ومع ذلك لم تكن هذه هى الخطوة الأولى ، إذ سبقها أن داود قام عن سريره ، وتمشى على سطح بيت الملك ، وتطلع إلى بيوت الناس وأسرار حياتهم الشخصية . ولكن سبقت هذه خطوة أخرى أساسية :

كانت الخطوة الأولى في سقطة داود ، حياة الترف .

هذا الترف الذى يجعله يبيت في قصره ، بينما الشعب منشغلاً في الحرب في

الصحراء، وهولا يشاركهم حتى بشعوره. لقد كان أوريا أكثر نبلاً منه في هذه النقطة، إذ لما دعاه داود أن يذهب إلى بيته ويستريح، أجاب أوريا «... عبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتي إلى بيتي، لأكل وأشرب وأضطجع مع إمرأتي!؟ وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر» (٢صم ١١: ١١).

قديمًا لم يكن داود هكذا. لقد تغيرت حياته.

كان مطاردًا من شاول، هاربًا من بركة إلى أخرى. يسكن في المغارات، يحارب بنفسه، ويبيت على الأرض. ولم يخطيء وقتذاك. أما الآن فإنه في ترف، يسكن القصور، وله خدم وحشم وعبيد. ويرسل الجيش ليحارب، بينما هو في بيته على سريره، يقوم منه ليشمشى على السطوح، وينظر الناس. وليست له مشاعر المشاركة مع جيشه المحارب...

وقاده الترف إلى الشهوة، ثم إلى الخطية ومحاولة تغطيتها.

وسقط في خطايا كثيرة، جعلته فيما بعد يبيل فراشه في كل ليلة بدموعه (مز ٦). ولما أراد الله أن يعالجه من هذه الخطوة الأولى، سمح أن يقوم ضده أبشالوم. ويخرج داود من قصره حافياً، (٢صم ١٥: ٣)، ويشتمه شمعي بن جيرا في الطريق، ويرده الرب إلى طقسه الأول...

فلنتأمل إذن كيف أمكن أن يبخر سليمان للأوثان.

سليمان أحكم أهل الأرض في جيله، الذي ظهر له الله مرتين وكلمه (١مل ١١: ٩). ومنحه الحكمة والجلالة وسعة الصدر، كيف أمكن أن يسقط في هذه الجهالة العجيبة؟ إنها لم تأت فجأة ولا شك، إنما سلكت في تطورات.

وكانت الخطوة الأولى أنه تزوج نساء غريبات (١مل ٩: ١٦، ٢٤)

وتطور الأمر إلى أن قال الكتاب «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون: موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات» (١مل ١١: ١). وكان هذا ضد وصية الله التي تمنع الزواج بالأجنبيات...

وتطور الأمر إلى أنه بنى مرتفعات على الجبال لآلهة هؤلاء النسوة الغريبات، كى يوقدون ويذبحن لآلهتهن» (١مل ١١: ٧، ٨). وانتهى أمر سليمان في تطور

الخطية معه بأساة، إذ يقول الكتاب « وكان في زمان شيخونته أن نساءه أعلن قلبه وراء آلهة أخرى... فذهب وراء عشتاروت إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر في عيني الرب » (١ مل ١١ : ٤-٧).
كل ذلك تطور من الخطوة الأولى ، الزواج بأجنبيات .

يعوزني الوقت إن تحدثت عن تطور الخطية مع أمثال هؤلاء الجبابرة . وكيف أن الخطوة الأولى في الخطية قادتهم إلى خطوات أشبع . ولكني أقول :

لست أقوى من الأنبياء والحكماء والجبابرة الذين سقطوا .
فاحترس من الخطوة الأولى للخطية . واهرب لحياتك .

إنك لست أقوى من آدم الذي كان في الفردوس في حالة فائقة للطبيعة، ولا أقوى من داود الذي حلّ عليه روح الرب وكان مسيحاً للرب، ولا أقوى من شمشون نذير الرب الذي كان روح الرب يحركه، ولا أقوى من سليمان الذي كلمه الرب مرتين وكان أحكم أهل جيله، ولا أقوى من إبراهيم أب الآباء وخليل الله، الذي لكى ينقذ نفسه كذب وقال إن سارة أخته وعرضها للضياع (تك ٢٠ : ١١، ١٣).

وصدق الكتاب حيناً قال عن الخطية إنها :

« طرحت كثيرين جرحى . وكل قتلاها أقوياء » (أم ٧ : ٢٦) .

إذن فلنحترس من الخطية بكل قوتنا . ليس فقط حيناً تشتد علينا، وتجم مثل أسد يزأر ملتمساً من يتلعه (١ بط ٥ : ٨) . كلا، وإنما من أول خطوة، نمسك أطفالها، وندفنهم عند الصخرة... ليس فقط الخطايا الواضحة البشعة، إنما كل خطية مها بدت بسيطة أو صغيرة أو تافهة، نعمل بقول الوحي الإلهي في سفر التثنية :
خذوا لنا الشعالب ، الشعالب الصغار ، المفسدة للكروم » (نش ٢ : ١٥) .

الكرم بصفة عامة هو الكنيسة، وبصفة خاصة : قلب كل مؤمن .
والشعالب هي الخطايا الماكرة التي تبدو صغيرة ، وليست مثل الوحوش الكاسرة التي يستعد الجميع لها .

خطورتها ، أنها لصغرها ، ربما لا يهتم أحد بها ...

فبتركوبها تنمو وتكبر ، حتى تتطور إلى وضع مغرب يصعب مقاومته .
وهذه الوصية تدعوننا إلى التدقيق والإهتمام ، وأن نبحث في حياتنا ما هي هذه
الشعالب الصغار لكى نقاومها . كما أننا نتعلم درساً هاماً وهو:

لا يجوز إهمال أية خطية ، مهما بدت صغيرة .

فإن أى ثقب بسيط فى مركب ، قد يتسع إذا ما أهمل ، حتى يتحول الى كارثة
غرق . ونهر النيل بمجره العظیم بدأ بقطرات أمطار سقطت على جبال الحبشة وسارت
حتى وصلت إلینا نهرأ . وتل القمامة الضخم الذى ألقوه على الصليب ، بدأ بمقطف
واحد من القمامة . وأطول مشوار فى الخطية ، بدأ بخطوة واحدة .

فلنحترس مدققين من كل خطوة للخطية . ونطرد الشعالب الصغار .

التي ربما تكون أحياناً قليلاً من الكسل أو التهاون والتراخي ، أو قليلاً من
التبسط فى الكلام أو التصرف . عارفين أن الذى يهتم بالنسبة إلى القليل ، سيهتم ولا
شك بالكثير أيضاً . وكما يقول المثل الإنجليزى . إهتم بالبنس ، وستجد أن الجنيه يهتم
بنفسه . إذن لا تغفل الأشياء الصغيرة ، بل اهتم بمقاومتها .

هناك ثعالب صغيرة دخلت حياة القديسين . ولناخذ ابراهيم مثلاً .

فى مرتين ، ضحى أبونا إبراهيم بزوجه سارة ، وقال إنها أخته ، فأخذوها إلى
ملك البلاد ، إذ حسنت فى عينيه ، لأنها كانت جميلة جداً . مرة فى مصر (تك ١٢ :
١٠ - ٢٠) . والأخرى فى أرض جرار (تك ٢٠ : ١ - ١٤) . ولولا تدخل الرب
نفسه ، لضاعت سارة ، وصارت زوجة لغير ابراهيم فى حياته . فكيف وقع أبونا
إبراهيم فى هذا الأمر ؟

لعل الخطوة الأولى هى الخوف على حياته .

خاف وقال لسارة « إذا رآك المصريين ، يقولون هذه امرأتى ، فيقتلوننى
ويستبقونك » (تك ١٢ : ١٢) . وهل من أجل خوفك ، تضحى بامرأتك ؟ هذا
كثير .

على أن خوف ابرآم من الموت ، سبقه خوف آخر من الجماعة . يقول الكتاب
« وحدث جوع فى الأرض ، فأتحد ابرآم إلى مصر ، ليتغرب هناك » (تك ١٢ :
١٠) . وكانت مصر لغناها ترمز إلى الإعتماد على الذراع البشرى .

ولكن ثعلباً صغيراً كان قد دخل إلى أبرام. فما هو؟

هذا الثعلب الصغير غير المرئى ، كان ضعف إيمان في قلب أبرام ، من جهة إعالة الله له في وقت المجاعة. ضعف الإيمان هذا ، قاده إلى الإعتماد على الذراع البشرى فنزل إلى مصر. وعرف الشيطان نقط الضعف هذه ، فقاده إلى الخوف على حياته من الموت ، كما خاف على حياته من الجوع . والخوف قاده إلى التضحية بامرأته ، وقاده هذا إلى الكذب والإدعاء بأنها أخته... واستطاع الثعلب الصغير الذى دخل إليه أن يفسد الكرم من كل هذه النواحي...

ثعلب صغير آخر دخل إلى أيوب ، هو البر الذائق .

كانت مشكلة أيوب أنه رجل كامل ومستقيم ، ويعرف عن نفسه أنه كامل ومستقيم . ومن أجل هذا ، وقع في البر الذائق . وكان كما قال الكتاب « بارأ في عفى نفسه » (أى ٣٢ : ١) . وظل الله ينقيه بالتجربة ، حتى قال « نطقتم بما لم أفهم ، بمعائب فوق لم أعرفها » (أى ٤٢ : ٣) .
ما أسهل أن نقطة صغيرة تجر إلى مشاكل عديدة جداً .

ثعلب صغير حارب يوسف الصديق ، هو الحديث عن النفس .

فتحدث أمام أخوته عن أحلامه ، وعن الذين يسجدون له في الحلم ، فأثار ذلك حسدهم ، وتحول الحسد إلى بغضة « وازدادوا أيضاً بغضاً له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه » (تك ٣٧ : ٨) . وتطور الأمر حتى باعوه أخيراً كعبد... لذلك حسناً أن السيدة العذراء لم تكن تتحدث عن كل العجائب التى تحدث معها ، إنما تحتفظ بذلك في قلبها (لوقا ٢ : ٥١) .

وكان القميص الملون ثعلباً صغيراً آخر سبب مشاكل .

القميص الملون الذى صنعه يعقوب لابن شيخوخته ، يوسف . فأثار حسد أخوته « فلما رأى أخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع أخوته ، أبغضوه ، ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام » (تك ٣٧ : ٤) ... أتراك أنت أيضاً تفعل هذا ، حينما تفرق في معاملاتك للناس ، وتظهر حباً لشخص منهم أكثر من غيره ؟!

حقاً ، من كان يظن ... ؟!

من كان يظن أن الخطوة الأولى في خطايا عديدة ، تصل إلى بيع الأخ ، وخديعة

الأبناء لأبيهم، والوصول إلى عبودية فرعون، كل هذه تكون بسبب قيصر ملون أو رواية صبي صغير لأحلامه؟ ولكنها الثعالب الصغار المفسدة للكروم لذلك يقول الكتاب: «أسلكوا بتدقيق، لا كجهلاء، بل كحكماء» (أف ٥: ١٥). كن دقيقاً جداً إذن، فربما خطأ تظنه بسيطاً يجر إلى مشاكل كثيرة. بينما التدقيق لا بد ينفعك، ويعلمك الحرص. ونضرب لذلك مثلاً:

الذي يهتم بالحشمة داخل غرفته، لا بد سيحتشم في الخارج. الذي في حجرتة الخاصة المغلقة عليه، يستحى من أرواح الملائكة والقديسين، هذا لا بد أن يسلك باحتشام في الخارج أمام الناس. وتصير الحشمة من طباعه. ومن ناحية أخرى، من لا يبالي بأن يجلس في وضع غير لائق، في حجرتة الخاصة، قد يتعود ذلك، ويجلس أحياناً بنفس الطريقة أمام الناس!

الشیطان ذكي. لا يهاجمك بخطية بشعة دفعة واحدة. لا يطلب منك باباً واسعاً يدخل منه إلى حياتك. وكل ما في الأمر أنه يستأذنك في ثقب إبرة. وقد لا تبالي، فتسمح له. وهذا يكفي. يظل يوسعه حتى يتلف حياتك كلها. ولذلك فالتدقيق أفضل.

ما أكثر الخطايا التي تدخل من ثقب إبرة. الشيطان مثلاً لا يدعوك إلى عدم الصلاة، إنما إلى تأجيلها... إن رآك متعوداً الصلاة حالماً تستيقظ، يقول لك: إنتظر حتى تغسل وجهك وتفيق ثم تصلى. وقب أن تفيق يكون قد ألقى في ذهنك أفكاراً عديدة تشغلك وتنسبك، وأشياء أخرى تعطلك... أما أنت فلا تعطه، بل استمر في صلاتك، حتى وأنت ذاهب لتغسل وجهك...

كن محترساً إذن. وابتعد عن الخطوة الأولى التي تقودك إلى الإهمال والفتور، أو التي تقودك إلى الخطية.

والخطوة الأولى للخطية، قد لا تكون خطية في ذاتها. فربما علاقة خاطئة، تكون بدايتها صداقة بريئة لا خطأ فيها. وربما يكون ضياع وقت البيت كله، حول التلفزيون والأفلام، بدأ بفرجة بريئة على فيلم علمي أو مباراة للكرة، ثم تطور الوقت، حتى ضيع مذاكرة التلاميذ وحضور إجتماعات

الكنيسة . فعلى الإنسان إذن أن يكون مدققاً ومحترساً ...

والخطوة الأولى إلى الخطية ، تختلف من شخص لآخر .

الترف كان الخطوة الأولى لخطية داود ، والحسد كان الخطوة الأولى لخطية قايين وإخوة يوسف . والتزوج بالأجنبيات كان الخطوة الأولى في خطية سليمان . والتأثير الخارجى الخاطيء كان الخطوة الأولى في خطية آدم وحواء وخطايا عصر القضاة (قض ٣ : ٥ ، ٦) . وعجة النساء كانت الخطوة الأولى في سقطة شمشون . والخوف كان الخطوة الأولى لخطية بطرس وخطية إبراهيم ...

فابحث أنت ما هي الخطوة الأولى في خطاياك ؟

واحترس منها جداً . وإن وقعت في الخطوة الأولى ، لا تكمل الثانية .

ربما تكون خطوتك الأولى أنك ذهبت إلى غرة ، أو إلى سدوم ، أو إلى جزار ، ربما ضعفت في شخصيتك يجعلك تستسلم لمشورة الأشرار . ربما لا تكون محبة الله في قلبك . ربما خطوتك الأولى هي الغرور أو الثقة الزائدة بالنفس التي لا تقودك إلى الإحتراس . وربما تكون الخطوة الأولى لسقوطك هي العشرات ...
أياً كانت فسنحاول أن نبحثها معاً ، لكي نخلص منها ...

واستفد من دراسة الخطوة الأولى التي أسقطت غيبك .

وبخاصة أولئك الذين كانوا جبابرة في حياة الروح . أنظر إذن « كيف سقط الجبابرة ، وبادت آلات الحرب » (٢ صم ١ : ٢٧) .

وبالإحتراس من الخطوة الأولى ، تعلم حياة التدقيق .

واحرص أن تتخلص من الثعالب الصغار المفسدة للكروم . وكما قالت القديسة سارة : « إن فماً تمنع عنه الماء ، لا يطلب خراً . وبطناً تمنع عنها الخبز ، لن تطلب لحمًا » ...

أبعد عن العثرات وأهرب من مصادر الخطية

أبعد عن العثرات بنوعها :
سواء الواردة إليك من آخرين أو التي أنت تعثر بها غيرك

● أبعد فظوة العثرة :

العترة في اللغة هي السقطة .

والذي يعثر غيره ، هو الذي يتسبب في إسقاط غيره .

وهذا يحمل ذنب ذلك الساقط ، أو يشترك في ذنبه . وفي ذلك قال السيد المسيح له المجد « ويل لذلك الإنسان الذي به تأتى العثرة » (متى ١٨ : ٧) ، « خير له أن يعلق في عنقه حجر الرحى ، ويُغرق في لجة البحر » (متى ١٨ : ٦ ، لو ١٧ : ٢) .

عبارة « ويل لذلك الإنسان » تدل على خطورة خطيته .

ولشعور القديس بولس الرسول بخطورة إعتار الآخرين ، ولحرصه ألا يهلك أحد بسببه ، قال عبارته المشهورة « إن كان طعام [أكل اللحم] يعثر أخى ، فلن آكل لحماً إلى الأبد ، لئلا أعثر أخى » (١ كو ٨ : ١٣) . ولخطورة العثرة أيضاً ، نرى أن السيد المسيح :

وضع الذين يعثرون قبل الخطاة في استحقاق الدينونة .

فقال « هكذا يكون في انقضاء العالم : يرسل ابن الإنسان ملائكته ، فيجمعون من ملكوته جميع المعثرين وفاعلى الإثم ، ويطرحونهم في أتون النار » (متى ١٣ : ٤-٤٢) ، جاعلاً المعثر قبل فاعلى الإثم ، لأنهم السبب ...

(١) من محاضرة عن العثرات بتاريخ الجمعة ١٩٧٠/١/٢٣ في الكاتدرائية الكبرى . ومحاضرة أخرى بنفس العنوان في اجتماعات الأسرات الجامعية ، ومحاضرة ثالثة بعنوان (إهرب لحياتك) ألقىت يوم الجمعة ١٩٧٢/٨/٢٥ في الكاتدرائية الكبرى .

وإن كان إعتار الآخرين أمراً خطيراً ، فإن إعتار الصغار والبسطاء أمراً
أخطر

وهكذا قال الرب في الويل الذى صبه على الذين تأتى منهم العثرات « من أعتز
أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى ... » (متى : ١٨ : ٦) « خير له لو طوق عنقه بحجر
رحى ، وطرح فى البحر ، من أن يعثر أحد هؤلاء الصغار » (لوقا : ١٧ : ٢) .

ذلك لأن الصغار والبسطاء ، يقبلون العثرة بسهولة .

إنهم يصدقون كل شىء ، بسرعة وبلا نقاش ، ولا يشكون فيمن يكلمهم ،
وليست لديهم القوة على فحص الأمور ، والتمييز العميق بين ما هو حق وما هو باطل
فى كثير من الأمور... وهكذا لا يوجد تكافؤ فى كفتى الميزان ، بين من تصدر منه
العثرة ومن يتقبلها...

وعدم التكافؤ هذا ، وجد فى عثرة حواء من الخطية .

حواء كانت بسيطة جداً ، نقية للغاية ، لا تعرف ما هى الخطية من قبل ، لا
تعرف الشر ، لا تشك فى كلام غيرها إذ لا تعرف أن هناك كائنات تكذب . لم تختبر
الكذب ولا الحيلة من قبل ولم تعرفها . والحية كانت « أحيلى حيوانات البرية »
تعرف كيف تكذب ، وكيف تسبك العثرة فى مكر . وهكذا لعدم تكافؤ الكفتين
أمكنها أن تعثر حواء... وكانت حواء بالنسبة إلى الحية ، هى « أحد هؤلاء
الصغار » .

هكذا إعتار الأطفال أيضاً ...

إنهم فى سن يصدقون فيه كل شىء ، ويقلدون كل شىء ، حتى الحركات
والملامح ، ويرددون الألفاظ التى يسمعونها ، بلا فهم . هم عجينة سهلة ، يمكن
تشكيلها بسهولة . لذلك حرام جداً أن يفسدهم أحد . ما أخطر العثرة التى يتلقونها
من آبائهم ، ومن إخوتهم ، ومن الجيران والمدرسين والأهل ، ومن وسائل الإعلام
المتنوعة... إن التعامل معهم ينبغى أن يكون بحرص شديد ، كأجهزة حساسة...

لذلك إبعد عن كل عثرة ، وبخاصة للبسطاء وللصغار .

إحذر كل الحذر أن تتعب أفكار البسطاء . تصور إنساناً بسيطاً بساطة الأطفال ،
لم يتفتح قلبه للشر . يأتى إنسان أكبر منه عقلاً وأكثر منه خبرة ، فيفتح عينيه على

عشرات، ويدخل في ذهنه أفكاراً من الصعب خروجها منه. فيلوث فكره، ويفقده بساطته، ويشككه، ويعثره ويسقطه... ألا يحمل دينوته؟
الذي يعثر صغيراً، يكون كالذى يحارب من لا سلاح له.

وقد تؤخذ كلمة (صفار) بمعناها النسبي وليس المطلق .
أى من هو أصغر منك في المعرفة وفي الإرادة وفي المركز، ويمكنك إسقاطه. حقاً ما أخطر هذا الأمر، فما هي خطورته إذن؟ إننا نوضحها في سببين:

١ - شعور الإنسان بأن هذا الشخص كان بريئاً . ولولا الذى أسقطه، وأفسد فكره وشعوره، ما كان قد سقط...

٢ - ماذا يحدث لو أن هذا الذى أسقط غيره قد تاب ، بينما الذى سقط بسببه لم يتب؟ هل يستريح ضميره في توبته؟ وهو يرى من قد هلك بسببه؟
لذلك إحترس جداً من أن تعثر غيرك ...

إن توبتك في يديك ، تستطيع أن تتوب إن رجع قلبك إلى الله . ولكن توبة هذا الذى أعثرته ، ليست في يديك . فإن استمر في خطيئته التى سقط فيها بسببك ، وهلكت نفسه ... هل تؤخذ نفسك عوضاً عن نفسه؟
وحتى إن غفر الله لك بالتوبة ، ألا يبقى في قلبك ألم مرير، وأنت ترى من قد هلك بواسطتك، مهما خلصت أنت؟!
هذا إذا كنت أنت سبب العثرة ، أما إن كانت العثرات تأتيك من آخرين ، فنصيحتي لك :

إبعد عن العثرات . واهرب من كل أسباب الخطية .
تذكر قول الملاك للوط « إهرب لحياتك ... ولا تقف في كل الدائرة... لئلا تهلك » (تك ١٩ : ١٧) . واذكر أيضاً أن هروب يوسف الصديق من العثرة التى ألحت عليه ، كان هو السبب في عدم سقوطه في الخطية . كذلك الرب لما اختار أبانا إبرآم ، وأراد أن يكون به شعباً مقدساً ، أبعدته عن العثرات ، بأن أخرجته من أرضه وعشيرته (تك ١٢ : ١) .

بهربك من الخطية وعثراتها ، تدل على رفضك لها .

فالمهروب من العثرات فضيلة ، لأنه يدل على أن القلب من الداخل لا يريد الخطية . لذلك إحترس من أن تظن المهروب ضعفاً . فليس من الحكمة أن يفتر الإنسان بقوته ، ويعرض نفسه للتجارب ، ويدخل نفسه في حروب ربما تتعبه . إذن لا تصف الإبتعاد عن العثرات بأنه ضعف ، بل قل إنه صيانة . وقد نصح الآباء بالبعد عن «مادة الخطية» . وقالوا في ذلك :

إن القريب من مادة الخطية ، تصادفه حربان ، من الداخل ومن الخارج . أما المبتعد عنها فله حرب واحدة .

وليس الآباء فقط هم الذين ينصحون بالمهروب من العثرات ، بل الكتاب المقدس نفسه يقول «وأما الشهوات الشبابية فاهرب منها» (٢ تي ٢ : ٢٢) . ويعلل ذلك بأن «المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة» (١ كو ١٥ : ٣٣) . والمزمور الأول واضح في قوله «طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار، وفى طريق الخطاة لم يقف، وفى مجلس المستهزئين لم يجلس» (مز ١ : ١) . لأن صحبتهم كلها عثرات ...

بل حتى السيد المسيح نفسه يقول :

إن كانت عينك اليمنى تعثرك ، فاقطعها والقها عنك .

... وإن كانت يدك اليمنى تعثرك ، فاقطعها والقها عنك (متى ٥ : ٢٩ ، ٣٠) . قال ذلك فى العظة على الجبل . وكرر نفس الكلام فى مناسبة أخرى (متى ١٨ : ٩، ٨) .

وهذا التكرار يدل على اهتمام الرب بهذه النقطة بالذات ، أى البعد عن

العثرات . وليس شرطاً أن يؤخذ كلام الرب هذا بطريقة حرفية ، إنما يمكن :

تفسير هذه الآيات بمعنى روحى ، غير حرفى .

أى أنه : إن أتتكَ العثرة من أعز إنسان لديك ، الذى هو كعينك . أو إن أتت العثرة من أكثر إنسان يساعدك ، كيدك اليمنى ، فابتعد عنه ... أو يمكن تفسير الآية بمعنى أنه إن أتتكَ العثرة من داخل نفسك وليس من الخارج ، فابتعد عنها بكل حزم ، حسب وصية المسيح ، ولو أدى الأمر إلى استشهادك ...

◉ من أين تأتي العثرة :

قد تكون العثرة داخلية ، من داخل الإنسان .

« من كنز قلبه الشرير تخرج الشرور » (لو ١٦ : ٤٥) . فنه تصعد شهوات وأفكار تزعجه . قد تكون العثرة من حواسه التي تجمع له مناظر وأحاديث تتعبه . قد تكون من رغباته ومسلياته وهواياته ، ومن أفكاره وأحاسيسه ، وما خزنه لنفسه في عقله الباطن من صور وأخبار وأفكار... لذلك فهو يبعثر نفسه . وإن لم تأت شهوة من الخارج ، يجلبها لنفسه من الداخل ، بتصرفه الخاص . حقاً « إن أعداء الإنسان أهل بيته » (متى ١٠ : ٣٦) . وبيته هو قلبه وفكره...
إن كنت هكذا ، فحاول أن تضبط نفسك ، كما قال الرسول « مستأسرين كل فكر لطاعة المسيح » (٢ كو ١٠ : ٥) .

وهناك عشرات من الخارج : من البشر ومن الشياطين :

وفي الخطية الأولى للبشرية ، يوجد النوعان معاً : وهما عشرة الشيطان لحواء ، وعشرة حواء لآدم . والشيطان قد يعثر الناس بطريقة مباشرة ، وقد يعثرهم عن طريق البشر ، عن طريق خدامه الذين « يغيرون شكلهم كخدام للبر » (٢ كو ١١ : ١٥) .

وهناك عشرات من الشياطين ، كالرؤى والأحلام الكاذبة :

فالشيطان كما يقول الكتاب قد « يغير شكله إلى شبه ملاك نور » (٢ كو ١١ : ١٤) . ومعروفة القصة التي وردت في البستان ، التي ظهر فيها الشيطان بهيئة ملاك لراهب قديس ، وقال له « أنا جبرائيل الملاك أرسلني الله إليك » . فأجابه الراهب في اتضاع « لعلك أرسلت إلى غيري وأخطأت الطريق . أما أنا فإنسان خاطيء لا أستحق أن يظهر لي ملاك » . فتركه الشيطان ومضى...

وقد يظهر شيطان كروح من أرواح البشر المنتقلين :

يقول أنا روح فلان (أحد أقربائك أو معارفك) ، ويغير بأشياء تتعلق بهذا الإنسان أو بيته أو أهله ، حتى يصدقه من رأوه . وقد يظهر في صورة أحد القديسين أو السواح ، حتى يخدع الناس .

وقد يظهر الشيطان في حلم .

وهناك أحلام كثيرة من الشيطان ، كما قال القديس الأنبا أنطونيوس عن خبر معين «جاء الشياطين في حلم وأخبروني» . لذلك نصيحتي لك : لا تصدق الأحلام ، ولا تجعلها تقودك في حياتك . فليست كل الأحلام من الله ، كأحلام دانيال ويوسف الصديق ويوسف النجار ، إنما هناك أحلام من الشيطان ليُعثر بها الناس ، وهناك رؤى من الشيطان .

وأيضاً لا تتبع الأرواح ، فقد أضلت كثيرين ...

والكتاب يقول « لا تصدقوا كل روح بل إمتحنوا الأرواح هل هي من الله ، لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم » (١ يو ٤ : ١) . هؤلاء مرسلون من الشيطان ، وكذلك المسحاء الكذبة ، والمسيح الدجال في آخر الزمان ، ضد المسيح الذي قال عنه الرسول « ...مجيئه بعمل الشيطان ، بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة ، وبكل خديعة الإثم في الهالكين » (٢ تس ٢ : ٩) .

كذلك ميّز أفكار الشيطان وحيله ...

فقد يحارب بالفكر ، وليس فقط بالرؤى والأحلام والأرواح . أما أنت فلا تصدقه ، كما يقول الرسول « لئلا يطمع فينا الشيطان ، لأننا لا نجهل أفكاره » (٢ كو ٢ : ١١) . لذلك لا تتبع كل فكر يأتي إليك ، ظاناً أنه من روح الله ! ولا تقل في جرأة « الروح قال لي » . واصبر على الأفكار ، لتعرف هل هي من الله أم لا . واستشر .

إن القديس مقاريوس الكبير جاءه فكر أن يزور الآباء السواح في البرية الجوانية ، وهو فكر مقدس كما يبدو . ولكن القديس مقاريوس قال في ذلك « فبقيت مقاتلاً هذا الفكر ثلاث سنوات لأرى هل هذا الفكر من الله أم لا » ... إذن لا تسرع وراء الأفكار لتنفيذها ...

إن الشيطان قدم للمسيح ثلاثة أفكار ...

ولكنه رفضها جميعاً ، ولم يقبل شيئاً منها ، ورة عليها .
فارفض أنت أيضاً كل فكر يأتيك من الشيطان . وتذكر ما قيل على لسانك في المعمودية « أجدك أيها الشيطان ، وكل أفكارك الردية ... وكل جنودك ... وكل بقية نفاقك » .

أرفض كل فكر لا ينميك روحياً ولا يبنيك ، سواء جاءك من الشيطان أو من الناس .

وكما تهرب من عثرات الشيطان ، إهرب من عثرات الناس .
وعثرات الناس منها نوع عام قد يشمل المجتمع كله . ومنها نوع خاص بك أنت بالذات من جهة الأشخاص الذين تختلط بهم ، سواء كانت عثرتهم لك ولغيرك ، أو لك وحدك . سواء كانوا أعداء أو أصدقاء .

فالعشرة قد تأتي من أعز الأقرباء والأحباء .

وغالبية الشبان الذين يفسدون ، إنما يأتيهم الفساد من أصدقائهم الأعداء جداً الذين لهم تأثير عليهم . وشمشون أخته العشرة من دليلة ، وكانت أحب إنسان إلى قلبه . كما أن آحاب الملك أخته العشرة من زوجته إيزابل . ولا ننسى أن أبانا آدم أخته العشرة من حواء . وما أكثر الأطفال في البيوت الذين تأتيهم العشرة من والديهم إن كان البيت غير متدين- فيسمعون في البيت الشتائم وكلام الشجار . ويأخذون عن الوالدين كل الطباع والعادات الخاطئة .

ويعقوب أبو الآباء أخته العشرة من أمه رقيقة .

هى التى أوعزت إليه أن يتنكر فى زى أخيه عيسو ، ويخدع أباه إسحق ، ويأخذ البركة منه . وهى التى وضعت الخطة كلها ودبرت كل شىء . ولماخاف يعقوب من هذه الخديعة وإمكانية إنكشافها قائلاً « فأجلب على نفسى لعنة لا بركة » . قالت له أمه « لعنتك علىّ يا إبني . إسمع لقولى فقط ... » (تك ٢٧ : ٨-١٣) .

وما أسهل أن تأتي العشرة لأبنة من أمها . الأم التى تتلف حياة إبنتها بعد زواجها ، وتعمل على خراب بيتها ، بالتدخل وفرض رأيها عليها وعلى زوجها .

السيد المسيح جاءته عشرة من تلميذه بطرس ، فوبخه .

والمقصود بهذه العشرة نصيحة خاطئة . إذ فيما كان السيد يشرح لتلاميذه إنه ينبغي له أن يذهب إلى أورشليم « ويتألم كثيراً من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ، ويقتل وفى اليوم الثالث يقوم » ... لم يعجبه بطرس أن معلمه العظيم يسلم نفسه ... « فأخذه بطرس إليه ... وقال له فى حبة خاطئة « حاشاك يارب . لا يكون لك هذا » . فالتفت الرب إليه وقال « إذهب عنى يا شيطان . أنت معثرة لى ... »

(متى ١٦ : ٢١ - ٢٣) . وهكذا رفض المسيح هذه العثرة من تلميذه وصديقه ...

ينبغي أن ترفض العثرات التي تأتيك من أحبائك .

حتى لو كانت تلك العثرة من أقرب أقربائك . فقد قال السيد المسيح «... أعداء الإنسان أهل بيته . من أحب أباً أو أمّاً أكثر منى فلا يستحقنى . ومن أحب إبناً أو إبنة أكثر منى ، فلا يستحقنى » (متى ١٠ : ٣٦ ، ٣٧) . إن الحب هو أولاً لله ، ومن محبته تنبع كل محبة . والطاعة هى أولاً لله ، ومن طاعته تنبع كل طاعة . حتى طاعة الآباء قال عنها الكتاب «أيها الأولاد أطيعوا والديكم فى الرب فإن هذا حق» (أف ٦ : ١) . هى إذن طاعة لازمة ، ولكن «فى الرب» .

ولذلك يونانان لم يطع والده شاول فى اضطهاده لداود .

بل وبخه على ذلك بقوله «لماذا تخطيء إلى دم برىء بقتل داود بلا سبب» (١صم ١٩ : ٥) . كان شاول الملك عشرة لابنه يونانان . ولكن يونانان انتصر على هذه العثرة . وكذلك سليمان الملك مع احترامه الشديد لوالديه بشبع ، لم يطعها فى وساطتها لأدونيا أخيه» (١مل ٢ : ١٩ - ٢٣) .

من حدود الطاعة ، أنه لا تكون فيها عثرة .

من عشرتك مع الناس ، ومن خبراتك فى الحياة ، أصبحت تدرك تماماً من أين تأتيك العثرة وبسبب من ، فاستفد من هذه الخبرة فى أن تحيط نفسك بجزوق على قدر إمكانك . والذين لا تستطيع أن تبعد عنهم جسدياً ، إبعدهم من جهة الفكر ومنهج الحياة . وكما قال الكتاب «لا تشتركوا فى أعمال الظلمة غير المشمرة ، بل بالحرى بكتوها» (أف ٥ : ١١) . فإن لم تستطع أن تبكتها ، فعلى الأقل لا تسرف فى تيارها ، ولا تخضع للعترة .

واحرص أنت نفسك ألا تكون عثرة لغيرك .

حتى لا تقع فى مسئولية أمام ضميرك وأمام الله ، وربما أمام الناس ، إنك تسببت فى سقوط أحد...

◎ مسئولة العثرة :

شاب أعر من فتاة ، وقع في الشهوة . فما مسئوليتها .
الإجابة هي : إن كانت هذه الفتاة في كامل أديها ، وهي جميلة بطبيعتها ،
وجالها كان السبب في عثرة هذا الشاب ، فلا لوم عليها إطلاقاً ، ولا مسئولية عليها
في العثرة .

فهناك قديسات ، بسبب جمالهن ، أعر البعض .
ولعله من أبرز الأمثلة على ذلك ، القديسة يوستيجة التي كانت جميلة جداً . وقد
وقع إنسان في محبتها ، ولم يستطع أن يستحوذ عليها ، فاستخدم السحر في الوصول إلى
ذلك . وكان مجرد ذكر إسمها يطرد الشياطين المستخدمة في السحر ، حتى آمن
الساحر كبريانوس بسبب ذلك ، وصار من قديسي الكنيسة ... أنستطيع أن نقول إن
القديسة يوستينية عليها مسئولية في العثرة !؟

كلا بلا شك ، وإنما هنا :

المسئولية كاملة على من اشتهاها . والعترة بسبب شهوته .

وبنفس الوضع يمكننا أن نتكلم عن القديسة سارة زوجة أبينا إبراهيم . كانت
جميلة جداً . وكان جالها يجذب الملوك ، حتى أخذها فرعون إلى قصره مرة (تك ١٢ :
١٤ ، ١٥) . وأخذها أبيمالك ملك جرار مرة أخرى (تك ٢٠ : ٢) . ولم يكن لها
ذنب في المرتين كلتيهما . لا ذنب لها طبعاً في إنها جميلة . إنما الذنب كله على من
يشتهى ...

إذن متى تكون المرأة مسئولة في العثرة ؟

تكون كذلك إن قصدت أن تغرى الرجل وتجذب به إليها بطريقة فيها لون من
الإشارة . أو إن سقط الرجل بسبب سلوكها ، أو بسبب حديثها أو بسبب إغرائها .
أو إن كانت في زيتنها أو في ملابسها سبب عثرة فعلاً بالنسبة إلى الإنسان العادي .
وكذلك تكون الفتاة مسئولة إن عملت على إغراء الشاب ، إما بلاء قلبه
بشهوة تجعله يرتكب الخطية بالحواس أو بالعمل . أو أن تعثره بطريقة تشغل
فكره ، فيهمل مسئولياته ويضيع روحياته .

أما إن كان كل السبب في عشرة الفتاة هو جمالها الطبيعي ، فلا ذنب عليها .
نقول هذا حتى لا تتشكك بعض الفتيات الطاهرات ، ويقعن في الوسوسة وفي عقدة
الذنب بسبب جمالهن .

وما يقال على المرأة في ذلك ، يمكن أن يقال على الرجل .
والأفما ذنب كل هؤلاء ؟

ما ذنب يوسف الصديق في أن امرأة فوطيفار وقعت في الشهوة بسببه ، لأنه كان
جيبلاً ؟ هل نستطيع أن نقول إنه أعثرها ؟! أو أن ضميره يتعبه إذ وقعت في الشهوة
بسببه ؟ كلا ، بلا شك .

وبنفس المنطق ، ما ذنب الملاكين اللذين وقع أهل سدوم في شهوة الجسد
بسببها ، وهما كملاكين ما كان لهما جسد ، بالإضافة إلى أن لهما طهر الملائكة... !
إنما العثرة هنا ، في القلب الفاسد الذي انتهى .

ونفس الكلام يمكن أن يقال عن زكريا الراهب الشاب الصغير الذي حدثت
عشرة بسبب جمال صورته . وقد رويت قصته في بستان الرهبان . واضطر أن ينزل
إلى بحيرة الملح ويشوه جسمه وشكله ، ليبعد العثرة التي تسببت من أخطاء غيره...

أما الذين يريدون أن يهربوا من مسئولية أخطائهم .
وذلك بأن يلصقوها ظلماً بغيرهم ، قائلين إنه قد أعثرهم على الرغم من براءته ،
فهؤلاء ينطبق عليهم قول الشاعر :

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

ما أجل كلام السيد الرب عن العين البسيطة ...
لقد قال « إن كانت عينك بسيطة ، فجسدك كله يكون نيراً . وإن كانت
عينك شريرة ، فجسدك كله يكون مظلماً » (متى ٥ : ٢٢ ، ٢٣) . وكثيرون
يعثرون ، لأن عيونهم ليست بسيطة... عيونهم فيها الخطيئة ، لذلك كل شيء يمكن أن
يثير الخطيئة فيهم .

فليت كل أحد يدرّب نفسه على هذه العين البسيطة .

وكما تكلمنا عن مدى مسئولية الفتاة في إغثار الشاب ، نقول :

هناك مسئولية أيضاً على الشاب في إعتار الفتاة .

فقد يعثرها الشاب بكثرة المديح والكلام الممسول ، وبالود الذي يظهره لها في تلمظ زائد غير عادى . أو يعثرها بكثرة إلحاحه عليها ، ومطاردتها بشدة حتى تضعف وتُحرج وتستجيب له . كما يعثرها بالوعود التي يعطيها لها ، والتي يؤكد لها مراراً ، فتصدقها ... وهكذا يعلقها ويتعبها ... ولكنها إن أعثرت من مجرد شخصيته ، فلا ذنب له في ذلك .

أما أنت فابعد عن المعثرات من كلا النوعين :

أ - إبعد عن العثرة المثيرة فعلاً ، التي يوجد فيها نوع من الإغواء أو الإغراء ، والتي على صاحبها مسئولية في إسقاط الآخرين . وحاول على قدر إمكانك أن تكون عينك بسيطة .

ب - وابعده أيضاً حتى عن المجالات البريئة بطبيعتها ، ولكنها تسبب لك عثرة بسبب ضعفك أنت . وقل لنفسك في انضاع : أنا لا أريد هنا أن أبحث عن المسئولية أين أضعها ، هل هي بسبب غيرى أم بسببى ... وإنما : سأبعد حتى لا أسقط ، ولو بسبب ضعفى ... حتى لو كان غيرى بريئاً تمام البراءة ، كبراءة الذئب من دم ابن يعقوب ! أو كبراءة ابن يعقوب من خطية امرأة فوطيفار...

ونفس الكلام نقوله عن باقى أنواع العثرات .

وتقصده العثرات الأخرى ، خارج نطاق الأمور الجنسية .

كأن يفهمك إنسان بطريقة خاطئة ، بينما يكون كلامك واضحاً جداً ، ولا يعنى إطلاقاً ما قد فهمه ... ! أو أن يقول لك أحدهم « أنت تقصدنى بهذا الكلام » ، بينما تكون بريئاً جداً ، ولا تقصده ، إنما هو ظنونه وشكوكه وشعوره الداخلى بالخطأ ... ونقول إنه في كل ذلك :

ليست العثرة من المتكلم ، إنما هي مسئولية الفهم الخاطيء .

ومع ذلك عليك من أجل المحبة ، أن توضح قصدك السليم ، وتشرح ما التبس على غيرك فهمه . وأن تحترس في كلامك حتى لا يفهم خطأ . ومع ذلك إبعد عن العثرات . وكن حريصاً جداً في الكلام وفي التصرف ، وخصوصاً حيثما يوجد بعض

الموسمين الذين يفهمون الكلام بطريقتهم الخاصة...

هناك نوع من الناس ، يقول الواحد منهم باستمرار :

أنا تعقدت من تصرفات الناس ! أنا تعقدت من كلامهم !

ويقصد أنه قد أعتز منهم ومن كلامهم ... وسواء كان هذا الكلام صحيحاً أو مبالغاً فيه . سواء كانت هناك عقد داخلية ، أو التعقيد في تصرفات الناس . فالسيد المسيح قد قال لنا « لا بد أن تأتي العثرات » (متى ١٨ : ٧) . ذلك لأننا لا نعيش في عالم مثالي ، وإنما في عالم مملوء بالعثرات . فيه الخنطة ، وفيه أيضاً الزوان . وسيبقى الزوان مع الخنطة إلى يوم الحصاد (متى ١٣ : ٣٠) . فاهو موقفنا إذن ؟ الموقف السليم هو أن :

لا نبحث على من تقع مسئولية العثرة ، وإنما نبحث عن الخلاص منها .

والخلاص منها ، هو في الهروب من العثرات ، وليس في فحص المسئولية فيها .
فأسهل أن يوقعنا هذا الفحص في أخطاء أخرى .
ولكن لا يجوز أن نقول إننا تعقدنا من عثرات الناس .

فلا يصح أن تفقدنا العثرات نقاوتنا الداخلية .

ولا يصح أن تفقدنا العثرات سلامنا القلبي . نحن لسنا في السماء ، ولكننا على الأرض . والأرض لا بد توجد فيها أخطاء . والمهم هو أننا ننجو من هذه الأخطاء . ولا ننجو منها بالتذمر والشكوى . ولا ننجو منها إن كنا نتعقد منها . وإنما ننجو من العثرات ، بنقاوة القلب ، وبعدم الإستجابة لها . وفي نفس الوقت لا نعتز أحداً .

وإن كنا أقوياء من الداخل ، لا تضرنا العثرات بشيء .

بل نكون كالبيت المبنى على الصخر ، الذي صادمته الأمطار والعواصف ، فلم تؤذه بشيء (متى ٧ : ٢٥) .

إن المسئولية ليست كاملة في كل الحالات على الذي تأتي منه العثرة .

فهناك التجاوب من الطرف الآخر ، ولولاه ما تمت السقطة .

قد يقول الكحول (السبرتو) إن عود الكبريت أعثرتني فاحترقت . ولكني

أقول :

لولا أن السبرتو مادة قابلة للإشتعال ، ما كان يعثره عود الكبريت .

هكذا عود الكبريت قائم كما هو، وكوب الماء لا يعثر منه، بل إنه إذا اقترب من كوب الماء ينطفئ .

وعلى كليل، سواء كنت ماءً أو كحولاً، فالهروب بالنسبة إليك أضمن .
الهروب على الأقل فيه اتضاع، والاتضاع يخلص كثيرين . فقد أبصر القديس الأنبا أنطونيوس فخاخ الشيطان منصوبة، فصرخ « يارب، من يفلت منها؟ » فأتاه الصوت « المتضعون يفلتون منها » .

العثرة خطوة أولى . إن وقعت فيها، فلا تكمل باقي الخطوات .

ووجود العثرة ليس عذراً لك، ولا تبريراً لأخطائك .

لأن الله وضع فيك روحه القدوس، ومنحك قوة للمقاومة . فإن استجيت للعثرة، تكون قد خسرت هذه القوة الإلهية ولم تستخدمها . إن الانتصار ممكن أمامك . تذكر يوسف الصديق الذي كان أقوى من العثرة وانتصر، على الرغم من شدة الحرب التي تعرض لها .

العثرة مجرد عرض . فإن لم يصادف قبولاً، إنتهى أمره .

⑤ أنواع العثرات :

يركز كثيرون الكلام في العثرة على الأمور الجنسية .

وهي حقاً هامة وخطيرة، ولكنها ليست كل شيء .

والعثرات في هذا المجال تأتي بطرق كثيرة من وسائل الإثارة الجنسية، سواء عن طريق الإغراء الذي يقوم به الأفراد، أو عن طريق وسائل اللهو المختلفة ووسائل الترفيه، بالصور المعثرة، والأغاني العابثة، والفكاهات الجنسية، أو عن طريق القصص البطالة التي تسمع وتقرأ، وكذلك الروايات والأفلام . وقد تأتي العثرة عن طريق الخلطة، والمعاشرات الرديئة . وقد تأتي من داخل النفس ...

أما أنت فابتعد عن كل العثرات، واضبط حواسك .

واعلم أن « الحواس هي أبواب للفكر » كما قال مار اسحق . وما تراه وما تسمعه قد يجلب لك أفكاراً خاطئة، ويكون معشراً لك . والفكر قد يلد شهوة . والشهوة تقود إلى خطية فعلية .

ولكن لعلك تسأل : ماذا أفعل ؟ هل أغمض عيني ، والعثرة في كل مكان؟! ولا بد أنني سأرى وسأسمع... فأقول لك إنك لست مسئولاً عن النظرة الأولى ، مادامت قد أتت عرضاً .

ولكنك مسئول عن النظرة الثانية ودوافعها .

إن كان المنظر المعثر رأيته قد أثارك أو أعجبك ، فأعدت النظر إليه بإرادتك ، سواء في صورة حية ، أو صورة مطبوعة ، فأنت هنا تكون قد أخطأت لأنك بإرادتك الحرة قد نظرت . فإن كانت النظرة الأولى كذلك ، برغبتك وإرادتك ، فأنت مسئول عنها أيضاً ...

ونفس الوضع نقوله عن السماعات الخاطئة . إهرب منها . فإذا إن لم تستطع ؟

إن اضطررت لسماعها ، فلا تعطها عمقك ، ولا فكرك .

ليكن سماعاً عابراً ، لا تدخله إلى أعماقك ، ولا تفكر فيه ، ولا تعيده إلى ذهنك ، ولا تعلق عليه . وكما قال الشاعر:

إذا بليت بشخص لا خلاق له فكن كأنك لم تسمع ولم يقل

وبقدر إمكانك إهرب من اللقاءات المعثرة .

فإن اضطررت إلى هذا ، إجعلها قصيرة المدى على قدر استطاعتك . كذلك لا تنفرد مع شخص يقا تلك به العدو ، وتضعف من الداخل في وجودك معه . وحاول في أمثال هذه اللقاءات ، أن ترفع قلبك إلى الله وتصلي . ولا تكن في اللقاء بكل قلبك وعواطفك ...

هذه كلمة مختصرة عن العثرات الجنسية ، وهي موضوع طويل وُضعت فيه كتب ، وليس الآن مجاله . إنما نحب أن نقول هنا ، إن العثرات ليست جميعها جنسية .

فهناك عثرات الفكر مثلاً ، وهي على أنواع :

منها الفلاسفات الخاطئة التي قد تقرأها فتشوش أفكارك ، وقد تجلب لك شكوكاً ، إذا كنت تقرأ وأنت غير مستعد لها مسبقاً بفكر أصيل سليم . ويلزمك الحرص فيما تقرأ .

وتوجد الكتابات الإلحادية ، والتي تهاجم الدين .

والملحدون كثيرون . وكل ما يكتبونه توجد ردود عليه ، ولكنهم يشكلون عشرة بالنسبة إلى غير الدارسين وغير العارفين ، تسبب لهم شكوكاً هي أخطر عليهم من خطايا الجسد التي يسهل التخلص منها .

والمضلون في الفكر الديني كثيرون ومعشرون .

كان يربعام بن نباط عشرة لإسرائيل إذ جعله يخطفى ، وينحرف عن عبادة الله (١ مل ١٤ : ١٦) . وقد كان من مضلل الشعب قبيل مجيء المسيح : يهوذا الجليلي في أيام الإكتتاب الذي أزاغ وراءه جمعاً غفيراً... وثوداس الذى التصق به حوالى أربعمائة (أع ٥ : ٣٦ ، ٣٧) . كذلك في أيام المسيح كان الكتبة والفريسيون والصدوقيون وأمثالهم مضللين للشعب . وكانوا عشرة كبيرة . أمسكوا مفاتيح المعرفة ، فما دخلوا وما جعلوا الداخلين يدخلون . لقد أعتروا الشعب كله بتعاليمهم .

ومن العثرات الفكرية ، الأفكار العقيدية المنحرفة .

الأفكار التي تشمل بدعة أو هرطقة ، أو فكراً لاهوتياً غير المسلم لنا من الآباء القديسين ، ولا يتفق مع العقيدة السائدة في الكنيسة والتي يؤمن بها الكل . وهذا الفكر قد يعثر الناس ، ويشير فيهم شكوكاً .

فلا تقبل هذه الأفكار كما قال الآباء الرسل (غل ١ : ٧ ، ٨ ، ٣ يو ١٠ ، ١١) .

إهرب من هذه العثرات الفكرية ، فأنت في زمان التوبة .

أنت إنسان تبحث عن خلاص نفسك . فاشأك بهذه الأفكار التي تشوش على ذهنك ، وتدخلك في مجالات من الجدل وربما في خصومات ، لا تتفق مع سميك إلى نقاوة القلب بالتوبة . أتركها إلى المتخصصين يردون عليها . واعكف أنت على الكتب الروحية التي كلما قرأها ، تزداد محبتك لله ، وتشعر باقتراب قلبك إليه ...

وكما تهرب من العثرات الفكرية العقيدية ، إهرب من كل عثرات فكرية أخرى مثل :

عثرات الفكر التي تجعلك تعثر في الناس وتدينهم .

فهناك أشخاص إذا أتعبتهم أفكار الإدانة أو أخبار الإدانة ، يصوبونها جميعها في

آذان الآخرين ، ولا يبالون إن كانت تعثرهم هذه الأخبار أم لا ، ولا يبالون بما تدخله في قلوبهم من جهة الشك في الناس ، أو إدانتهم والإقلال من شأنهم ، أو عدم المحبة لهم ... أما أنت فاهرب من كل هذه ، وحاول أن تحتفظ بمحبتك للكل ... والذين يشوهون صور الناس في نظرك ، إبعد عنهم ، تحتفظ بنقاوة فكريك .

وهناك عشرات من الذين يحكون أسرارهم للناس .

هم لا يستطيعون أن يحفظوا سراً ، حتى أسرارهم الخاصة وخطاياهم يحكونها للناس . وقد يعثر السامع من سماع هذه الأسرار والأخبار . ويعثر من أسماء الناس الذين تتعلق بها تلك الحكايات ، وربما يقع في خطايا بسببها ... ومع أن الكنيسة حرصت أن تجعل الاعتراف سراً ، إلا أن الناس مازالوا يحكون لغيرهم ... وتكون حكاياتهم عشرة ...

ومن العثرات الفكرية أيضاً ، المشورات الخاطئة والمضرة .

وكمثال لذلك « مشورة أختيوفل » . وكان أختيوفل هو مشير داود ، تركه وانضم إلى فتنة أبشالوم ، ليقدم له مشورة يهلك بها داود مسيح الرب وكل من هم معه . وكان داود يصلح قائلاً « حَمِّق يارب مشورة أختيوفل » (٢ صم ١٥ : ٣١) . ولا شك أن مشورة أختيوفل كانت عشرة لأبشالوم ، وتشجيعاً له في الثورة على أبيه داود ... ولكن الرب سمع لصلاة داود وأبطل مشورة أختيوفل ...

ومن أمثال مشورة أختيوفل المعثرة مشورة بلعام لبالاق (عدد ٢٢) .

وقد أطلق عليها الكتاب إسم « ضلالة بلعام » (يه ١١) . وقال عنه سفر الرؤيا انه « كان يعلم بالاق أن يلقى معثرة أمام بني إسرائيل أن يأكلوا ما ذبح للأصنام ويزنوا » (رؤ ٢ : ١٤) . وذلك لكي يحل عليهم غضب الله ، فينتصر عليهم عدوه ... ولا شك أنها كانت مشورة معثرة وشريرة .

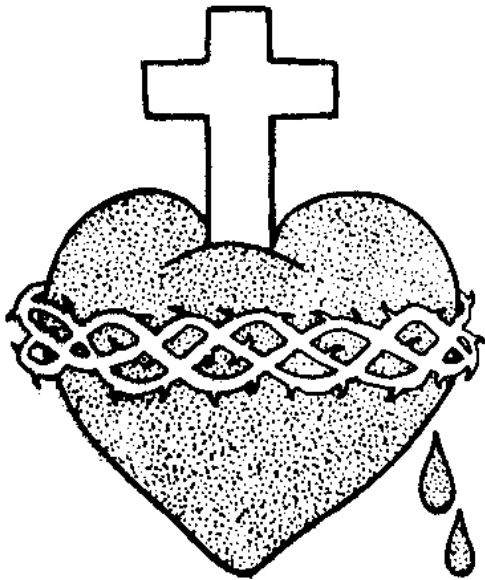
فتخبر أنت مشيريك ، وابعده عن كل مشورة معثرة .

سواء صدرت ممن تستشيرهم ، أو ممن يتطوعون لنصحك في حياتك . وقد يقدمون لك نصائح لا ترضى الله . وربما تأخذ صورة الإشفاق عليك ، بينما لا يكون إشفاقهم روحياً ...

ومن العثرات التي يتعرض لها البعض ، القدوات السيئة .
 فلا تجعل هذا الأمر يعثرك ، مهما كان الشخص الذي أعثرت بتصرفاته كبيراً .
 ولا يغير هذا من مبادئك شيئاً ، ولا من حبك لله وكنيسته . وتذكر أنه قيل عن إيليا
 النبي العظيم «إيليا كان إنساناً تحت الآلام مثلنا» (يع ٥ : ١٧) .
 ولتكن قدوتك الثابتة في السيد المسيح وسير القديسين . أما أخطاء الناس مهما
 كبروا فلا تجعلها تعثرك . فالخير هو الخير مهما بعد البعض عنه ... والكتاب المقدس
 ذكر لنا خطايا الأنبياء ، لنعلم أن الإنسان هو الإنسان بضعفاته أياً كان مركزه .

أما العثرات الخاصة في حياتك ، فافحصها واعرف أسبابها وابعدها عنها .
 لأن التوبة لا تتفق والعثرات .

إبحث عن الأسباب التي تعثرك وتقودك إلى الخطية ، ما هي ؟ وهل هي قريبة
 منك ؟ وكيف تبعد عنها ؟ وهل هي داخل نفسك أم تأتيك من آخرين .
 وابعدها عن هذه العثرات على قدر إمكانك حتى لا تؤثر عليك . واهرب من
 الأصدقاء الذين يجرونك إلى أسفل ويفقدونك روحياتك . وردد ما نقوله باستمرار في
 الصلاة الربية «لا تدخلنا في تجربة ، لكن نجنا من الشرير» ...



لا تتساهل مع الخطية

كثيراً ما يسقط الإنسان في الخطية ، بسبب التساهل . فكيف ذلك ؟
المعروف أن الخطية تبدأ بحرب من الخارج ، وتريد أن تدخل وتسيطر .
وبالتساهل تتحول الحرب من الخارج إلى داخل القلب .

فكيف يحدث هذا التطور ؟ وما دور التساهل فيه ؟

تكون الخطية في الخارج : منظراً مثيراً ، أو صورة في كتاب ، أو كلمة يقولها
شخص ما ، أو أى شيء يمكن اشتاؤه أو اقتناؤه . ثم يتساهل الإنسان مع حواسه ،
مع سمعه أو بصره ، فيأتيه الفكر ضعيفاً في البدء ، ويمكن طرده بسهولة . ولكن :

بالتساهل مع الفكر ، ينزل إلى القلب ، ويتحول إلى شعور .

فإن استيقظ الإنسان إلى نفسه ، يمكنه التخلص من هذا الشعور ، موقناً تماماً
أن هذا الشعور الخاطيء يبعده عن محبة الله ، ويقوده إلى خطية . بل هذا الشعور
الخاطيء هو خطية في حد ذاته ، وعدم نقاوة في الداخل ، وينجس القلب .

ولكن بالتساهل مع الشعور ، يتحول إلى إنفعال أو شهوة .

وهنا يكون الإنسان قد بدأ يخضع للفكر ، وبدأ يدخل في صراع داخلي ، بين
شهوته وضميره . ومن طبيعة الشهوة إنها تريد أن تسيطر . إن ظردت بحزم ، أمكن
التخلص منها . ولكن بالتساهل تبدأ الشهوة أن تنتشر ، أو يبدأ الإنفعال أن ينتشر .
حتى تشمل هذه الحرب الداخلية فكر الإنسان وقلبه وحواسه ، وربما جسده أيضاً .

وبالتساهل مع الشهوة ، تحاول أن تعبر عن ذاتها عملياً .

أى تحاول أن تشبع ذاتها بطريقة عملية . فإن تساهل في ذلك ، يتم العمل .
وتصبح الخطية خطية كاملة . ثم لا تستريح الخطية بهذا ، إنما تريد أن تتكرر . فإما
أن يتوب الإنسان بعد سقطته ، وإما أن تتكرر خطيته . ولكنه أحياناً :

بتساهل في عمل الخطية ، فتنحول إلى عادة أو طبع .

وهذا يخضع لسيطرتها ، ويصير عبداً لها ، يفعلها بغير إرادته أحياناً ، ولا يملك السيطرة على نفسه ... كمن يقع في الغضب تلقائياً ، ويشور دون أن يتحكم في نفسه . وكمن يخطيء في الكلام دون أن يتحكم في نفسه . وكمن يزني ، أو يجمع المال ، أو يستهزئ بغيره ... كل ذلك تلقائياً ، دون أن يراجع نفسه ، ويتحكم فيما تفعل ...

أما الأبرار ، فهم في منتهى الحزم ، لا يتساهلون مع أنفسهم .

لهم رقابة شديدة جداً على أنفسهم : رقابة على كل فكر ، على كل شعور . رقابة شديدة على حواسهم ، في حزم . ورقابة على كل كلمة تخرج من أفواههم ، وعلى كل تصرف ...

قلوبهم «جنة مغلقة ، عين مغلقة ، ينبوع مختوم» (نش ٤ : ١٢) . ولقلوبهم وأفكارهم وحواسهم أبواب حصينة ، عليها حراسة مشددة ، لا يستطيع أن يفلت منها أحد ، فرقابة الضمير ساهرة في حرس ، والنعمة تحفظها .

هذا الإنسان البار المحصن ، الساهر على خلاص نفسه ، يغني لها ويغني لحفظ الرب له ، ويقول «سبحي الرب يا اورشليم ...

لأنه قوى مغالقي أبوابك ، وبارك بنيك فيك ،

وجعل تخومك في سلام» (مز ١٤٧) .

فهل أنت هكذا ؟ أم أنت متساهل في حراستك لنفسك ؟ غير مدقق في غلق أبوابها ، بل تفتحها بين الحين والحين ، ظاناً أن العدو لا يقدر على هدم حصونك ... ؟

لا تتساهل إذن مع الخطية ، إعتماًداً على قوتك .

ثقة منك أن الشيطان لا يقدر عليك ، على الأقل في هذه النقطة بالذات . إنما خذ درساً من سقطات القديسين والأنبياء . واعلم أن الخطية «طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلها أقوياء» (أم ٧ : ٢٦) . فالذي لا يحترس ، ولا يبعد عن العشرات ، ولا يهرب لحياته ، ولا يطلب معونة الله ليلاً ونهاراً ، يمكن أن يسقط كما سقط من قبله أقوياء ...

واعلم أنك إن تساهلت مع الخطية ، يمكن أن تجرّك - دون أن تشعر - خطوة خطوة في السقوط ، وإلى الهلاك .

تأمل أية نتائج خطيرة تحدث لك ، كلما تتساهلت مع الخطيئة .
كلما تتساهل مع الخطيئة ، يقل احتراسك ، وتضعف إرادتك ، وتقل محبتك لله .
وتتغفر في الداخل وفي الخارج .

إنك تكون في ملء قوتك - حينما تبدأ الحرب الروحية- وفي ملء عمل النعمة
معك . ولكنك كلما تتساهل مع الخطيئة تضعف قوتك ، وتقل مقاومتك ، ويزداد تأثير
الخطيئة عليك ، وتزداد سيطرتها على تفكيرك وشعورك وإرادتك . إذ يكون فكر الخطيئة
قد ثبت أقدامه داخلك . وحينما تحاول أن تخرج من نطاقه ومن مجاله ، تجد عقبات ،
وتدخل في صراع ... وقد كنت تقوى عليه في بادئ الأمر...

بتساهلك تجد عدواً في داخلك يقاومك ويضغط عليك .
وباستمرار التساهل ، تجد قوتك قد فرغت ، واستسلمت . كقطعة من الحديد ،
وجدت نفسها في مجال من المغناطيس وتريد أن تخرج منه ولا تعرف . وأحياناً لا
تريد ، بل تجد نفسها بكل ما فيها منجذبة إليه ...

في تساهلك مع الخطيئة ، تحزن الروح الساكن فيك .
وتطفىء حرارة الروح في داخلك (١ تس ٥ : ١٩ ، أف ٤ : ٣٠) . وتتنازل
عن النعمة المعطاة لك . وتكون بهذا التساهل مع الخطيئة ، قد رفضت سلاحك
الروحي ، وخننت الرب ، وفتحت الباب لأعدائه ومقاوميه . خنت عشرة الله ،
ودخلت في عشرة الخطيئة ، ولو عن إهمال وتراخ .
صلابتك بدأت تهتز من الداخل . فالأقوياء لا يتساهلون ...

تساهلك مع الخطيئة ، معناه أن مثالياتك بدأت تهتز .
بدأت تتنازل عن المستوى اللائق بك كصورة الله ومثاله (تك ١ : ٢٦) .
ورضيت لنفسك أن تتفاهم مع الشيطان ، وتسمع له بمكان داخلك . وراك الشيطان
أنك من النوع الذى يمكن أن يُخضع له ويستجيب ، وليس من النوع الصلب الذى
يقاوم بشدة ، ويرفض كل اقتراحاته أياً كانت .

لقد كان الشيطان يختبرك ويحس نبضك ، ليعرف نوعيتك .
هل أنت سهل أم صعب ؟ هل ترفض كل ما يعرضه بحزم وبدون نقاش ؟ أم
تقبل ؟ أم تتفاوض ؟ أم تتساهل معه وتقبله في منتصف الطريق . لذلك هو يعرض

عليك أفكاره وحيله . فإن تساهلت ، يعرض أيضاً ... فإن تساهلت أمامه وتراخيت ، حينئذ يعرف معدتك ، ويعاملك على أساس هذه الخبرة .

وتسقط هيبتك أمام الشياطين ، بسبب تساهلك معهم .

هناك قديسون تخافهم الشياطين وتهايم . مثل ذلك القديس الذى أتاه شيطان ليحاربه ، فربطه خارج القلاية ، وجاء ثان وثالث فربطهم أيضاً خارجها . وظلوا يصرخون ، فقال لهم «إمضوا واخزوا» ... ومثل القديس الأنبا إيسيدوروس قس القلايى ، الذى قال له الشياطين «أما يكفيك أننا لا نستطيع أن نمر على قلايتك ، ولا على القلاية التى إلى جوارها . وأخ واحد لنا فى البرية ، جعلته يعتدى علينا الليل والنهار بصلواته ... !؟» .

والقديس مقاريوس الكبير ، الذى كانت تخافه الشياطين قائلة «ويلاه منك يا مقاره...» هذا لما نفى إلى جزيرة فيلا من الأريوسيين ، صاحت الشياطين صارخة لمادخل إلى الجزيرة ...

الشيطان يخاف أولاد الله الحقيقيين ، الذين يهزمونه .

أما إن رآك أنت تقبل أفكاره ، وتتساهل معه ، وتفتح له أبوابك ، وتخون الرب بسببه ، حينئذ تسقط هيبتك فى عينيه ، ولا يرى أنك صورة الله التى يخافها ، ولا هيكل الروح القدس الذى يرتعب منه ... حينئذ يلعب بك الشياطين ، ويسلمك كل واحد منهم للآخر لكى يلهو بك ... ككرة قد نزلت إلى الملعب ، والللاعبون يمررونها بينهم ... كل واحد منهم يقذفها إلى اتجاه ... ! إحترس إذن لنفسك ، ولا تكن كرة تنزل إلى الملعب .

فالذى يتساهل مرة ، يتعود التساهل ويتماذى فيه .

قد تساهل سليمان مع نفسه فى كسر وصية الله التى تمنع الزواج بأجنبيات ، فتزوج ابنة فرعون (١ مل ٩ : ١٦) . ثم سهل عليه الأمر فتماذى فيه «وأحب سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون ، موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحشيات ، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى اسرائيل : لا تدخلون إليهم ، ولا يدخلون إليكم ، لأنهم يميلون قلوبهم وراء آلهتهم» (١ مل ١١ : ٢٤، ١) .

ولما رأى الشيطان تساهل سليمان ، دفعه إلى أخطر .

فكما تساهل مع نفسه ، وكسر الوصية في الزواج بهن ، ازداد تساهله ، فبنى مرتفعات لهؤلاء النسوة لعبادة إلهتهن . وقاده تساهله إلى أنه بنى مرتفعة لكموش إله الموبابين ، وأخرى لمولك إله العمونيين . ومال قلبه وراء آلهة أخرى (١ مل ١١ : ١-٩) .

ربما كان الشيطان يخاف سليمان أول الأمر ، لأنه كان أحكم أهل الأرض . فلما رآه يتساهل مع الخطية ، دفعه في هذا التساهل إلى أبعد حد يمكن تصوره ... !

وكذلك فعل معه من جهة التساهل في محبة النساء .

سمح سليمان لنفسه بالتساهل في تعدد الزوجات ، فلم يوقفه الشيطان عند حد معقول ، إنما جعل التساهل يتمادى معه ، إلى أن صارت له « سبع مئة من النساء السيدات ، وثلاث مئة من السرارى (١ مل ١١ : ٣) .

إن كان التساهل يمكن أن يجر إنساناً حكيماً إلى هذا المستوى ، فإذا يمكن أن يقال إذن عن الناس العاديين ؟!

لذلك لا تساهل مطلقاً ، مهما بدت الخطية بسيطة .

مجرد قولك إنها خطية بسيطة ، يقودك إلى التساهل .

لا تقل هذا شيء بسيط ، وهذا أمر تافه لا يزعج الضمير ، وهذه ليست بخطية . وهذا التصرف لا يعثرني ، ولن يترك أثراً قى . فكثيرون سقطوا لعدم التدقيق . والذي لا يحترس من الصغائر ، يمكن أن يقع في الكبائر . وكل خطية هي تمرد على الله وانفصال عنه ، وذنس وسقوط وضعف .

ولا تظن أن الخطية التي تهلك الإنسان هي مجرد الوقوع في كبائر ، كالزنا والتجديف والقتل والسرقه ... فقد قال الرب :

من قال بأحقي يكون مستوجب نار جهنم (متى ٥ : ٢٢) .

« ومن قال لأخيه رقاً يكون مستوجب الجمع » ... كثيرون يتساهلون في الكلام بينما الكتاب يعتبر الكلام الخاطيء نجاسة . ويقول « ما يخرج من الفم ينجس الإنسان » (متى ١٥ : ١١) . وعن الحرص من جهة اللسان ، وعدم التساهل في أخطاء الكلام ، يقول يعقوب الرسول « إن كان أحد فيكم يظن أنه دتّين ، وهو ليس يلجم لسانه بل يلدغ قلبه ، فديانة هذا باطلة » (يع ١ : ٢٦) .

إذن لا تحترس فقط من الزنا والسرقه والقتل ، فرعا كلمة واحدة تكون سبب دينوتك ، لأن الكتاب يقول « بكلامك تتبرر، وبكلامك تدان » (متى ١٢ : ٣٧) .

« كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس . سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين » (متى ١٢ : ٣٦) .

لم يفهم القديسون عبارة (الكلمة البطالة) على أنها الكلمة الشريفة مثل الكذب والشتيمة والتجديف والإدانة . إنما فهموا الكلمة البطالة ، على أنها كل كلمة ليست للمنفعة ، ليست للبنيان ، لا تبنى نفس السامع ، ولا تبنى الملكوت ... وهكذا صمتوا ، وكانوا لا يتكلمون إلا بحساب ، حينما يرون أن الكلام سيكون للبنيان .

ولا شك أن الذى لا يتساهل مطلقاً مع نفسه ، فى اللفظ بكلمة ليست للبنيان ، لا يمكن طبعاً أن يتساهل مع نفسه فى أن يلفظ بكلمة شريفة ...

والذى لا يتساهل فى كلمة ، لن يتساهل فى العمل .

والتدقيق الذى يعودده ، يشمل كل حياته وكل تصرفاته ، عالمياً أن كل فعل يأتى إلى الدينونة مها كان بسيطاً . مجرد نظرة نظرتها امرأة لوط إلى الوراء ، حولتها إلى عمود ملح (تك ١٩ : ٢٦) . وكذبة كذبتها حنانيا وسفيرا جعلتها يسقطان ميتين للتوبلا توبة (أع ٥ : ١-١٠) .

إذن لا تقسم الخطية إلى كبيرة وصغيرة ، لكى تسمح لنفسك بالتساهل مع الصغيرة . إنما كن دقيقاً فى كل شىء . واعلم أن التساهل مع الشىء الصغير يجعله يكبر . والسيد المسيح لم يمنع عن الزنا فقط ، إنما عن النظرة المشتهية أيضاً ... ولم يطلب منا فقط أن نحتمل من يسخرنا ميلاً ، بل دعانا إلى احتمال الميل الثانى أيضاً (متى ٥ : ٢٨ ، ٤١) .

الذى يتساهل فى الخطوة الأولى ، يقع فى الثانية .

والذى يتساهل فى الثانية ، يقع فى الثالثة ... وهكذا إلى غير حد . والشيطان - كما قيل عنه - « فتال حبال » ، يفتل حبالاً لاصطيادنا وحباله طويلة ، لا مانع أن يدبر حيلة فى عشر سنوات ، ليسقطك فى خطية واحدة ! فاحترس منه ، ولا تتساهل معه أبداً .

والشيطان قد يلومك إذا كنت مدققاً في تصرفك ولم تتساهل .

وقد يصفك الشيطان بالتطرف أو الوسوسة وتعقيد الأمور .

فلا تسمع له ، وكن ثابتاً في روحياتك ، لا تثيرك هذه الإتهامات . وكن مثل القديس ببنوده الأسقف ، الذي لما رأت إحدى النساء تدقيقه الشديد ، قال : إن هذا الشيخ موسوس ! فأجابها القديس قائلاً « هل تعلمين يا امرأة كم سنة قضيتها في البرية لكى أقتنى هذا الوسواس ؟ لقد قضيت خمسين سنة لأقتنيه ، فهل أفقده من أجلك في لحظة واحدة ؟ ! » وترك الأسقفية ومضى ... إن خلاص نفسه أفضل ...

واعرف أن الخطية هى كسر لوصية الله ، وبعد عن محبته . لذلك فأنت في

تساهلك :

لست تتساهل مع نفسك ، إنما تتساهل في حقوق الله .

لا تتساهل مع نفسك في ارتكاب الخطية . وإن أخطأت :

لا تتساهل في معاقبة نفسك على خطيتها .

إن التساهل في تأديب النفس على سقطاتها ، قد يؤدي إلى اللامبالاه ، وعدم الخوف ، والإستهانة بوصايا الله ، والعودة إلى ارتكاب الخطية بسهولة ، اعتماداً على أن الله محب وغفور « لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا حسب آثامنا » (مز ١٠٣) .

لا تدلل نفسك إذن ، ولا تسامحها بسهولة .

واعلم أن الخطية التى لا تنال عقوبتها كما ينبغي ، والتى لا تنسحق بسببها النفس وتُذَل ، ما أسهل أن يرجع إليها الإنسان مرة أخرى ... ولا تقل إن هذه الخطية قد عملتها في الماضى ، ومرت وانتهت ، ونلت عليها حلاً ومغفرة ! كلا ، بل بكت نفسك باستمرار .

وتذكر أن داود النبي بلل فراشه بدموعه فترات طويلة ، بعد أن سمع حكم المغفرة من الله على فم ناثان ... لكنه على الرغم من هذه المغفرة ، صارت دموعه له شرباً نهراً وليلاً . وصغرت نفسه في عينيه ، وظل يبكيها زماناً هو العمر كله ، ويقول « خطيتى أمامى في كل حين » (مز ٥٠) .

• فلتكن أنت كذلك . وافرض على خطاياك عقوبات شديدة ...

وكن حاراً في الروح (رو ١٢ : ١١) . واعمل عمل الرب بكل نشاط وكل حرص ، ولا تتساهل في ذلك فقد قيل :

ملعون من يعمل عمل الرب برخاوة (أر ٤٨ : ١٠) .

كن كالراعي الساهر على غنمه ، الذي يحرس حراسات الليل ، كل يقظة ، لا يتساهل مع نفسه في أن يغفل لحظة ...

كن حاراً في عبادتك . وإن وجدت نفسك متعباً ، أو لا رغبة لك في الصلاة ، فلا تتساهل مع نفسك وتنام بغير صلاة . لئلا بهذا التساهل تتعود نفسك الإهمال والتراخي . بل كما قال مار اسحق : إذا حوربت بأن تهمل صلاتك وتنام ، لا تطاوع نفسك وإنما :

إغصب نفسك على صلاة الليل ، وزدها مزامير .

كذلك كن حازماً في صومك . لأنك إن تساهلت في موعد الأكل ، ستتساهل أيضاً في نوع الطعام وكميته ، ثم تتساهل في ضبط نفسك ، ويصحبك عدم الضبط هذا في كل تفاصيل حياتك الروحية .

كن متيقظاً إذن لخلاص نفسك ، بكل حرص ، ساهراً باستمرار ، لئلا يأتي بغتة فيجذك نائماً (مر ١٣ : ٣٦) .

لا تم . وإن نمت ، إحترس من الصحو المتأخر .

فشمشون ظل متساهلاً في روحياته ، غافلاً عن خلاص نفسه زماناً . ومتى صحا؟ كان ذلك صحوماً متأخراً ، بعد أن فقد نذره ، وفقد قوته ، وسباه الأعداء ...

ولوط كذلك . متى صحا؟ ... متأخراً جداً بعد أن فقد كل شيء في حريق سدوم . وكثيرون سقطوا ، لأنهم تساهلوا مع الغفلة الروحية ، ولم يستيقظوا لأنفسهم إلا متأخرين ، بعد أن كانت الخطية قد تمكنت منهم . فلا تكن كهؤلاء .

وكن إنسان أمين على حياتك الروحية ، لا تتساهل مع الخطية .



اعد تقيم سلوكك واحترس من ثياب الحملان

الخطية لا نحب أن تكشف ذاتها ، إنما أحياناً تنتكر .
 هي لا تكشف ذاتها إلا للمستهترين الذين يحبونها . أما بالنسبة إلى أولاد الله ،
 فإنها دائماً تنتكر، حتى لا يتنبهوا لها ويعدوا عنها . ولا مانع مطلقاً من أن تنتكر في
 زى فضيلة ، أو وراء أى إسم لطيف غير مكشوف . ويمكن أن ينطبق على أمثال
 هذه الخطايا قول الرب :
 يأتونكم بثياب الحملان . ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة (متى ٧ :
 ١٥) .

المضللون من المعلمين الكذبة يفعلون هكذا . والخطايا التي تضلل الإنسان
 وتستغل بساطته ، تفعل هكذا أيضاً . والشيطان نفسه يأتي بثياب الحملان . وكما
 يقول الرسول :

الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك نور .

وخدامه أيضاً يغيرون شكلهم إلى شبه خدام للبر (٢ كو ١٠ : ١٤ ، ١٥) ...
 يحدث هذا لكسى تم الخديعة ، فتم السقطة . ولهذا يحتاج أولاد الله دائماً إلى حكمة
 وإفراز ، لكسى يميزوا بين طريق الرب وطريق الشيطان ، ويميزوا إرادة الله من
 الإرادات الخاطئة .

فكثيراً ما يسلك البعض في طريق خاطيء نتيجة للجهل وعدم المعرفة ، ونتيجة
 لخديعة الشياطين لهم . لذلك فالأب الكاهن في القداس الإلهي يطلب من الله
 المغفرة والصفح قائلاً « عن خطاياى وجهالات شعبك » .

ولماذا نسميها جهالات ؟ لأن الكتاب يقول :

توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة ، وعاقبتها طرق الموت .

عن محاضرة في بداية السنين ، أقيمت في دمنهور .

ذكرت هذه الآية في سفر الأمثال (أم ١٤ : ١٢) . وتكررت لأهميتها مرة أخرى في نفس السفر بنفس النص (أم ١٦ : ٢٥) ... مادام الأمر هكذا، ويمكن للإنسان أن يندفع، وكما قال الرب « هلك شعبي من عدم المعرفة » (هو ٤ : ٦) . لذلك قال الحكيم أيضاً :

على فهمك لا تعتمد (أم ٣ : ٥) .

وهكذا نرى داود النبي يصرخ كثيراً في مزاميره ويقول « علمني يارب طرقك . فهمني سبلك » (مز ١١٩) . فإن كان النبي العظيم - الذي حل عليه روح الرب - يقول هكذا، فإذا نقول نحن ؟

ليس جميع الناس حكماء، وليس الحكماء حكماء في كل شيء « الحكيم عيناه في رأسه، أما الجاهل فيسلك في الظلام » (جا ٢ : ١٤) . ونحن لا ندعى الحكمة . فإذا نفعل إذن ؟

علينا بالمشورة ، حتى لا نتخذنا ثياب الحملان .

والكتاب يقول في ذلك « طريق الجاهل مستقيم في عينيه . أما سامع المشورة فهو حكيم » (أم ١٢ : ١٥) . وليس كل شخص نسمع منه المشورة . فقد كانت مشورة بلعام ضلالة (يه ١١) . وكانت مشورة أختيوفل ليست حسب مشيئة الله . لذلك نستطيع أن نقول إنه ليست كل مشورة هي من الله ، فقد قال الوحي الإلهي : « يا شعبي ، مرشدوك مضلون » (أش ٣ : ١٢) .

فما أكثر الذين هلكوا نتيجة الإرشاد الخاطيء . وليس هذا الإرشاد المضلل ثياب الحملان، وهلك به أصحابه . كما يقول الكتاب « أعمى يقود أعمى ، كلاهما يسقطان في حفرة » (متى ١٥ : ١٤) . وقد رأينا كيف ضاع رجوعاً نتيجة سماعه للمشورة الخاطئة (١ مل ١٢ : ١٠) . وقد وبخ الرب الكتبة والفريسيين على إرشادهم الخاطيء، وقال إنهم « قادة عميان » (متى ٢٣ : ١٦ ، ١٣) .

هؤلاء طبعاً غير المرشدين القديسين (عب ١٣) .

الذين يقول عنهم الكتاب « أذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله . انظروا إلى نهاية سيرتهم وتمثلوا بإيمانهم » (عب ١٣ : ٧) ، وأيضاً « لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم ، كأنهم سوف يعطون حساباً » (عب ١٣ : ١٧) . لذلك نحتاج

لإفراز شديد لنميز بين الإرشاد السليم والإرشاد الخاطيء، بين روح الحكمة وروح الضلال. كما قال الرسول «إمتحنوا الأرواح هل هي من الله» (١ يوحنا ٤: ١).
والذى يتمسك بروح الله فيه، سيرشده الروح. فأشعيا النبي يقول عن روح الرب إنه «روح الحكمة والفهم، روح المشورة» (أش ١١: ٢).

فلنصل إذن أن يتقذنا الرب من كل خداع الشياطين،
ومن الخطايا التي تنتكر في زى فضائل لتضلنا.

على أنه إن سقط أحد في خداع الشياطين هذا، فإن الإلتضاع يرفعه من سقطته. لأنه حالما ينكشف له الأمر، أو ينيه صديق مخلص أو مرشد حكيم، يعترف حينئذ بخطئه، ولا يعود إلى ذلك الخطأ مرة أخرى. ويكتسب بذلك معرفة وتوبة. أما المتعجرف بمعرفته أو بسلوكه، فإن توبته صعبة...

وذلك لأن الإنسان البار في عينى نفسه، يدافع عن خطيئته، ويسميا
بغير إسمها حتى لا ينجل!

لأنه إن اعترف بأن هذه خطية، يعترف بالتالى أنه مذنب. وكبير ياؤه تمنع
هذا! إذن لا مانع من أن يلبسها ثياب الحملان، ويسميا باسم آخر مقبول، غير
مخرج له، حتى لا ينكشف أمام الناس، وحتى يخدع نفسه فلا ينكشف أيضاً أمام
نفسه، إن أمكن...

والذين يغطون خطاياهم بثياب الحملان، لا يتوبون.

إذ كيف يتوبون عنها ويتركونها، وهم لا يحسبونها خطية، ولا يعترفون أنها
خطية؟! بل قد يسمونها باسم فضيلة! وهذه التسمية يدافعون عن سلوكهم،
وبالتالى يستمرون فيه. وقد يصبح عادة لهم أو طبعاً لهم أو منهجاً ثابتاً في حياتهم
لا يغيرونه، لأنهم يسمون الخطية بغير إسمها الحقيقي، ويغطون عليها فلا تظهر!

وهذه التسمية وهذه التغطية، تهتز المبادئ والقيم عندهم.

إن الخطية المكشوفة والمعروفة، من السهل مقاومتها وتجنبها. وهى تتمتع الضمير
السليم، حتى أنه إن وقع فيها الإنسان، من السهل أن يتركها... لذلك فإن الشيطان
-الحكيم فى الشر- يعمل على تغيير القيم من جذورها...

وتسمية الخطية بغير اسمها، يدخل مع البشر فى حرب مسميات.

وتزداد خديعة الشيطان ، إن استطاع أن يجعل من هذه التسمية مفهوماً شائعاً بين الناس ، وهذا أخطر ، إذ ينتشر بين الكثيرين يرددونه بلا وعى . وهذه التسميات هي خديعة مقصودة من جهة الشيطان أو دعاء الشر . أما من جهة العامة ، فقد تكون الخطية هنا جهلاً منهم يحتاج إلى توعية روحية ، أو يكون انقياداً غير حكيم ، وانسياقاً بغير عمق ، يحتاج إلى قوة في الشخصية ، سواء في الفكر أو في التصرف ، حتى لا تشدها الدوامة ، وحتى لا تسير مع التيار أينما اتجه .

وهكذا فإنه نتيجة لخداع الشياطين وأتباعهم من عماري الفضيلة ...

نجد أن قيماً كثيراً ، تحتاج إلى توضيح مفهومها .

أى أننا ندخل مع هؤلاء في حرب تعريفات *definitions* ، بحيث لا بد أن نعرف : ما هو مفهوم هذه الفضائل أو القيم ؟ ما هو المقصود بها ؟ ما هو مضمونها أو تحديد معناها بالضبط ؟ حتى لا يكون هناك خطأ واضح في التطبيق ، ربما يتنازع تفسيران متضادان بالنسبة إلى فضيلة واحدة .

ومن أمثلة هذه الفضائل التي تحتاج إلى تحديد معناها :

ما هو مفهوم الحرية مثلاً ؟ وما هو مفهوم القوة ؟ وما مفهوم العظمة والكرامة ؟ كذلك ما معنى الانتصار ؟ وما معنى الرجولة والبطولة والشجاعة ؟ وما معنى النجاح ؟ وما معنى الطموح ؟

كلها قيم عظيمة . ولكن الناس يختلفون في مضمونها ومعناها ، هذا بافتراض حسن النية . وبناء على ذلك يقع البعض في الخطية ، بفهم خاطيء ، بينما يتحاشاها البعض الآخر بمفهوم سليم .

تحت إسم الحكمة مثلاً ، كم خطايا تختبئ ؟

يقع الإنسان في التملق وفي الجبن وفي الرياء ، ويسمى هذه حكمة . ويقع في مجازاة الشر ، والسير في التيار العام الخاطيء ، ويسمى هذه أيضاً حكمة . وقد يستخدم الكذب والخديعة واللف والدوران ، ويعتبر أن هذه حكمة منه ، يكفي أنها أوصلته إلى غرضه أو حفظته في أمان . وكان الوصولية أيضاً حكمة !

وهنا يكون قد أخطأ في مفهوم الحكمة ! لأن الشر ليس حكمة . ولأنه ليس من الحكمة أن ينخر الإنسان الملكوت ، من أجل أي غرض زائل على الأرض . وصدق

الرسول حينما قال :

لأن حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله (١ كو ٣ : ١٩) .
وهي ليست جهالة فقط ، بل هي أيضاً سبب عقوبة « لأنه مكتوب الآخذ
الحكمة بمرهم » (١ كو ٣ : ١٩) . إن (الحكمة) التي تصيح لونا من المكر والدهاء
والخيلة ، ليست هي حكمة روحية ، فابتعد عنها . لأن الحية كانت «أحيل حيوانات
البرية» (تك ١٣) . وكانت شيطاناً...

إستخدم يعقوب الحكمة البشرية ، فأوقعته في خطايا كثيرة .
بتلك (الحكمة) أقصد بالخيلة والدهاء ، تحايل حتى سرق البكورية من أخيه ،
بأسلوب خال من الحب الأخرى (تك ٢٥ : ٣٠ - ٣٤) . وبنفس (الحكمة) خدع
أباه حتى سرق منه البركة بدلاً من أن يأخذها أخوه (تك ٢٧) . واشتركت معه في
ذلك أمه رقيقة . وبنفس الحكمة أيضاً ، أخذ من خاله لابان كل ما ولدته الغنم (تك
٣٠ : ٣١ - ٤٣) . ولم يكن في هذه النقطة بالذات أميناً مع خاله لابان... إنها نفس
طريقة الخيلة البعيدة عن براءة البساطة...

كم يحتاج مثل هذا (الحكيم) أن يتوب عن حكمته .
لو أنه سمى الأمور بأسمائها الحقيقية ، وقال إن هذا احتيال أو دهاء أو مكر ،
أو اعتماد على ذراع بشرى ، لأمكن أن يتوب . أما أن يسميها حكمة ، فهذه تسمية
تغطي على الخطية ، ولا تساعد على التوبة...

صدقوني إن الحكيم في عيني نفسه ، من الصعب أن يتوب .
لأنه لا يرى فيما يفعله خطية . بل يرى أن تصرفاته تدل على ذكاء وحسن
تصرف ! وهل من المعقول أن يتوب الإنسان عن الذكاء وحسن التصرف ؟ كلا ،
بل إن الناس يقصدونه ليعلمهم كيف يصل ، ويصبح مرشداً إلى طرق خاطئة .
وأكثر من هذا ، أنه قد يفتخر بحكمته هذه ، وكيف استطاع أن يستخدم عقله
للحصول على ما يريد . وينطبق عليه قول الكتاب :

مجدهم في خزيم (في ٣ : ١٩) .

الذي تنسحق نفسه بسبب الخزي من أخطائه ، هذا يمكنه أن يتوب . أما الذي
يرى في هذا الخزي مجداً له وفخراً ، فسوف يستمر فيها هو فيه ، راضياً عن نفسه .
ومثال ذلك التاجر الذي يفتخر بأنه استطاع أن يلبس بالسوق ويكذب .

والموظف الذى يفتخر بأنه طوى رئيسه بأسباب ملفقة عرضها عليه ، فانطلت عليه الحيلة وصدقه . وكذلك الذى يفتخر بأنه يستطيع أن يثقل أى دور على أى أحد ، ويكسب الموقف بتمثيله المتقن . أو كالشاب الذى يفتخر بأنه يستطيع أن يسقط أية فتاة مهما كانت متدينة ؟!

كيف يمكن لهذا الإنسان أن يتوب ، إن كان يفتخر بأخطائه ؟!

يذكرنى هذا بالشياطين التى تفتخر بإسقاطها للقديسين !

لقد كان الفريسيون فى حرفيتهم ، يفتخرون بأنهم يسرون فى أصعب طريق ، ويضيقون على أنفسهم . حتى أن بولس الرسول حينما كان يتكلم عن ماضيه قال « حسب مذهب عبادتنا الأضيق عشت فريسياً » (أع ٢٦ : ٥) . بينما السيد المسيح وبخ الفريسيين على تحميلهم الناس أحمالاً ثقيلة ، فما دخلوا ، ولا جعلوا الداخلين يدخلون (متى ٢٣) .

إن الفريسيين كانوا يفتخرون بحرفيتهم ، لذلك لم يتركوا الحرفية ، بل اعتبروها تدقيقاً فى أمور الدين ، وتشدداً فى التدين . كان لها إسم آخر يغطىها ويحامى عنها ... ! وكذلك كل خطية ، يمكن أن يكون لها إسم آخر ، يحتفى به الخطيئىء ، فلا يتوب ...

فالتدخين لا يظهر على أنه قتل للصحة ، وعبودية للإرادة ، وإضاعة للأموال ، وإنما يأخذ إسم المتعة وإراحة النفس ، وهو إسم لا يتعب الضمير كثيراً . والرقص يأخذ إسم الفن ، ومعرفوه يسمون أهل الفن والفنانين . وكذلك الرسوم العارية التى تعثر كثيرين ، هى أيضاً فن لا غير ..! وما يشبه هذا كثير جداً . وخطية الزنى هى أيضاً تلبس ثياب الحملان ، وتحمل إسم الحب . ويخاطب مقترفوها بين الحب والشهوة ...

وإعلان عمل الخير أمام الناس لكسب مديحهم ، لا يؤخذ على أنه رياء ، وإنما يلبس ثياب الحملان ، ويأخذ إسم القدوة الحسنة ، والتعليم العملى ، وتقديم صورة الله للناس ... وعدم إعتارهم .

وتحت إسم الدعابة والمزاح ، تستتر أيضاً خطايا كثيرة .

يتكلم إنسان على آخر ، ويجرح شعوره ، ويتخذة مجالاً لضحكك ، ويضحك عليه

الآخرين غير مبالٍ بوقع كل هذا عليه... وإن لمته، يقول إن هذا مجرد مزاح ودالة وعشم! وهكذا يسمى عدم إحترام الناس مزاحاً ودالة... وتحت إسم المزاح أيضاً قد يكذب ويسميه كذباً أبيض أو دعاية أو مزاحاً. وقد يسرق ويغني أو يأخذ أشياء يملكها غيره، ويقول: كنت أمزح معه. وقد يتصرف شاب مع فتاة بعض تصرفات جنسية غير لائقة، ويقول كنت أمزح معها. وكل أنواع الهزل غير اللائق، تدخل تحت إسم المزاح والدعاية، وقد تشمل أى أحد مهما علا مركزه. حتى الله نفسه بالتجديف على إسمه، قد يعتذر عن هذا بأنه دعاية. وتدخل كلها تحت إسم خفة الدم، والल्पف، وخفة الروح!؟

وتسأل أليس لهذا المزاح حدود؟ فلا تجد جواباً...

ومن الناحية المضادة، تلبس القسوة أيضاً ثياب الحملان.

فقسوة الأب على إبنه، لا تظهر تحت إسم قسوة، وإنما تحت إسم الحزم والتأديب، ومجد لها هذا الأب القاسى مفهوماً خاصاً فى قول الكتاب «فيراعهم بقضيب من حديد» (رؤ ٢: ٢٧). وينسى قول المزمور «لا تؤدبني بسخطك» (مز ٦: ١). وينسى الكلام عن عطف الأب (مز ١٠٣).

وقد يقتل أب إبنته الخاطئة، ولا يسمى هذا الأمر جريمة قتل، وإنما يسميا غسلاً ومحواً للعار، ودفاعاً عن الشرف!... مجرد ثياب حملان لإراحة الضمير وتبرير العمل...

واضطهاد من يخالف فى الرأى أو العقيدة، يسمى غيرة مقدسة.

وهكذا يأخذ إسماً آخر يصير فيه فضيلة. وفى هذا قال السيد المسيح «تأتى ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله» (يو ١٦: ٢). وهذه التسمية الجديدة كان شاول الطرسوسى يربح ضميره فى كل أنواع القسوة التى قام بها (أع ٢٦: ٩-١١). وقد قال فى ذلك عن نفسه فى افتخارات ماضية «من جهة الغيرة، مضطهد الكنيسة» (فى ٣: ٦).

وبالمثل فإن كثيراً من ألوان الغضب والترفة، قد تأخذ إسم الدفاع عن الحق، والدفاع عن النظام، والدفاع عن الكرامة. وكلها ثياب حملان لا تتعب الضمير!

والحياة العابثة قد تحتفى وراء إسم [الحرية] .

وربما الإبن الضال الذي ترك بيت أبيه ، قد ظن أنه يمارس حرите الخاصة ، ويجرب الحياة ، ويختبر...! والوجوديون في كل أخطائهم يتعللون بهذا أيضاً: ممارسة الحرية ، والشعور بالكيان الشخصي ، الشعور بوجودهم ! وتحت هذا الاسم يقترفون كل أنواع الإباحية ، والإعتداء على حريات الآخرين . وصدق الذي قال « كم من جرائم اقترفت باسمك أيتها الحرية ! » .

وبالمثل خطايا أخرى كثيرة تلبس ثياب الحملان . فالأم قد تتدخل في شئون إبنتها - المتزوجة حديثاً - تدخلاً يخرب هذا البيت ، وتسمى هذا عجة لإبنتها ، ودفاعاً عنها ، وحرصاً على كرامتها... وقد يكذب عمام أو محاسب ، وقد يضع هذا تحت عنوان مقتضيات المهنة ! بينما المهنة شريفة ليس هذا من مقتضياتها... إن الخطيئة ، لا تحب أن تظهر بإسمها الحقيقي ، لأنه يتعب صاحبها .

فحق البدعة في الدين ، لا تظهر مطلقاً باسم بدعة .

بل يقدمها صاحبها على اعتبار إنها الفهم السليم للدين الذي يجمله الكثيرون . وإن كانت هذه البدعة تحمل عقيدة لم يألفها الناس ، فإنه يسمى هذا تجديداً ! وإن قاومه المتمسكون بتقاليد الكنيسة ، يقول : هل تحجرون على تفكيرنا؟ لنا الحرية أن نفكر كما نشاء ! قد يكون له الحرية أن يفكر ، ولكن ليست له الحرية أن ينشر أفكاره الخاطئة بين الناس ، ويتعرض لحكم بولس الرسول (غل : ١ : ٧ ، ٩) . بل حتى الذي يعثر الآخرين في التصرف ، لا يقول إنه يعثرهم ، بل إنه يعلمهم الحياة... !

أما أنت فاهرب من التسميات الخاطئة وثياب الحملان .

لتكن لك مبادؤك الثابتة الراسخة التي لا تنزعزع بمسميات جديدة ومفاهيم غير روحية ، بل تعتمد على كلمة الرب أولاً ، وعلى الإيمان المسلم لنا مرة من القديسين (يه ٣) . واحتفظ بنقاوتك . ولا تسمح أن تسمى خطيئتك باسم آخر يريح ضميرك إراحة وقتية زائفة ، بينما تشعر في أعماقك إنه لون من الهروب من المسؤولية... بل بالحرى إكشف خطيئتك أمام نفسك لتتوب عنها ، وأمام الله لتنال مغفرة . طوبى لمن يكتشف خطاياها ويندم عليها ، ولا يغطيها باسم آخر .

لأنك إن سميت خطيئتك باسم آخر ، لن تتوب .
 فالإنسان يترك ما يرى أنه خطأ . فإن لم يكن خطأ ، لماذا إذن يتركه؟! إنها
 معرقلات من العدو يمنع بها التوبة . بأسلوب من الشفقة الزائفة ، قد يحاول بها أن
 يريح النفس ، ولكنه لا يريح الروح ولا يساعدها على الإهتمام بأبديتها .
 أما أصحاب ثياب الحملان ، فيجب أن ينزعوها ، لكي تظهر الخطيئة على
 حقيقتها ، خاطئة جداً تفقد النفس نقاوتها ، وتحتاج إلى توبة .

أما أصحاب المسميات الجديدة ، فيحتاجون إلى تجديد أذهانهم .
 كما قال الرسول « لا تشاكلوا هذا الدهر » أى لا تصيروا بشكله أو شبهه « بل
 تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم » (رو ١٢ : ٢) . فأذهانكم هذه التى أفسدتها
 المسميات العالمية وثياب الحملان ، إعملوا على تجديدها بالفهم الروحى السليم
 « لتختبروا ما هى إرادة الله الصالحة » (رو ١٢ : ٢) .
 بتجديد الذهن هذا ، يمكن للإنسان أن يتوب ...
 وماذا أيضاً ؟ ...



أهرب من خطاياك المحبوبة وعالج فقط الضعف فيك

ليس الخاطئء هو الإنسان الذى يسقط فى جميع الخطايا ، وهذا السقوط الكامل الشامل يهلك . إنما تكفى خطية واحدة يكون ساقطاً فيها ، هذه تلوث نفسه ، وتكون سبباً لملاكه خطية يجبا ، تمثل نقطة الضعف فيه .

وتكون خطيته المحبوبة هذه ، هى العائق بينه وبين الله .
إن انتصر على هذه الخطية بالذات ، صار منتصراً فى حياته الروحية . وإن انهزم فيها ، فلا تنفعه كل انتصاراته على باقى الخطايا الأخرى ...
هذه الخطية تمثل مدخل الشيطان إلى قلبه وإرادته . وينبغى أن ينتصر فى هذا الميدان بالذات الذى هزمه فيه العدو . وغالباً ما تكون نقطة الضعف هذه ، هى النقطة الثابتة المتكررة فى كل اعترافاته ، كلها ذهب ليعترف بخطاياها .

نقطة الضعف هذه ، تذكرنا بثقب واحد فى سفينة .
مهما كانت السفينة هائلة ورائعة ، فهذا الثقب الواحد يمكن أن يكون سبباً فى غرقها . كذلك بقعة واحدة فى ثوب ، تكون كافية لتوسيعه ، مهما كان جميلاً ونظيفاً فى باقى أجزائه . ونقطة حبر واحدة فى كوب ماء ، تجعله كله غير صالح للشرب .
ولا بد لنا أن نجاهد لإصلاح الثقب الذى فى السفينة ، مهما كانت التحسينات الأخرى الموجودة فيها . وكذلك نعمل على إزالة البقعة الواحدة من الثوب ، ولا نفتخر بأن الباقى منه نظيف .

مثال تلميذ رسب فى مادة واحدة فى الإمتحان ...

ومع أنها مادة واحدة ، فإنه يعتبر راسباً ، مهما كان ناجحاً فى باقى المواد الأخرى . حتى لو حصل فى باقى المواد على درجات نهائية ، فن أجل هذه الواحدة التى رسب فيها ، قد يعيد العام كله . عليه إذن أن يعرف نقطة الضعف التى عنده ، ويركز عليها ويعالجها .

عن محاضرة أقيمت فى الكاتدرائية الكبرى يوم الجمعة ١٢/٢٩/١٩٧٨ ، إستعداداً لبداية سنة

جديدة .

أو مثال مريض يشكو من مرض معين يؤلمه .
مهما كانت باقى أجهزة جسمه سليمة ، سيبقى متألماً مادام هذا المرض باقياً .
وعلى طبيبه أن يركز على موطن الألم بالذات لكى يعالجه . كذلك فى الحال مع
الخطية ، لأنها مرض .

خذ مثلاً آخر بإنسان يصوم ...

وفى صومه يمتنع عن أطعمة كثيرة . ولكنه لا يستطيع أن يمنع نفسه عن طعام
معين بالذات ، يشتهي ... فما الذى يستفيدة مثل هذا الإنسان من صومه ، مادام
ضعيفاً ، لا يقوى على ضبط نفسه ، فى النقطة التى يحارب فيها بشهوة الطعام . ألسنا
نقول حقاً ، أنه لو امتنع عن هذا الطعام بالذات ، لصار ناجحاً فى صومه وفى
روحياته ... أما إن سقط فى هذه ، فقد سقط فى الكل . ويذكرنا هذا بقول
الكتاب :

من حفظ كل الناموس ، وإنما عثر فى واحدة ، فقد صار مجرمًا فى الكل
(يع ٢ : ١٠) .

فما معنى هذه العبارة من قول الرسول ؟ وكيف نفهمها ؟
تفهمها بسؤال واحد تحتاج أن تجيب عليه وهو : هل أنت تحب الله ، بحيث لا
يوجد شىء يمكن أن يبعدك عنه ؟ فإن وجد شىء ، أى شىء ، يكون هو المشكلة فى
حياتك ، وهو نقطة الضعف فىك . أو هو خطيتك المحبوبة التى تنافس الله فى قلبك .
إن الله يقول « يا ابنى أعطنى قلبك » ... فلو كان قلبك فى جهة أخرى بعيداً
عنه ، تكون هذه الجهة هى العائق الوحيدة الذى يعوقك عن الصلة بالله .

لم تكن هناك أشياء كثيرة تبعد آدم وحواء عن الله .
إنما كانت هناك تلك الشجرة الواحدة لا غير . لو إنها استطاعا أن ينتصرا
بالنسبة إليها لصار حياتها كاملة أمام الله . ولكن بانزمامها خسرنا كل شىء .
إنصرت إذن على نقطة الضعف التى فىك ، التى يعرفها الشيطان عنك . ويدرك
تماماً أنه كلما يريد أن يهزمك ، يدخل إليك من هذا الباب بالذات ...

كثيرون يعززون أنفسهم بأعمال برهم ، يتذكرونها لتغطى على هذه الخطية .
ولكن الله لا يقبل هذه التغطيات ...

مثال ذلك الرجل الفريسي ، الذي كان الضعف فيه ، أنه يظن نفسه باراً ، ويحترق غيره من الخطايا... هذا كانت له نقط بيضاء كثيرة ، إذ أنه كان يعشر جميع أمواله ، وكان يصوم يومين في الأسبوع . وكان واقفاً في الهيكل يصلي . ولم يكن من الناس الظالمين الخاطفين الزناة . ومع ذلك لم يخرج من الهيكل مبرراً (لو ١٨ : ٩ - ١٤) . فلماذا؟ لأن كل هذه الأعمال لم تستطع أن تغطي على العجرفة الداخلية ، التي هي نقطة الضعف فيه بالذات . والتي يجب أن يتخلص منها ، ليتبرر أمام الله .

بنو اسرائيل أرادوا أن يغطوا على خطاياهم بالذبائح والبخور...

وبالتقدمات وحفظ المواسم من سبوت وشهور وأهلة وباقي الطقوس والصلوات... ولكن الله لم يقبل هذا منهم . بل قال لهم « لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرب... لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة . البخور هو مكرهة لي... رؤوس شهوركم وأعيادكم أبغضتها نفسي . صارت عليّ ثقلاً . مللت حملها . فحين تبسطون أيديكم ، أستر عيني عنكم . وإن أكثرتم الصلاة لا أسمع . أيديكم ملآنة دماً . إغتسلوا ، تنقوا ، إغزلوا شر أعمالكم » (أش ١ : ١١ - ١٦) .

هنا النقطة المطلوبة ، حيث موطن الداء ، لا تغطية الطقوس والممارسات .

الخطية لا تمحي بأعمال بر أخرى ، إنما بالتوبة .

لذلك لا تضل الطريق ، فحيثما توجد خطيبتك حارها وقاومها... ولا تقل : سأصوم يومين . أو سأعطي أموالاً للفقراء... كل هذا لا يُقبل منك ، إن كنت ماتزال مستبقياً الخطية في قلبك... إنما واجه حقيقة نفسك في صراحة . واستفد دروساً لحياتك من قصص الكتاب .

وخذ كمثال : قصة الشاب الغني (متى ١٩ : ١٦ - ٢٢) .

كان إنساناً يهتم بأبديته ، ويسأل « أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية » . وكان يحفظ وصايا الرب منذ حدثته . ولكن كانت هناك نقطة ضعف واحدة فيه ، وهي عبة المال .

وقد ركز المسيح على نقطة الضعف هذه بالذات .

فقال له إن أردت أن تكون كاملاً ، إذهب بع كل مالك واعطه للفقراء ، فيكون لك كز في السماء . وهنا وضع الرب يده على الجرح الذي كان يؤلم هذا الشاب ، فضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة .

ووضع الرب يده أيضاً على الجرح الذى كان يتعب أيوب .

كان أيوب الصديق « كاملاً ومستقيماً » بشهادة الرب عنه (أى ١ : ٨) ،
« وليس مثله فى الأرض » . وكان يشفق كثيراً على الفقراء ، وينقذ الضعفاء من
ظالمهم . وكان « عيوناً للعمى ، وأرجلاً للعرج » (أى ٢٩) . وباختصار كان رجلاً
باراً . فإذا كانت نقطة الضعف إذن ؟

كان باراً ، ويعرف عن نفسه أنه بار . فأتعبه البر الذائق (أى ٣٢ : ١) .
وهكذا جرده الرب من كل شيء : من أولاده وغناه ، ومن صحته وكرامته ، ومن
احترام الناس له . ولم يبق له شيئاً . ودخل مع الله فى عتاب . وأخيراً قال « قد
نطقت بما لم أنهم . بعجائب فوق لم أعرفها ... أسألك فتعلمنى ... لذلك أرضى وأندم
فى التراب والرماد » (أى ٤٢ : ٣-٦) . ولما وصل أيوب إلى التراب والرماد ،
تخلص من بره الذائق . ورفع الله عنه تجربته . وصار أكمل مما كان . إنتصر فى نقطة
الضعف أيضاً .

وكان بلعام نبياً . وكانت له نقطة ضعف أهلكته .

ظهر له الرب وكلمه (عدد ٢٢ : ١٢) . ولما طلب منه بلعام أن يلعن
الشعب ، قال « الكلام الذى يضعه الله فى فمى ، به أتكلم » (عدد ٢٢ : ٣٨) .
وأقام سبعة مذابح ، وقدم سبع ذبائح . « ووضع الرب كلاماً فى فم » (عدد ٢٣ :
٥) ... وتكلم كلاماً طيباً ، وتنبأ نبوءات عن السيد المسيح « وحى بلعام بن بعور ...
وحى الذى يسمع أقوال الله . الذى يرى رؤيا القدير مطروحاً وهو مكشوف
العينين ... أراه وليس الآن . أبصره وليس قريباً . يبرز كوكب من يعقوب . ويقوم
قضييب من اسرائيل ... » (عدد ٢٤ : ٣ ، ٤ ، ١٥-١٧) .

ثم سقط بلعام بنقطة الضعف التى فيه ، حبه للمال . وتحدث الكتاب عن
ضلالة بلعام إنها مأساة ...

وسقط سليمان بنقطة ضعفه هى محبة النساء ومجاملتن .

كان أحكم هذه الأرض ، بحكمة من الله نفسه . وقد ظهر له الله مرتين
وكلمه . وهو الذى بنى الهيكل ، وبارك الشعب . وكتب أسفاراً عديدة من الكتاب
المقدس . ومع ذلك كانت فيه نقطة ضعف واحدة هى محبة النساء ، فتزوج
أجنبيات ، وجرت هذه الخطية الواحدة إلى السقوط ، فال قلبه إلى آلهة زوجاته
(١ مل ١١) .

وبنفس نقطة الضعف الواحدة هذه ، سقط شمشون الجبار ، نذير الرب ، الذى حلّ روح الرب عليه وكان يحركه !

ويعوزنا الوقت إن تحدثنا عن نقط ضعف أتعبت الأنبياء .
كان إبراهيم أبو الآباء كاملاً فى كل شيء وباراً . ولكن وجدت نقطة ضعف فيه هى الخوف ، وبالخوف وقع فى خطايا (تك ١٢ ، ٢٠) . وكان بطرس تلميذ الرب قديساً عظيماً . وكانت فيه نقطة ضعف هى الإندفاع . كما كانت نقطة الضعف عند توما الرسول هى الشك . وكانت نقطة الضعف التى أتعبت أبانا يعقوب أبا الآباء ، هى الإعتماد على الحيل البشرية .

وبعض الخطاة كانت نقطة ضعف واحدة تضيعهم :
خطية الحسد هى التى ضيقت قايين ، وقادته إلى قتل أخيه .
وخطية الكبرياء وحدها أسقطت كثيرين . وكذلك خطية الزنا .
وربما إنسان تكون فيه فضائل كثيرة . ولكن يسقط لعدم ضبطه لسانه ، حسب قول الكتاب بكلامك تتبرر وبكلامك تدان .
وإنسان آخر يسقطه العناد .

والشيطان أسقطته خطية الكبرياء وحدها .
هى الخطية الوحيدة التى تحدث عنها الكتاب فى قصة سقوط الشياطين ، كما رواها أشعياء النبى (أش ١٤ : ١٣ ، ١٤) . ثم دخلته خطية الحسد ، ثم الكذب ثم تعددت خطاياهم . ولكن هذا كله جاء بعد خطية الكبرياء التى سقط بها من طهره الملائكى .

والهراطقة كذلك : لكل منهم سقطته الخاصة .
فلا تظنوا أن الهراطقة كان كل تعليمهم هرطوقياً ، أو كان كل كلامهم بدعاً فى الدين . هناك منهم من له عظات عميقة مثل ترتليانوس الذى وقع فى هرطقة المونتانيين *Montanists* وصار قائدهم . ومثل أوطاخى الذى كان من أكثر الرهبان روحانية فى القسطنطينية ، ثم وقع فى بدعته .
إنها نقطة واحدة أهلكت كلاً من هؤلاء . والأمثلة كثيرة .
وكل إنسان له نقطة ضعف خاصة هى سبب سقوطه .

فتأمل ما هي نقطة الضعف التي فيك . وما هي خطيتك المحبوبة التي بها تسقط ، والتي تضعف مقاومتك أمامها .

وفي توبتك ، ركز على هذه النقطة كل جهادك ، وكل صلواتك ، وكل ما شاخذه من معونة النعمة . فإن انتصرت عليها ، سيخاف الشيطان من محاربتك فيما بعد . وبتركك هذه الخطية المحبوبة منك ، تعبر على أن عبتك لله هي التي تقود حياتك ، وليس حبك لشهواتك...

إحذر من أن تحتفظ بهذه الخطية المحبوبة وتقول للرب :

أحبك يارب من كل قلبي . لكن أترك لي هذه النقطة وحدها .

فقولك هذا يدل على أنك لا تحب الله من كل قلبك ، إذ يوجد له منافس في قلبك هو هذه الخطية بالذات . وأنت تحبها أكثر مما تحب الله .

وكأن الله يقول لك : قد وضع لك الآن الميدان الحقيقي الذي ينبغي لك أن تحارب فيه ، وهو هذه النقطة بالذات .

إن الشيطان لا يحاربك في كل الخطايا ، إنما يختبرك أولاً .

يرى في أرضك ، ويجسها ، ويعرف ما هي نواحي الضعف فيها . وبكل ذكاء يعرف في أي الخطايا يحاربك ، وفي أيها تكون أسهل سقوطاً ، وأكثر إستجابة له ...
وعليك أن تكون صريحاً مع نفسك ، وتفحصها وتعرف من أين تسقط . وإن لم تستطع أن تهرب وتبعد عن العثرات ، إحترس في هذه النقطة بالذات ، بكل حيطة . واطلب من الرب معونة ليقف معك في حروبك .

ولا تضع لنفسك برنامجاً روحياً طويلاً لتسير فيه .

إنما ركز في الميدان الأساسي ، سواء بالهروب أو بالحروب ...

في النقط التي تعكر نقاء قلبك وصفاء روحك ، والتي هي ميدان هزيمة لك في الماضي . وتحذ في جهادك درساً من داود النبي .

لا تقل أنا انتصرت على جليات الجبار وهزمته ، وانتصرت على الدب والأسد وانتزعت منها الفريسة . وانتصرت كذلك في مطاردة شاول لي . إحتملته وانتصرت على نفسي ... لا تقل هذا ، إنما قل : ميدان حربي هي بشيع . وهناك يجب أن أنتصر .

وليكن الرب معك ...

اهتم بأبديتك واحسب حساب النفقة

يا إخوتي ، طريقنا الروحي طريق طويل . العمر كله لا يكفيه .
ينبغي أن نعرف تماماً : ما هو المطلوب منا ؟ وهل نحن نسير في الطريق ،
ونتقدم فيه خطوة خطوة ، كل يوم ، نحو الهدف ... أم نحن لم نبدأ بعد ؟ أم سرنا
خطوات ووقفنا ؟ وهكذا فلنحسب من الآن حساب النفقة ، ساهرين على خلاص
نفوسنا ...

المطلوب منا ليس مجرد الإيمان العادي ، إنما حياة القداسة ، فيقول الرسول :
نظير القدوس الذي دعاكم ، كونوا أنتم أيضاً قديسين (١ بط ١ : ١٥) .
« مكملين القداسة في خوف الله » (٢ كو ٧ : ١) . نعم نحن مطالبون بهذه
« القداسة التي بدونها لا يعاين أحد الرب » (عب ١٢ : ١٤) .

على أن هذه القداسة ليست هي آخر المطاف ، إنما ينبغي إن وصلنا إليها أن
ننمو فيها ... وإلى أي حد ننمو؟ ... ننمو حتى نصل إلى الكمال ، حسب وصية الرب
القائل :

كونوا كاملين ، كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل (متى ٥ :
٤٨) . فهل نحن قد وصلنا إلى هذه القداسة وإلى هذا الكمال ؟ والمعروف أن الكمال
النسبي هو درجات ... يسعى فيها نحو الغرض جميع الكاملين منا (في ٣ : ١٤ ،
١٥) . وإلى أي حد يسعون ؟ ... إلى الحد الذي يقول فيه الرسول :
« ... لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله » (أف ٣ : ١٩) .

صدقوني ، لقد وقفت أمام هذه العبارة منذها ، حينما قرأتها أول مرة ... ! ثم
أعدت القراءة ، فإذا الرسول يقول « وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة ، حتى
تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو . وتعرفوا
محبة المسيح الفائقة المعرفة ، لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله » (أف ٣ : ١٨ ، ١٩) .

عن محاضرتين : الأولى (الطريق الطويل) أقيمت في مؤتمر الأصدقاء بكنيسة مارمرقس
بشبرا يوم ١٩٦٣/٢/٢٤ . والثانية (حساب النفقة) أقيمت في الكاتدرائية يوم ١٩٦٩/١٠/٣١ .

هنا وأصمت ... لأنه ماذا يمكن أن أقول ؟ ولكنني أتذكر أن الرسول لم يطالبنا فقط بأن نسلك حسب الروح (روم ٨ : ١) . وإنما قال :
إمتثلوا بالروح (أف ٥ : ٨) .

ما هو كنه هذا الإمتلاء بالروح ؟ أنا يارب لست أعلم ... هل معناه في بساطة أنه لا يوجد شيء في كياننا يكون خالياً من الروح بل هذا الملاء يشمل كياننا كله ... ؟ إن حدث هذا لنا ، أترانا حينذاك كيف نسلك ؟ يقول الرسول إن المطلوب منا هو أن نسلك كما كان المسيح يسلك على الأرض في تجسده .

« من قال إنه ثابت فيه ، ينبغى أنه كما سلك ذلك ، يسلك هو أيضاً »
(١ يوحنا ٢ : ٦) .

من يستطيع هذا ، مها حاول ؟
حقاً ما أعلى هذه المرتفعات التي يريد الروح أن يقتادنا إليها ، لنكون « صورة الله ومثاله » (تك ١ : ٢٦ ، ٢٧) .
إنه وضع من النمو الدائم ، لا يقف عند حد ...

قلت يوماً إنه يشبه من يطارد الأفق .
ينظر إنسان إلى الأفق ، فيراه هناك في آخر الطريق . فيذهب إلى آخر الطريق ، فيرى الأفق عند الجبل ، حيث تبدو السماء منطبقة على الأرض ... فيذهب إلى الجبل ، فيرى الأفق بعيداً عند البحر . فيذهب إلى البحر ، فيراه ممتداً بعيداً ... إلى غير حدود ... هكذا حياة الكمال .

ولأجل هذا قال القديسون عن أنفسهم إنهم خطاة .
نقرأ عن آباء البراري ، الذين ارتفعوا جداً في حياة الروح ، فنرى أنهم كانوا يجلسون في قلايهم ويبكون على خطاياهم ... وحتى الرسل القديسون كانوا أيضاً يتحدثون عن خطاياهم . ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك قول بولس الرسول « الخطاة الذين أولهم أنا » (١ ق ١ : ١٥) . فإن كان بولس الرسول أول الخطاة . فإذا نقول نحن عن أنفسنا ؟ !

إن مثال بولس الرسول يجعلنا ننسحق جداً .
بولس الرسول الذي تعب أكثر من جميع الرسل (١ كو ١٥ : ١٠) ، الذي كرز

في بلاد عديدة، وكتب ١٤ رسالة لأجلنا، الذي صنع آيات عجيبة ومعجزات... ومن كثرة الاستعلانات، أعطى شوكة في الجسد، لكي لا يرتفع (٢ كو ١٢ : ٧). بولس هذا الذي صعد إلى السماء الثالثة، وسمع كلمات لا ينطق بها (٢ كو ١٢ : ٤). بولس هذا يقول عن نفسه: «ليس أنى قد نلت... ولكنى أسعى لعلى أدرك... أنا لست أحسب نفسى أنى قد أدركت. ولكنى أفعل شيئاً واحداً...» (في ٣ : ١٢، ١٣). وما هذا الذي تفعله؟ يجيب:

أنسى ما هو وراء، وأمتد إلى ما هو قدام.

يتمد إلى قدام!! إلى أين؟ هل هناك ما هو أكثر من السماء الثالثة؟ وهذه الحياة المملوءة بالكرازة والقداسة والمعجزات!؟... وإن كان بولس على الرغم من كل ما وصل إليه، يقول «أسعى نحو الغرض» (في ٣ : ١٤). فإذا نقول نحن الذين لم ندرك شيئاً مما قد أدركه هذا القديس العظيم!؟ إننا لم نسلك بعد في محبة الله، ولا حتى في طاعته. لم نتصرف كأبناء محبين، ولا حتى كمبيد أمناء مخلصين...

بل إننا لم نصل إلى درجة (عبيد بطالين).

هوذا الرب يقول «متى فعلتم كل ما أمرتم به، فقولوا إننا عبيد بطالون» (لو ١٧ : ١٠). لأننا مانزال في حدود الأوامر، لم نرتفع بعد فوق الناموس، إلى درجة الحب... الحب الذى يبذل كل شيء... الذى يخسر كل الأشياء - وهو يحسبها نفاية - لكي يربح المسيح (في ٣ : ٨).

إن كان هكذا حال الذى يقف عند حدود تنفيذ الوصية... فإذا يقال عن الذى يخطيء ويكسر الوصية!؟ إنه ليس عبداً لله على الإطلاق، لا عبداً صالحاً ولا بطالاً، بل هو مقاوم لله، وعبد لإبليس...

أقول لك هذا، لكي تعرف نفسك، ولكي تعرف ما هي المرحلة التي قطعتها في الطريق إلى الله... لتلا تظن، إذا صليت زمورين، أنك قد وصلت!!

إذن إعرف يا أخى أين أنت. واهتم بخلاص نفسك.

إن لك نفساً واحدة لا تملك غيرها. إن رحمتها رحمت كل شيء. وإن خسرتها خسرت كل شيء. لأنه ماذا يمكن أن تأخذ من العالم عوضاً عن نفسك؟ وهوذا الرب يقول عبارته الخالدة:

ماذا ينتفع الإنسان ، لوربح العالم كله وخسر نفسه . (متى ١٦ : ٢٦) ...
إجلس إذن إلى نفسك . وافحص حياتك جيداً : هل أنت سائر في الطريق أم
لا ؟ وهل تفرص على أبديتك ، أم قد ضيعت نفسك ... وضاعت أيامك التي كان
ينبغي أن تستخدمها في معرفة الله ، وفي محبته ، وفي النمو الروحي ، حتى تدرك الغاية
التي من أجلها أدركك المسيح ...

يا أخى إن الطريق طويل قدامك ، وأنت لم تبدأ بعد .
الطريق يبدأ بالخافة ، لأن « بدء الحكمة مخافة الله » (أم ٩ : ١٠) . والخافة
بالتدرج تقود إلى المحبة ... ولكنك إلى الآن لم تصل إلى مخافة الله ، لأنك مازلت
نكسر وصاياهم ... فتي تصل إلى المحبة إذن ؟!
وأنت لا تستطيع أن تصل إلى الله ، إلا إذا كنت تسلك حسب الروح . وإن
سلكت حسب الروح ، ستظهر ثمار الروح في حياتك .

وثمار الروح منهج طويل ، شرحه بولس الرسول .
فقال « وأما ثمر الروح فهو محبة ، فرح ، سلام ، طول أناة ، لطف ، صلاح ،
إيمان ، وداعة ، تعفف » (غل ٥ : ٢٢) .

والمحبة التي هي أولى هذه الثمار ، شرحها الرسول بالتفصيل في (١ كو ١٣) ،
ووضع لها حوالي أربع عشرة علامة . فهل وصلت إلى شيء منها ... ؟
ثم ماذا عن الصلاة وتفاصيلها ؟ وماذا عن الهذيد والتأمل وكل الوسائط
الروحية ... ؟ وماذا عن حروب الشياطين وكيفية الانتصار عليها ...

أنا لا أريد أن أثقل عليك بتفاصيل الحياة الروحية ، لأنني سأحدثك عنها
جميعها إن شاء الله في كتاب كبير إسمه [معالم الطريق الروحي] ... أما الآن فكل
ما أنصحك به ، هو أن تبدأ بالخطوة الأولى في العلاقة مع الله ، لأنه إن لم تبدأ بأول
خطوة ، فكيف تصل !؟

ونقطة البدء في علاقتك مع الله ، هي التوبة .
بها تصطليح مع الله وترجع إليه . أى تنتقل من خارج الدائرة إلى داخلها . ثم
تحملك النعمة وتعبر بك درجات الطريق . وهكذا تنتقل من خطوة التوبة ، إلى
النقاوة ، إلى القداسة ، إلى الكمال النسبي ، إلى النمو في هذا الكمال ...
أترى أن تبدأ الطريق وتخطو إلى التوبة . ضع أمامك هذه القاعدة :

إِقَاتِن مَحَبَّةَ اللَّهِ تَتَطَرَّدُ مِنْكَ مَحَبَّةُ الْخَطِيئَةِ

الإنسان لا يستطيع أن يعيش في فراغ عاطفي .
فهو إما أن يملأ قلبه بمحبة الله ، أو أن يمتلئ هذا القلب بمحبة العالم والجسد .
« ومحبة العالم عداوة لله » (يع ٤ : ٤) .

نقطة أخرى ، وهي أن محبة الله أقوى وأعمق من أية محبة أخرى ، لذلك إن
أدخلتها في قلبك ، فإنها حتماً ستطرد كل الشهوات الأخرى منه . وصدق ذلك
القديس الذي قال :

التوبة هي استبدال شهوة بشهوة .

أى بعد أن كنت تشتهى العالم والجسد والخطية ، أصبحت كل شهواتك
روحية ، مركزة في الله والحياة معه . فلا يكن قلبك إذن خالياً من حب الله
وملكوته ، لئلا تسكنه محبة الخطية . واحفظ هذا الميزان سليماً داخل قلبك . لا تجعل
كفة العالم ترجح بتأثيرات كثيرة من النظر والسمع والقراءة والخلطة المعثرة... إنما
استخدم بكل قوة جميع الوسائط الروحية المتاحة لك ، التي تعمق محبة الله في عقلك .

وثق أن الخطية لا تستطيع أن تدخل قلباً يحب الله .

ولا نقصد بالإنسان الذي يحب الله ، مجرد ممارسته للوسائط الروحية كالصلاة
والصوم والقراءة الروحية وحضور الكنيسة والإعتراف والتناول . إنما يهمننا قبل كل
شيء أن تكون هذه الوسائط الروحية نابعة من حب داخلي في القلب .

فالدين هو الحب : حب لله ، وحب للخير ، وحب للغير .

وإن لم يوجد هذا الحب ، يفتر القلب ، ويفقد الشعلة الروحية التي تسلمها من
روح الله يوم عرفه . وقد يتطور الفتور إلى خطية ، مهما كانت لهذا الإنسان خدمة في
الكنيسة ، ومهما كان طاقة من النشاط والحركة .

عن محاضرة بعنوان (الحب وليس الممارسات) أقيمت في الكاتدرائية الكبرى يوم الجمعة

بدون محبة الله داخلك ، لا تستطيع أن تتوب .

وان تركت الخطية ، لا يكون تركاً حقيقياً عن نقاوة قلب . وإنما قد تكون مجرد إجراءات خارجية لصلح شكلى مع الله ، أو خوفاً من غضبه وعقوبته...
كإنسان يخاف أن يعاقبه الله ، ويخاف أن تدخله الخطية إلى جهنم ، فلكى يتق الله وعقوباته ، يدخل فى الدين . ويسمى هذه (تقوى) أى إتقاء لله وغضبه...
وهذا الخوف ، قد يبعد عن الخطية بالعمل ، ولكن لا تبعد الخطية عن قلبه .
ويظل القلب مقلقاً ، لليمين واليسار ، ولا يستقر إلا بالحب .

التوبة إذن ، هى تحويل مشاعر القلب بالحب نحو الله . وكل الممارسات الروحية كالصلاة والصوم لا تكون قائمة بذاتها ، إنما ملتصقة بهذا الحب . فالصلاة بغير حب الله ، ليست هى صلاة بالحقيقة . وكذلك الصوم . وكذلك حضور الكنيسة والتناول .

فأنت تصلى وتقول « عطشت نفسى إليك » « باسمك أرفع يدى ، فتشيع نفسى كما من شحم ودسم » (مز ٦٢) ، « محبوب هو إسمك يارب ، فهو طول النهار تلاوتى » (مز ١١٩) .

وأنت تقرأ فى الكتاب وتقول « وجدت كلامك كالشهد فأكلته » .
وأنت تذهب إلى الكنيسة وتقول « مساكنك محبوبة أيها الرب إله القوات .
تشتاق وتذوب نفسى للدخول إلى ديار الرب » (مز ٨٣ : ١) .
هذه المشاعر تجد لذة فى التوبة . ونوبتك تستمر وتستقر .

أما إن لم يوجد فيك هذا الحب ، فحتى إن تركت الخطية ، ما أسهل أن تحاربك لترجع إليها... لماذا ، لأنك لم تجد فى الحياة مع الله شبعك . لم تجد فى حياة التوبة ما يملأ قلبك ، وما يملأ عواطفك ومشاعرك ، وما يحفظك من القاس الحب فى الخارج .

أنا أعرف أنك تريد التوبة ، ولولا ذلك ما كان هذا الكتاب بين يديك الآن... بل ربما تظن أنك بدأت التوبة فعلاً ، من أجل أنك تمارس وسائل روحية . ومع ذلك فأنت :

تصلى وتصوم ... ولا تشعر أن محبة الخطية قد فارقتك !

فلماذا ؟ ... كلنا نؤمن بفوائد الوسائط الروحية ، ولكن على شرط أن تمارسها بطريقة روحية... فإن كنت تصلى وتصوم وتقرأ الكتاب ، وتجد في ذلك شيئاً روحياً ، ولذة وتعزية وفرحاً ، ويقودك كل هذا إلى تعميق محبتك لله ... إذن فأنت سائر على الدرب . ومن سار على الدرب وصل .

إن لم تعيش في التوبة بهذا الحب ، تكون تائهاً ...

لا بد إذن أن تقتنى محبة الله ، التي تستطيع أن تطرد من قلبك محبة الخطية . لا بد أن تعرف المسيح ، لكي تستطيع أن تترك الجرة عند البئر (يوحنا ٤) .

فإن لم يكن لك هذا الحب ، أطلبه في صلاتك بكل لاجحة ... هي صلاة تقولها في كل وقت ، من كل قلبك ، ومن كل فكرك ، ومن عمق أعماقك :
أعطني يارب أن أحبك ...

إنزع محبة الخطية من قلبي ، واعطني محبتك ...

وابحث عن كل الوسائط التي تساعدك على محبة الله ...

ليست كل قراءة تنفعك . ولكن هناك قراءات روحية تؤثر كثيراً في قلبك ، وتمس مشاعرك ، وتدفعك إلى محبة الله ... وكذلك هناك ترانيم معينة تشعل مشاعرك الروحية . وهناك أماكن مقدسة تؤثر فيك ، وأشخاص محبوبون لله ، تراهم فتحب الله مثلهم ... بكل هذا وأمثاله ، التصق بكل قوتك .

وابعد عن كل شيء ، به تبعد محبة الله عن قلبك .

كن حريصاً على هذه المحبة كل الحرص . لأنها هي التي تطرد منك محبة الخطية . بل كلما زادت محبة الله فيك ، حينئذ ينفرد قلبك من الخطية ، ويشمئز منها ، ويندم على أيامه الأولى التي عاشها في الخطية . وهذا يكون الله قد وهب قلباً جديداً ... قلباً يحب الله ، غير القلب القديم تماماً .

وفي هذا القلب المحب لله ، تعبد الله بفرح ، ولا تجد صعوبة في حفظ وصاياه . بل تغنى مع يوحنا الحبيب قائلاً :

هذه هي محبة الله أن نحفظ وصاياه . ووصاياه ليست ثقيلة (١ يوحنا ٥ :

٣) . ولماذا ليست ثقيلة ؟ لأنك تعيش فيها بفرح ، بحب ، من غير صراع داخلي يتعبك . إذ لا تجد ناموساً آخر في أعضائك ، يحارب ناموس ذهنك ، ويسبيك إلى

الإنسان الذي يحب الله ، يجد لذة في تنفيذ وصاياه .
ويجد لذة في عمل ما يرضيه . ولا يسمح لنفسه أبداً أن يفضيه . كإنسان يحب
أباه وأمه ، ويجد لذة في إرضائها ، وكسب بركاتها ورضائها ، ولا يسمح لنفسه أن
يفضيها في شيء .

إن وصلت إلى هذا الشعور ، يمكنك أن تتوب بسهولة .
ولكن بدون محبة الله ، تجد التوبة صعبة وثقيلة . ولا تشعر برغبة في ترك
الخطية ، إذ لا توجد محبة أعمق تحمل محلها .
إبحث إذن عن هذه المحبة الأعمق . واسلك في كل الوسائط التي توصلك إليها .
وحيث لا يمكن أن تجد التوبة صعبة ، ولن تجد الوصية ثقيلة .

ولكن متى تجد التوبة صعبة والوصية ثقيلة ؟

تجدها كذلك إن كانت محبة الله ليست كاملة في قلبك ، أو لم تصل إلى شيء
منها بعد... وأيضاً حينما تكون محبتك للخير غير كاملة ، أو لم تصل إليها بعد...
ولذلك فأنت حينما تحاول أن تتوب ، تصارع محبة مضادة في داخلك . وتضغط
على إرادتك ، وعلى قلبك وعواطفك... وتحاول أن تهرب من صور أثيمة راسخة في
عقلك الباطن وفي ذاكرتك ، تشدك إلى أسفل ، بعيداً عن الله .
ولكنك إذا أحببت الله ، حينئذ لا تستطيع أن تخطيء ، والشرير لا يمك
(١ يو ٣ : ٩ ، ٥ : ١٨) .

وحيث لا تكون الوصية ثقيلة ، بل تكون الخطية ثقيلة .

الخطية هي التي تصير صعبة ، مهما حاول العدو أن يضغط على إرادتك ، تقاوم
وترفض أن تخطيء ، وتقول من كل قلبك « كيف أخطيء ، وأفعل هذا الشر العظيم
أمام الله !؟ » (تك ٣٩ : ٩) .

وتجد وصية الرب مفرحة ، ومضيئة تنير العينين (مز ١٩) .

وتصبح التوبة سهلة عليك ، وتصل منها إلى نقاوة القلب .

ولكن لعلك تسأل : كيف يمكنني أن أصل إلى محبة الله هذه ، التي تطرد مني

محبة الخطية ؟ ...

هناك وسائل توصلك إلى محبة الله ، منها :

إقرأ كثيراً في سير القديسين الذين أحبوا الله من كل قلوبهم ، وبذلوا كل شيء من أجله . وخسروا كل الأشياء من أجل فضل معرفته ، لكي يوجدوا فيه ...
واقراً كتباً كثيرة عميقة عن الفضيلة ، لكي تثير محبة الخير في قلبك ، فترك ما أنت فيه ...

واقراً قصص التوبة والرجوع إلى الله ، فهي مؤثرة جداً ونافعة لك ...
وتذكر الموت والدينونة والملكويت الأبدى ، لكي تشعر بتفاهة الخطايا التي تحاربك ، بل وتفاهة العالم كله ...
وتذكر كم أحبك الله طول حياتك وأحسن إليك . فإن هذه الذكريات الحلوة تثير فيك مشاعر الحب والعرفان بالجميل من نحو الله . فتحبه لأنه أحبك قبلاً ...
وماذا أقول ؟ ليتك تقلب هذه الصفحات من الكتاب ، وتعيد قراءة ما كتب فيه عن دوافع التوبة ...

ومع ذلك فلنكن متصلين إلى التوبة ، عليك أن تصارع مع الله ، ليعطيك محبته ، أو ليعطيك قلباً جديداً يحبه . وكيف ذلك ؟

صارع مع الله وخذ منه معونه

أنت تريد أن تتوب ، وتنتصر على خطاياك . حسناً تفعل . ولكن ضع أمامك هذه القاعدة الهامة ، وهي :

النصرة على الخطية ليست مجرد عمل بشري .

١ - أولاً ، لأن الخطية قوية ، لها هذه القوة التي بها « طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلها أقوياء » (أم ٧ : ٢٦) . فهل هذه الخطية التي أسقطت آدم وشمشون وداود وسليمان ، تستطيع أنت أن تحاربها بمفردك ، بدون معونة إلهية ؟! محال ...

٢ - هذه الخطية قد أخذت سلطاناً عليك ، حينما أسقطتك من قبل .

٣ - إنها لا تقتصر على الحرب الخارجية ، إذ تجذب لها أيضاً إستجابة في داخلك ، تجعل الحرب مزدوجة .

٤ - هذا هو تعليم الكتاب القائل « إن لم يحرس الرب المدينة ، فباطل هو سهر الحارس » (مز ١٢٧ : ١) . بل هذا قول المسيح نفسه :

بدونى لا تقدرون أن تعملوا شيئاً (يو ١٥ : ٥) .

٥ - كل عمل تعلمه بمفردك ، دون أن يشترك الله معك ، غالباً ما تفشل فيه . وحتى إن نجحت ستنسبه إلى نفسك ، ويحاربك المجد الباطل ، معتقداً أنك بقوتك قد انتصرت .

والمعروف أن الإضعاف هو من أقوى الأسلحة التي ينهزم بها الشياطين . وقد استخدمه القديس الأنبا أنطونيوس ، حينما كان يقول لهم « أنا أضعف من أن أقاتل أصغركم » . ثم يصرخ إلى الرب قائلاً « إنقذنى يارب من هؤلاء الذين يظنون أنهم شيء » ...

(١) عن محاضرتين هما الجزء الثاني من سلسلة (البيقظة الروحية) ، ألقينها بتاريخ ١٩٧٠/١١/١٣ ، ١٩٧٠/١١/٢٠ ، ومحاضرة ثالثة موضوعها (الجهاد مع الله) بتاريخ ١٩٧٥/٣/٢٨ . ومحاضرة رابعة موضوعها (حياة الانتصار ، والحرب للرب) بتاريخ ١٩٧٩/٤/٦ . وكلها محاضرات ألقيت في الكاتدرائية الكبرى .

٦ - وقد أثبتت خبراتك الماضية ، فشلك في التوبة بمجهودك .

كم مرة حاولت أن تقوم وسقطت مرة أخرى . كم مرة عاهدت الله على التوبة ، ووعدته وعوداً ، وقلت في تصميم لن أفعل هذه الخطيئة مرة أخرى . بل أحياناً كنت تستنزل الويلات على نفسك وتقول : إمرضني يارب إن فعلت هذه مرة أخرى . كنت تقول هذا ، كما لو كان الأمر في يدك وفي إمكانك . ونصيحتي لك ، بدلاً من أن تقول : أعدك يارب أن أتوب .

الأجدر بك أن تقول للرب : توبني يارب فأتوب (أر ٣١ : ١٨) .

أطلب منه التوبة كعطية صالحة من عنده ، لأنه هو نفسه وعد بهذا ، وقال « أعطيك قلباً جديداً ، وأجعل روحاً جديدة في داخلكم ... وأجعل روحي في داخلكم ، وأجعلكم تسلكون في فرائضي » (حز ٣٦ : ٢٦ ، ٢٧) (١) . فتمسك بوعده المقدس هذا ، واطلب منه أن يمنحك هذه التوبة ، ويعطيك القلب الجديد ، ويجعلك تسلك في وصاياه ...

وهذا ما تعلمنا إياه الكنيسة في صلوات الساعات .

ألسنا نقول في المزمور الخمسين « إنضح عليّ بزوفاك فأطهر ، واغسلني فأبيض أكثر من الثلج » . إذن الله هو الذي يغسلك فتبيض ، ولست أنت القادر على غسل نفسك ... وفي كثير من المزامير نقول : خلصني يارب . إحفظني . علمني طرقك ... وفي صلاة الساعة الثالثة نقول « طهرنا من كل دنس أيها الصالح وخلص نفوسنا » « طهرنا من دنس الجسد والروح . وانقلنا إلى سيرة روحانية ، لكي نسمى بالروح ولا نكل شهوة الجسد » ... وهذا ما نقوله أيضاً في القداس الإلهي :

طَهَّرْ نَفُوسَنَا وَأَجْسَادَنَا وَأُرُوحَانَا ...

ونكرر هذه العبارة في القداس أكثر من مرة ... إذن فنحن نتعلم من الكنيسة أن التوبة والطهارة والنقاوة ، ليست مجرد نتيجة مجهود منا ، إنما نحن أيضاً نطلبها من الله في صلواتنا ...

وكأن الإنسان يقول لله : أنا عاجز يارب عن تطهير نفسي . فقم أنت بهذا العمل حسب سابق وعدك ... « قم أيها الرب الإله ... » « قم يارب خلصني يا إلهي ... » .

(١) انظر فصل (قلباً جديداً) في كتاب (كيف نبدأ عاماً جديداً) ... من صفحة ٢٧ إلى

وهنا تظهر أهمية الصلاة في الوصول إلى التوبة (١) .

مار اسحق ركز عليها وحدها ، لدرجة أنه قال : من كان يظن أن له طريقاً آخر للتوبة غير الصلاة ، فهو مخدوع من الشياطين .

أما أنت ، فعلى الأقل في كل جهادك ، لا تكن معتمداً على قوتك ، ولا على ذكائك ، ولا على إرادتك وتداريك ، فأنت وحدك بدون معونة من الله ، لن تصل إلى التوبة بمجهودك الخاص .

قل له يارب أنا محتاج إليك ، وبدونك لا أستطيع شيئاً .

الإرادة حاضرة عندي . ولكن أن أفعل الحسنی لست أجد .

« الشر الذي لست أريده إياه أفعل » (رو ٧ : ١٨ ، ١٩) « ضللت مثل

الخروف الضال ، فاطلب عبدك » (مز ١١٩) . ألسنت أنت القائل « أنا أرعى

غنمي وأربضها - يقول السيد الرب - وأطلب الضال ، وأسترد الطرود ، وأجبر

الكسير ، وأعصب الجريح » (حز ٣٤ : ١٥ ، ١٦) . هوذا أنا هذا الضال الكسير

والجريح ، فاطلبنى واستردنى واعصبنى ...

أنا يارب قد وصلت إلى حالة من الضعف والعجز ، لست أستطيع فيها أن

أعدك بأن أتوب . وإن وعدتك قد أخلف وعدى .

لست أعدك ، إنما أطلب وعداً منك بأن تخلصني من الخطية .

ألست أنت القائل « تعالوا إلیّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال ، وأنا

أريحكم » (متي ١١ : ٨) . نعم ، أنا يارب محتاج أن تربحني من هذا الحمل الثقيل .

ألم تقل إن « ابن الإنسان جاء يطلب ويخلص ما قد هلك » (لو ١٩ : ١٠) .

إنني أنا المحتاج إلى هذا الخلاص منك ...

ليس فقط الخلاص من الدينونة ، إنما الخلاص من الخطية ذاتها .

لقد أسموك « يسوع » أي المخلص ، لأنك تخلص شعبك من خطاياهم (متي

١ : ٢١) . خلصني إذن من خطاياي . ليتني أسمع منك قولك المعزى « من أجل

شقاء المساكين وتهد البائسين ، الآن أقوم - يقول الرب - أصنع الخلاص علانية »

(مز ١١) .

(١) أنظر كتاب (الرجوع إلى الله) من صفحة ٥٣ إلى صفحة ٥٦ - الفصل الذي عنوانه

(الصلاة هي وسيلة للرجوع) ، وأيضاً صفحة ٨٥ ، ٨٦ .

هكذا تعلم يا أخى الصراع مع الله لأجل التوبة .
صارع مثل غريق وجد أمامه قارب نجاه . صارع مثل يعقوب الذى قال للرب
« لا أطلقك إن لم تباركنى » (تك ٣٢ : ٢٦) . قل له : أنا يارب جربت نفسى ،
وعرفت ضعفها وعجزها أمام الخطية . بقى أن تتدخل أنت .

لا تلمنى يارب من أجل ضعفى . إنما إنقذنى من هذا الضعف .
بدلاً من أن تديننى لأنى نجس ، طهرنى من هذه النجاسة ...
أنت قد أعطيتنى وصايا لكى أنفذها ، فاعطى أيضاً القوة التى أنفذ بها هذه
الوصايا . أعطى المقاومة التى أقام بها الشيطان . واعطى محبتك التى تطرد من قلبى
عبء الخطية .

واثبت يا أخى فى صلاتك ، فهى طريقة مضمونة إلى التوبة .

فالإنسان الذى يعرف الصلاة القوية ، لا يعرف الهزيمة مطلقاً .
والإنسان الذى يُدخل الرب فى قتالاته وحروبه ، لا يمكن أن يهزم أبداً .
صارع إذن مع الله . خذ منه القوة ، والسلاح الروحى الذى تحارب به . خذ
منه الوعود الإلهية ، والقلب الجديد والروح النقية . خذ منه الإرادة والعزيمة . خذ
الإيمان الذى تحارب به ، والثقة فى أنك ستغلب .

ثق أنك إن انتصرت فى صلاتك ، ستنجح فى ميادين القتال كلها . إن نجحت
فى صراحك مع الله ، لن تقدر عليك أية قوة على الأرض ، بل تتمتع بالعبارة الجميلة
التي قالها الرب لأرميا الصغير :

يحاربونك ولا يقدرُونَ عليك ، لأنى أنا معك يقول الرب .

أنا معك - يقول الرب - لأنقذك (أر ١ : ١٩) . وحينئذ « يسقط عن يسارك
الوف ، وعن يمينك ربوات . وأما أنت فلا يقتربون إليك ... » (مز ٩٠) ... حقاً إن
« الرب يقاتل عنكم ، وأنتم تصمتون » (خر ١٤ : ١٤) ...

يقاتل عنكم فى حروبكم الخارجية . ويقاتل عنكم فى حروبكم الداخلية ، فى
القلب والفكر . لذلك فى كل حروبك الروحية ، ضع أمامك هذه القاعدة . إن الحرب
للرب .

الحرب للرب ... (١ صم ١٧ : ٤٧) .

وليس للرب مانع أن يخلص بالكثير وبالقليل « (١ صم ١٤ : ٦) .
لذلك لما حارب الشعب عماليق ، لم يكن هو الذى يحاربه بل الرب . وهكذا
قيل « للرب حرب مع عماليق » (خر ١٧ : ١٦) ... كذلك كل الخطايا التي
تهزمك ، للرب حرب معها . هو الذى يغلبها فيك ولست أنت ، لأنه قال « أنا قد
غلبت العالم » (يو ١٦ : ٣٣) .

إنتصارك الروحي إذن ، هو عن طريق الرب وحده . ولن تصل إلى التوبة ،
ولن تنتصر على خطية واحدة ، إلا عن طريق الرب . فتقول مع داود « قوتي هو
الرب وقد صار لي خلاصاً » (مز ١١٧) . وتقول مع بولس الرسول :
يعظم إنتصارنا بالذى أحبنا » (رو ٨ : ٣٧) .

إذن ليس انتصارنا بعزيمتنا أو باتكائنا على ذواتنا ، إنما بهذا الذى أحبنا ، ومن
عجبتنا لنا ، يقيمنا من سقطتنا بقوته ، و« يقودنا في موكب نصرته » (٢ كو ٢ :
١٤) . إن الله دائماً - كما يقول الرسول « يعطينا الغلبة بربنا يسوع المسيح » (١ كو
١٥ : ٥٧) .

فلا تتحول عنه إذن ، مركزاً كل جهودك للتوبة في ذاتك . إنما خذ القوة منه
لكي تتوب . واهتف مع معلمنا بولس قائلاً :

أستطيع كل شيء في المسيح الذى يقويني (في ٤ : ١٣) .

في المسيح إذن ، في قوته ومعونته ، تستطيع كل شيء . ونخرج المسيح لا
تستطيع شيئاً . إذن صارع معه أولاً ، قبل صراعتك مع الخطية ، مثلما صارع يعقوب
مع الله قبل أن يذهب لمقابلة عيسو . فلما غلب مع الله ، أصبح عيسو خفيفاً في
حملة ... أتقول ليعقوب إذهب أولاً إلى عيسو . يجيبك : هذا الشخص لا يقدر عليه إلا
الله . إذن أنا أذهب إلى الله أولاً ، وأخذه معي لمقابلة عيسو... هكذا تفعل مع
الخطية ...

بكل اتضاع قلب ، قل أنا أضعف من هذه الحرب .

« أنا أضعف من أن أقاتل أصغرهم » كما قال القديس الأنبا أنطونيوس . وإن
قال باراق قائد الجيش : إنه لن يذهب إلى الحرب ما لم تذهب معه دبورة النبية

(قض ٤ : ٨) ... فأنت أيضاً لن تقوى على الخطية بمفردك ما لم يحارب الله معك .
قل من أنا حتى أقف أمام الشياطين وحدي؟! أنا لست كفوفاً لهذا القتال .
وأنت يارب نصرقي . تعال واغلب العالم في قلبي كما غلبته من قبل ...
أنت تعرف يارب كل شيء . تعرف ضعف وهزيمتي .

تعرف أني لا أملك إرادة ولا قوة ولا عزيمة . بل أحياناً لا أملك مجرد الرغبة في
التوبة . ولا أعرف أن أحارب ، ولا أصمد على تجارب العدو . وباختصار لست
أعرف كيف أتوب . وإن عرفت لا أقوى . وإن قويت مرة أنهزم مرات .
إنتشلني كشمعة من النار مثل يوشع (زك ٣ : ٢) .

هذا الذي من أجل توبته ، وقف ملاك الرب ضد الشيطان الذي يقاومه ،
وقال له : لينتهرك الرب يا شيطان ، لينتهرك الرب . أليس هذا شعلة منتشلة من
النار؟ ... وانتشله الملاك من النار ، وألبسه ثياباً مزخرفة (زك ٣ : ١-٥) .

إن الله يحب هذا الصراع معه . والذين صاروا معه ، في الصلاة والطلبية ،
أخذوا منه قوة ... ولكن ...

قد يقول إنسان : صليت كثيراً ولم أتب .

لا يا أخى ، فكل صلاة توافق مشيئة الله لا بد تستجاب . والصلاة من أجل
التوبة توافق مشيئة الله ، ولكن ...

١ - ربما تكون فعلاً قد صليت . ولكن ليست الصلاة الخارجة من عمق
القلب ، التي تصارع مع الله برغبة صادقة في هذه التوبة ، وبدالة الإبن عند أبيه ...
٢ - أو ربما تكون قد صليت ، ولم تثبت في صلاتك . إنما قلت كلاماً ، ومللت
بسرعة! ولم تكن لك طول الأناة في الصلاة ... الصلاة التي تطلب ، وتنتظر الرب
في إيمان . الصلاة التي تتميز بالجهاد والإصرار واللجاجة والإلحاح ... مثلما طلب إيليا
من الرب . وكرر الصلاة مرات ، حتى نال الإستجابة في سبع مرة (١ مل ١٨ :
٤٤) . وانظر إلى يعقوب إنه صارح الرب « حتى طلوع الفجر » (تك ٣٢ : ٢٤) .
أى طول الليل ولم يمل ...

٣ - أو ربما صلاتك في غير إيمان ، وفي غير انسحاق قلب .

٤ - أو ربما الإستجابة السريعة ليست في صالحك ، كما قال القديس

باسيليوس .

أحياناً يتأخر الله علينا في استجابة الطلبة ، لكي نعرف قيمتها . لأن الأشياء التي نناها بسهولة ، قد نفقدها بسهولة .

فيشاء الله أن تذل بالخطية بعض الوقت ، حتى تعرف قيمة الخروج منها . وإذا أنعم عليك بالتوبة تشعر بفرح أعظم ، وتحرص عليها بكل قوتك ، لأنك لم تحصل عليها إلا بكل صعوبة وبعد وقت ... وحينئذ تكون في توبتك أكثر تدقيقاً ، وأكثر حرصاً وخوفاً من السقوط ...

٥ - أوعبا تأخير التوبة ، سببه أن الله يريد أن يعرف مدى جديتك في طلب التوبة ، ومدى ثباتك في الطلبة .

٦ - وقد يكون تأخير الاستجابة بسببك ... فأنت الذي لا تريد ... حقاً تطلب بفسك ، أما قلبك فلا يريد . وأنت الذي تضع معطلات للتوبة . ويناسبك قول الكتاب « إن سمعتم صوته ، فلا تقسوا قلوبكم » (عب ٣ : ٧) .

لذلك لا تطلب المعونة ، بينما تنام وتراخي .

فعمل الله من أجلك ، ليس تشجيعاً لك على التهاون والكسل ، إتكالاً على عمل الله ! الله يريدك أن تعمل معه . هو يعمل لتوبتك ، وأنت تشترك معه . هو يقدم لك المعونة ، وأنت لا تضع المعطلات بإرادتك ، ولا تترك أبوابك مفتوحة للخطية ... وباختصار أدخل بكل إمكانياتك - مهما كانت ضئيلة - في شركة مع الروح القدس (٢ كو ١٣ : ١٤) .

قدم رغبتك أولاً ، وقدم استسلامك لعمل الله فيك . وقدم ما تستطيعه من عمل .

ومع ذلك لا تتضايق . لقد خلص الله كثيرين لا قدرة لهم على عمل

شيء ...

هناك أشخاص لم يعملوا شيئاً : نازقة الدم مست هدب ثوبه في إيمان . وصاحب اليد اليباسة ، قال له الرب مد يدك فدها . والمولود أعمى طلب إليه أن يغتسل في بركة سلوام فذهب واغتسل (يو ٩ : ٧) .

ولكن غير هؤلاء من لم يستطيعوا أن يعملوا شيئاً ، مثل المفلوج الذي دلوه من السقف (مر ٢ : ٤) . ومثل الجريح الذي حمله السامري الصالح ، وكان ملق على الطريق ما بين حى وميت (لو ١٠ : ٣٠) . ومثل مريض بيت حسدا ، الذي

استمر ثمانى وثلاثين سنة عاجزاً عن الوصول إلى الشفاء (يو ٥ : ٥) . وكذلك كل أصحاب العاهات المستعصية...

ماذا فعل هؤلاء ، من أمثال المفلوج وأشباهه ؟ لا شيء .

وبالمثل كل الموق الذين أقامهم السيد المسيح ...

أكان باستطاعة الميت أن يفعل شيئاً ، ليتخلص من الموت !؟ كلا . بلا شك .
والخاطيء يعتبر ميتاً ... ميتاً بالخطية (أف ٢ : ٥) . له إسم أنه حى ، وهو ميت (رؤ ٣ : ١) . إن كان لا يستطيع شيئاً ، فالمسيح قادر أن يقيمه .

لذلك لا تيأس ولا تقلق . إن كل هذه الأمثلة فى رموزها تعطينا فكرة عن أن :

الله يبحث عن خلاص الخطاة ، الذين يقدرون والذين لا يقدرون .

الذى يقدر كالإبن الضال ، الذى يستطيع أن يرجع إلى بيت أبيه . والذى لا يقدر مثل الخروف الضال والدرهم المفقود . وقد ورد ذكر الثلاثة فى أصحاب واحد (لو ١٥) . وللرب فى غير القادرين شرط واحد ، وهو أنهم لا يقاومون عمله لخلاصهم ...

ومن أمثلة الذين لا يقدرون « العاقر التى لم تلد » (أش ٥ : ١) . وكانت رمزاً للنفس العقيمة التى لا تعطى ثمراً للروح . وقد جعلها الله مخصبة أكثر من ذات البنين ...

بل هناك أشخاص خلصهم الله دون أن يطلبوا ...

مشال لوط الذى قبل الرب شفاعته إبراهيم فيه ، فأخرجه من سدوم ، بينما لوط نفسه لم يطلب ... ولما أخبره الملاك أن سدوم ستحترق كان متباطئاً فى الخروج . ويقول الكتاب فى ذلك « كان الملاك يمجلان لوطاً ... ولما توفى ، أمسك الرجلان بيده ويبد امرأته ويبد إبتنيه ، لشفقة الرب عليه ، وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة » (تك ١٩ : ١٥ ، ١٦) .

إن عبارة « لشفقة الرب عليه » عبارة معزية ، ولا شك .

الله الذى أشفق على كل هؤلاء ، هو أيضاً فليشفق عليك ، ولينحك التوبة من عنده ، ويقودك إليها ، وينزع منك قلب الحجر ويعطيك قلباً جديداً (حز ٣٦ : ٢٦) .

مبارك هو الرب فى كل أعمال محبته ، وفى سعيه لخلاص الكل ...

علامات التوبة

- ثم ارتليق بالتوبة :
- الاعتراف بالخطأ .
 - الحزى والتجمل .
 - الندم والألم والدموع .
 - الإنسحاق والإتضاع .
 - إصلاح نتائج الخطأ .
 - الإشفاق على المخطئين .
 - مشاعر أخرى .
 - الحرارة الروحية .
 - السير في الحياة الفاضلة .
 - النقاوة .

ثمار توبوا بالتوبة

إن القديس يوحنا المعمدان الذي نادى قائلاً « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (متى ٣ : ٢) . نادى مع هذه العبارة قائلاً « إصنعوا أثماراً تليق بالتوبة » (متى ٣ : ٨ ، لوقا ٣ : ٨) .

وهذا ما فعله القديس بولس الرسول أيضاً الذي كان ينادى جميع الذين كانوا في كورة اليهودية ثم الأمم « أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله ، عاملين أعمالاً تليق بالتوبة » (أع ٢٦ : ٢٠) .

التوبة إذن ليست مجرد عمل قلبي ، إنما هناك أعمال وأثمار تليق بها وتدل عليها . وكما قال الكتاب « من ثمارهم تعرفونهم » (متى ٧ : ١٦ ، ٢٠) .

فما هي هذه الثمار التي تدل على أن الإنسان تائب ؟

نود أن نتناولها في هذه الصفحات واحدة فواحدة ، لكيما يختبر بها كل إنسان نفسه : هل هو تائب أم لا ؟ ويعرف بها مدى صدق توبته ...

١- الاعتراف بالخطأ^(١)

والاعتراف بالخطأ ، يشمل أربع نقاط هامة وهي :

أ - الاعتراف بالخطأ على الله في الصلاة :

ذلك لأن الخطيئة موجهة أصلاً إلى الله ، كما اعترف داود النبي في المزمور الخمسين قائلاً للرب « لك وحدك أخطأت » (مز ٥٠) . ومثل اعتراف دانيال النبي « أخطأنا وأثمننا ، وعملنا الشر قدامك ، وتمردنا وحدنا عن وصاياك » (دا ٩ : ٥) . ومثل اعتراف نحميا قائلاً « أنا وبيتي قد أخطأنا . لقد أفسدنا أمامك ، ولم نحفظ الوصايا والفرائض والأحكام التي أمرت بها موسى عبدك » (نح ١ : ٦ ، ٧) . وهكذا أيضاً اعترف عزرا الكاتب (عز ٩ : ٦) .

(١) من محاضرة بتاريخ ١٩٦٨/٢/٢٤ مع محاضرات أخرى .

أنت أخطأت إلى الله . إلى قلبه الحنون ، وإلى عظمته .

أخطأت إلى القلب المحب العطوف الذى تولاك بالعبادة والرعاية والحب والستر، فبعدت عن محبته، وودنت هيكله المقدس الذى هو أنت. وأحببت العالم أكثر منه ... وتهاونت بعظمته وكسرت وصاياه. ولهذا قال ناثان لداود «لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر فى عينيه» (٢ صم ١٢: ٩).

عجيب : ينجلون من أب الإعراف ، ولا ينجلون من الله !

وبنفس الوضع ينجل الإنسان من أن يرتكب خطية أمام الناس، ولا ينجل من ارتكابها أمام الله ! وقد نجل داود من عدم نجله فى ارتكابه الخطية أمام الله، لذلك قال له « لك وحدك أخطأت . والشر قدامك صنعت » (مز ٥٠). وهكذا قال دانيال « عملنا الشر قدامك » ... ومع ذلك أحالنا الله إلى من نجل منه .

ب - الإعراف على الأب الكاهن .

باعتباره وكيلاً لله أو خادماً له ، وليس بصفته الشخصية . فالذى يعترف عليه إنما يعترف على الله فى سمع الكاهن . ويذكرنا هذا بقول يشوع بن نون لسخان بن كرمى « إعراف لله وأخبرنى ماذا فعلت . لا تخف عنى » (يش ٧: ٩).

والإعراف على الكاهن معروف فى العهدين القديم والجديد .

كل الذين تقدموا إلى معمودية التوبة من يوحنا المعمدان الكاهن « إعرافوا منه فى الأردن ، معترفين بخطاياهم » (متى ٣: ٦). والخطاىء فى العهد القديم، كان حسب الشريعة « يقر بما قد أخطأ به، ويأتى إلى الرب بذبيحة لإثمه » (لا ٥: ٥، ٦). وفى العهد الجديد « كان كثير من الذين آمنوا، يأتون مقرين ومخبرين بأفعالهم » (أع ١٩: ١٨).

ويعترف المخطيء على الكاهن ، لينال الجمل والسماح بالتناول .

والنجل أمام الأب الكاهن فى الإعراف ، مفيد يساعد على عدم معاودة الخطية . لأن الخوف من نجل الإعراف يجعله لا يرتكب الخطية مرة أخرى ... إلى أن يرتقى روحياً فيتعود النجلى من الله الذى يراه ويسمعه أثناء خطيئته . كما أن تناول مع نجل الإعراف، يذكرنا بأكل خروف الفصح على أعشاب مرة (خر ١٢: ٨).

ويجب امتزاج الإعتراف بالتوبة ، وقد سمي سر التوبة .
إنه ليس تصفية لحساب قديم ، للبدء في فتح حساب جديد ! إنما هو توبة ،
والإعتراف إحدى علاماتها . والإعتراف هو أن يكشف الإنسان ذاته ، ويدين ذاته .
لذلك يحتاج إلى اتضاع وانسحاق ، وخشوع أيضاً . ولهذا لا يجوز أن يكون مجرد
حكايات يحكيها المعترف للأب الكاهن . كما لا يجوز فيه أن يبرر المعترف ذاته ، أو
يدافع عن نفسه ، أو يلصق مسئولية أخطائه بالآخرين ، أو يحاول الإعتراف إلى
شكوى... ! ففي كل هذا يكون الإعتراف قد خرج عن معناه كعلامة للتوبة ، وجزء
من عناصرها ...

تحدثنا عن الإعتراف على الله والأب الكاهن . ننتقل إلى النوع الثالث .

ج - الإعتراف على من أذنبت إليه .

وذلك لكي ترضى قلبه من جهتك وتصالحه ، عملاً بقول الرب « أترك قربانك
قدام المذبح ، واذهب أولاً إصطليح مع أخيك » (متى ٥ : ٢٤) . وهكذا تقول له
« أخطأت إليك في كذا وكذا ، فاغفر لي » . وهو يغفر لك عملاً بقول الكتاب « إن
أخطأ إليك سبع مرات في اليوم ، ورجع إليك سبع مرات في اليوم قائلاً : أنا تائب ،
فاغفر له » (لو ١٧ : ٤) .

يبقى النوع الرابع من الإعتراف ، وهو :

د - إعترافك بينك وبين نفسك أنك أخطأت .

وهذا هو المصدر لكل الإعتراقات الثلاثة التي ذكرناها ، ويسبقها في الزمن .
لأنه إن لم تعترف داخل نفسك أنك أخطأت ، فعلى أى شيء إذن ستعترف على
الله ، أو على الأب الكاهن ؟ وكيف تعترف على من أذنبت إليه ، إن كنت لا
تشعر أنك أذنبت في شيء... إذن لا بد أن تحاسب نفسك ، وتشعر في أعماقك
باقتناع كامل أنك أخطأت . لأنه بدون هذا لا تكون توبة ولا يكون اعتراف . وقد
قال القديس مقاريوس الكبير :

أحكم يا أخى على نفسك ، قبل أن يحكموا عليك .

وقال أب رهبان جبل نتريا للقديس البابا ثاوفيلس « صدقتي يا أبى لا يوجد
أعظم من أن يرجع الإنسان بالملامة على نفسه في كل شيء... »
إذن لا بد أن تدين نفسك أولاً داخل قلبك . وهذا سيدفعك أن تدين نفسك

أمام الله ، وأن ندين نفسك أمام الأب الكاهن .

والذى لا يدين نفسه ، لا يمكنه أن يتوب .

العشار أدان نفسه . حكم على نفسه أنه خاطيء . لذلك أمكنه أن يقف في الهيكل بخشوع يقدم توبة ، ويطلب مغفرة ، ويخرج مبرراً (لو ١٨ : ١٣) . أما الفريسي الذى لم يكن يدين نفسه فى شيء ، فلم يجد فى حياته خطأ يقدم عنه توبة ، أو يطلب عنه مغفرة !!

إن الذى يشعر أنه سليم تماماً ، هل من المعقول أن يسعى إلى الطبيب أو يطلب شفاء ؟ هكذا من الناحية الروحية : لا يطلب التوبة إلا من يعترف بأخطائه .

لما كان داود لا يحس بخطيئته ، لم يقدم توبة ...

لقد أخطأ داود ، ووسط دوامة الخطيئة ، ما كان يفكر مطلقاً فيما قد فعله . لذلك لم يقدم ندماً ولا توبة . واضطر الأمر أن يرسل الله له ناثان النبي ، الذى كشف له ثقل خطيئته وبشاعتها . فاعترف داود أنه أخطأ (صم ١٢ : ١٣) . ومن ذلك الوقت فقط بدأت قصة توبته .

وأيوب أيضاً ما كان يعرف أنه محارب بالبر الذاتى .

لذلك دخل فى جدل طويل مع أصحابه الثلاثة ، بل كثرت شكواه من الله نفسه ، وقال له « فى علمك أننى لست مذنباً ، ولا منقذ من يدك » (أى ١٠ : ٧) . « لأنه يعرف طريقى . إذا جربنى أخرج كالذهب » (أى ٢٣ : ١٠) . وهكذا كان أيوب باراً فى عينى نفسه « (أى ٣٢ : ١) . واحتاج الأمر أن يرسل له الله اليهون برخثيل البوزى ليكشف له نفسه ، بل أن يكلمه الله ويشرح له ... إلى أن وصل أيوب أخيراً إلى انسحاق النفس ، وقال للرب « ها أنا حقير ، فاذا أجابك . وضعت يدي على فمى » (أى ٤٠ : ٤) . وقال أيضاً « قد نطقت بما لم أفهم . بعجائب فوق لم أعرفها » (أى ٤٢ : ٣) .

أكثر أمرين يمنعان الإعتراف والتوبة ، الأعذار والبر الذاتى .

كان يعتذر الإنسان بضعفه ، أو بضعف الطبيعة البشرية عموماً ، أو بشدة الحروب الخارجية ، أو بأنه ارتكب الخطيئة عن جهل أو نسيان ، أو كان فيها ضحية لغيره . أو يلصق المسؤولية بغيره : فيتهم الكنيسة بعدم رعايتها له ، أو يتهم أب اعترافه

بعدم الإهتمام به ، أو يعاتب الله نفسه لأنه لم يرسل معونة ...
أما التائب الحقيقي ، فلا يهتم إلا نفسه ، حاملاً عار خطيئته بنفسه . ويقف
أمام الله كمدنّب لا يبرر ذاته ، كما حدث للصّ اليمين الذي اعترف قائلاً « نحن
بعدل جوزينا ، لأننا ننال استحقاق ما فعلنا » (لو ٢٣ : ٤١) .

إن الأعداء تحاول أن تغطى على الخطية ، أو تخفف ثقلها .
أما البر الذاقى فهو أخطر ، لأنه ينكر وجود الخطية .
إنه أخطر من الأعداء التي تعترف بوجود الخطية ، وإنما تحاول أن تهرب من
مسئولياتها ، أو تقلل منها . أما البر الذاقى ، فلا يرى أن شيئاً خاطئاً قد حدث منه .
لذلك ويخ الرب الفريسيين « الواثقين بأنفسهم إنهم أبرار » (لو ١٨ : ٩) . وقال
إنه « لم يأت ليدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة » (متى ٩ : ١٣) . حقاً هؤلاء الذين
يرون ذواتهم أبراراً ، ونفوسهم جميلة في أعينهم ... ربما ينطبق عليهم قول الكتاب
« يوجد بار يبيد في بره » (جا ٧ : ١٥) . هؤلاء بعيدون تماماً عن التوبة .
وإن واجهتهم بأخطائهم ، يجادلون كثيراً ، ولا يعترفون .
إن الساء لا تفرح بتسعة وتسعين (باراً) من أمثلة هؤلاء ، الذين يرون أنهم
« لا يحتاجون إلى توبة » (لو ١٥ : ٧) . بل تفرح بالخطيء المنسحق في توبته ،
معترفاً بأخطائه .

الأخطاء التي يعترف بها ، هي التي يتوب عنها ويطلب مغفرة .
إننا نندم فقط على الخطايا التي نعرفها ونعترف بها . ونحتاج أيضاً أن نندم على
الخطايا التي سوف نعرفها عن ماضينا ، حينما يكشفها الله لنا فيما بعد ، أو التي
تتكشف لنا من خلال قراءتنا الروحية وما نسمعه من العظات ومن أفواه المرشدين
والآباء . فنبداً أن نتوب عنها . وهكذا ننمو في توبتنا ، وننمو في اعترافنا بأخطائنا .
مقاييسنا الروحية تصبح أكثر حساسية ، وموازيننا تصبح أكثر دقة .
فلا نعرف فقط أخطائنا ، إنما بالأكثر نشعر بثقل هذه الخطايا وبشاعتها . إن
داود النبي لما عرف عمق خطيئته ، صار له عمق في التوبة ، وعمق في انسحاق
القلب وتذلل أمام الله ... لذلك علينا أن نتعمق في الفهم الروحي لنعرف حالتنا
تماماً .

وجائز أن فضائلنا التي نفتخر بها الآن ، نبكى بسببها فيما بعد .
نبكى على ضآلتها وتفاهتها وضعف مستواها ، كلما تتسع أمامنا الآفاق الروحية
والرؤية الروحية ... ونبكى أيضاً على افتخارنا بهذه الفضائل ...
المهم أن تكون لنا المعرفة الحقيقية ، سواء بأخطائنا أو نقائصنا .

وبالإعتراف يستحق الإنسان المغفرة ...

وذلك حسب قول القديس يوحنا الرسول « إن قلنا إنه ليس لنا خطية ، نضل
أنفسنا وليس الحق فينا . إن اعترفنا بخطايانا ، فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا
خطايانا ، ويظهرنا من كل إثم » (١ يو ١ : ٨ ، ٩) .

والإعتراف ليس هو مجرد كلمة : أخطأت .

لقد قال عخان بن كرمى هذه الكلمة بعد فوات الفرصة (يش ٧ : ٢٠) . إذ
ظل بعيداً عن الإعتراف طول الوقت ، إلى أن أشار الرب إليه بالإسم . فاضطر أن
يعترف . ولم ينل سماحاً ، بل رجته كل الجماعة .

وهوذا الإسخريوطى قال : أخطأت (متى ٢٧ : ٤) ، ومات هالكاً .
وفرعون - عن سياسة ، وليس عن توبة - قال : أخطأت (خر ٩ : ٢٧) .
وكررها مرة أخرى فقال لموسى وهرون « أخطأت إلى الرب إلهكما وإليكما . والآب
إصفا عن خطيئي هذه المرة فقط » (حز ١٠ : ١٦) . ومع ذلك هلك فرعون ، لأن
قلبه لم يكن تائباً ...

الإعتراف الذي نقصده ، هو النابع من التوبة .

هو علامة من علامات التوبة ، وعنصر من عناصرها . أما الإعتراف بغير توبة ،
فلا يفيد شيئاً .

مادمتنا إذن في الجسد ، ومادامت أمامنا فرصة للتوبة ، قبل أن يغلq الباب ،
فلنفحص إذن ذواتنا ، ولندرك خطايانا ، ونعترف بها ، مقدمين بذلك توبة ... وهكذا
تتخطى الخطية بدم المسيح ، وننال عنها حلاً . كما ننال أيضاً حلاً عن طريق
الإرشاد الروحي للسير في الطريق السليم .

والإعتراف المزوج بالتوبة فيه ترك للمخطية وندم عليها .

ومن علامات التوبة أيضاً :

٢- الخجل والحزى (١)

الخجل والحزى يصاحبان التوبة ، متى شعر التائب ببشاعة الخطية .
وكانه يقول لنفسه : كيف أمكن أن أسقط إلى هذا المستوى ؟ أين كان
عقلي ؟ وأين كان ضميري ؟ حين فعلت هذا... كيف ضعفت هكذا ؟ وكيف
استسلمت ؟ وكيف نسيت صورتي الإلهية ، ووضعى الروحى ؟!

إنه يخجل من خطيته ، التى تقف أمامه كل حين (مز ٥٠) .
تطاردته صور الخطية كأنها سياط من نار تلهب ضميره ، فيشعر بخجل من
نفسه . وقد يخفق وجهه ويضع يديه على عينيه ، كأنه لا يريد أن يرى . هو أمام
نفسه إنسان قد ضبط فى ذات الفعل .

ولا يستطيع أن يرفع وجهه إلى الله من شدة خجله .
مثل العشار الذى قيل عنه إنه « وقف من بعيد ، لا يشاء أن يرفع عينيه نحو
السما » (لو ١٨ : ١٣) . بل قرع صدره معترفاً بخطيته طالباً الرحمة .
ومثال الإبن الضال ، الذى من فرط خجله قال لأبيه « لست مستحقاً أن
أدعى لك ابناً » (لو ١٥ : ١٩) .

وكلما يتذكر خطيته ، يقول مع المرتل فى المزمور :
اليوم كله خجلى أمامى ، وحزى وجهى قد غطانى (مز ٤٤ : ١٥) .
وكانه يقول مع دانيال النبى « لك يا سيد البر . أما لنا فحزى الوجوه » (دا
٧ : ٩) . إنه يخجل من عار الخطية ومن فضيحتها . ويخجل من دنس الخطية ومن
نجاستها . ويخجل من هزيمته أمام الخطية ، كما لو كان جندياً سلم سلاحه للعدو
وأخذ أسيراً...

ويخجل من محبة الله له ، ومن قدسية الله ...
يخجل كلما قارن معاملته لله ، بمعاملة الله له . وكيف أنه قابل محبة الله بالبحود

(١) أنظر كتابنا (اليقظة الروحية) فيه فصل عن الخجل والحزى كأحد المشاعر التى تصاحب
اليقظة الروحية (من ص ٦٥ إلى ص ٧٤) .

والنكران، بل وبالخيانة أيضاً... وكيف أن الله كان يراه في سقطاته، الله الكلي القداسة والكمال... ويخجل من طول أناة الله عليه، وكيف صبر عليه حتى تاب.

ويخجل من أرواح القديسين والملائكة .

الذين كانوا يرونه في سقطته ويتمجبون ، ويصلون من أجله لكي يقوم... بل يخجل أيضاً من أرواح أقربائه وأصدقائه الذين انتقلوا، وكيف إنهم لا بد تعجبوا إذ رأوا أن حالته هكذا...! كيف يواجههم فيما بعد.

بل يخجل من أعدائه الذين يشمتون به إن عرفوا سقطاته .

هو يخجل من كل هؤلاء ، بل يخجل أيضاً من الكنيسة وقدسيتها ، ويخجل من الهيكل والمذبح ومن التقدم للتناول . ويخجل من صلواته التي فيها عبارات عن محبة الله والإلتصاق به ، وهو الذي فصل نفسه عن هذه المحبة...

ويخجل من وعوده التي وعد بها الله قبلاً .

وكيف أنه حنث بكل عهوده ، حتى تلك التي كلم الله فيها بمجدية كبيرة، وربما كان ذلك أمام المذبح ، أو وهو واضح يده على الإنجيل ، أو في مناسبات روحية...

ويخجل أيضاً في اعترافاته ، كلما يذكر بشاعة خطاياها .

نفسه تصغر في عينيه . ويشعر باحتقار لهذه النفس في حالة سقوطها وضعفها، وكأنه يريد أن يتبرأ من ماضيه كله . ويخزي من نسبة هذا الماضي إليه...

ومع هذا كله ، فالخزي من الخطية علامة صحية .

إنها تدل على أن الإنسان رافض لها ومشمئز منها . وهذه علامة على نقاوة القلب، وتختلف عن حالة السقوط التي كان فيها قابلاً للخطية أو راضياً عنها أو ملتزماً بها . وإن بقي معه هذا الخزي من الخطية، فإنه يساعده على عدم السقوط في المستقبل .

وهناك أنواع من الناس تحاول الهروب من الخزي والخجل .

وذلك بأعمال خاطئة تدفعهم إلى التمادى في الخطية . إذ قد يستغل الشيطان خجلهم من خطاياهم السابقة، ويدفعهم إلى تغيير الوسط الديني الذي يعيشون فيه ، والذي يخجلون من مقارنة سقطاتهم بنقاوته، أو يدعوهم الى تغيير أب الاعتراف، إذ

يخجلون من سرد خطاياهم أمامه، أو إلى ترك الإعتراف كله، أو ترك الكنيسة وحياة التدين. أو إنهم يهربون من خجلهم، بالإستفراق في حياة الترفيه واللهو والضحك...

وكل هذه تصرفات يائسة ضد حياة التوبة .
لذلك نحن نظوب التائبين الذين يشعرون بالخزى من خطاياهم .
ويرافق هذا الخزى أيضاً الندم والدموع ووخز الضمير.

٣- الندم والالام والدموع

الألم بسبب الخطية ، علامة من علامات التوبة الحقيقية .
وعنه قال داود النبي في المزمور السادس « لأن عظامي قد اضطربت ، ونفسي قد انزعجت جداً» (مز ٦) . حقاً إن السيد المسيح قد تألم عن خطايانا ، ولكن يجب أن ندخل معه في «شركة آلامه» (في ٣ : ١٠) .

وألم التائب بسبب الخطية ، يتوازن مع لذته السابقة بها .
هذه اللذة التي حصل عليها قبلاً ، يردّها في التوبة أربعة أضعاف ، بتحمل آلام ووخز الضمير وتبكيته . بل إن عبارة «البكاء وصرير الأسنان» يقاسها حرفياً في توبته بمقياس ما ، في جحيم يجوزه هنا على الأرض ، كالمحرقة التي تحتاز النار إرضاء لقلب الله (لا ١) . وقد يبكت نفسه تبكيتاً شديداً ، ويؤديها ويعاقبها بعنف . بل قد يطلب من أب الإعتراف عقوبات روحية ، لعل ضميره يستريح ولو قليلاً .
فبالعقوبات يعلن احتجاجه على خطاياها .

الذى يتوب حاملاً عاره ، يقبل نوعين من العقوبة .
النوع الأول هو العقوبات التي يفرضها على نفسه ، سواء بالتوبيخ المر ، أو بحرمان من أشياء تحبها نفسه ، لتزهد هذا العالم الذى أحبته قبلاً .

(١) محاضرة الدموع قديمة ، ترجع إلى سنة ١٩٦٤ . أضيفت إليها محاضرة بعنوان (يحمل عاره) أقيمت في الكاتدرائية الكبرى يوم ١٩٧٤/٤/٧ .

والنوع الثاني هو كل عقوبات تأتيه من الخارج ، سواء من الله أو من الناس .
فيقبل كل تلك العقوبات برضى ، وبغير تذمر ولا شكوى ، وهو مقتنع بها وشاعر
أنها أقل مما يستحق .

حق العقوبات التي تصيبه ظلماً ، يقبلها أيضاً برضى .

مثلاً حدث للقديس مار افرام السرياني الذي سجن مرة ظلماً ، فقبل هذا وقال
إنه يستحقه عن خطية قديمة لا علاقة لها بهذا الموضوع . ومثلاً قبل داود النبي تعبير
وشتائم شمشى بن جبيرا (٢صم ١٦ : ٥ - ١٠) . ومثلاً قبل القديس موسى الأسود
طرده يوم سيامته قساً وقال لنفسه «حسناً فعلوا بك يا أسود اللون يا رمادى
الجلد...» .

الذين لا يهتمون الأدب ولا العقوبة ، هم بعيدون عن التوبة .
لأن التائب الحقيقي يشعر باستحقاقه لكل ما يأتي عليه . ولا يرفض مطلقاً ما
تجلبه الخطية من مرارة ، بل يقبلها بشكر ، حاملاً عاره . والألم نتيجة واضحة
للخطية ، كما حدث لآدم وحواء (تك ٣ : ١٦ ، ١٧) . لا يجوز الهروب منها .

وكلما استمرت العقوبة فترة أطول ، يتنى القلب بالأكثر .

مثل الفسيل الذي يستمر في الغلى فترة طويلة ، يصبح أكثر نظافة . ومثل
الذهب الذي يبقى في النار فترة مناسبة ، يتنى من الشوائب . وعلى عكس هذا فإن
الذي ينال المغفرة بسهولة ، هارباً عما تجلبه الخطية من ألم ... هذا ما أسهل أن يرجع
إلى الخطية مرة أخرى ، إذ لا يشعر ببشاعة نتائج الخطية ... !

لا تقل الرب حمل عنى كل الآلام ، وأنا أستريح !

لا تنظر إلى آلام المسيح بهذه اللامبالاه ، مفكراً في ذاتك وحدك . وتذكر أن
الذين تناولوا الفصح ، إنما أكلوه على أعشاب مرة (خر ١٢ : ٨) . فما مركز
الأعشاب المرة في حياتك ؟ وما مدى دخولك في شركة آلام المسيح ؟
إن رأيت المسيح يحمل الصليب فداءً لخطاياك ، إجر وراءه وقل له «أعطني أن
أحمله معك كالتقرواني (لو ٢٣ : ٢٦) . أو قل له في ألم :

أنا يارب صليبيك ، حملتني هذا الزمان الطويل كله .

أنا يارب الأشواك التي وضعوها حول رأسك . أنا المسامير التي ثقبوا بها يديك

وقدميك . ليتنى أصلب معك مثل اللص اليمين . أو ليتنى أقول مع بولس الرسول
 «مع المسيح صُلبت...» (غل ٢ : ٢٠) . ولا تدع آلام المسيح عنك تدعوك إلى
 الاستهتار وأنت تنظر إلى خطاياك بغير ألم .
 وإن كان يجب علينا أن نخرج مع الرب خارج المحلة حاملين عاره (عب ١٣ :
 ١٣) ، فعلى الأقل : لنحمل عار أنفسنا ، في مذلة وفي دموع .

الدموع

الدموع أنواع كثيرة . ولكننا هنا نتكلم عن نوع واحد منها ، وهو دموع التوبة ،
 التي يبكي بها الإنسان على خطاياها .
 لا تظنوا أن البكاء على الخطايا ، هي درجة للمبتدئين . فكثير من القديسين
 الكبار كانوا يبكون على خطاياهم . بل كان هذا هو منهج روحى معروف لآباء
 البرية...

ولعل أبرز الأمثلة للبكاء على الخطية ، داود النبي .
 هذا الذى قال «فى كل ليلة أعوم سريرى ، وبدوعى أبل فراشى» (مز ٦ :
 ٦) . كم كانت كمية بكاء هذا النبي التائب ، الذى كان يعوم سريره بدموعه ؟
 فهل كان يبكى على خطاياها ، حينما يعود إلى بيته فقط فى نهاية كل يوم عند
 المساء ؟ كلا ، فهو يقول «صارت دموعى لى خبزاً ناراً وليلاً» (مز ٤٢ : ٣) .
 حتى أثناء أكله وشربه ، يقول «أكلت الرماد مثل الخبز ، ومزجت شرابى بالدموع»
 (مز ١٠٢ : ٩) . أى أنه فىما هو يشرب ، تتساقط دموعه فى كوب شرابه ، فيمزج
 شرابه بالدموع .

وكانت دموعه غزيرة ، على الرغم من العظمة المحيطة به .
 إذ كان ملكاً ، وقائداً للجيش ، وقاضياً للشعب ، ورب أسرة كبيرة . ومع
 ذلك ، فهو لا يهتم بكل هذه العظمة وهذا الترف حتى يقول للرب «انصت إلى
 دموعى» (مز ٣٩ : ١٢) . ويقول له «إجعل دموعى فى زق عندك» (مز
 ٥٦ : ٨) .

ولعل إنساناً يسأل : لماذا أبكى وخطيئى قد غفرت ؟

فنقول له : إن داود بكى على خطيئته بعد أن غفرت ، وليس قبل ذلك . فقبل المغفرة ما كان يحس بخطورة سقطته وبشاعتها ، إلى أن نبهه ناثان النبي إلى ذلك ، فاعترف بخطيئته ، وغفر له الله على لسان ناثان النبي الذى قال له « الرب قد نقل عنك خطيئتك . لا تموت » (٢ صم ١٢ : ١٣) . وبعد ذلك بكى داود كل ذلك البكاء ... فلماذا بكى ؟ هل كان ذلك خوفاً من عقوبة أو طلباً لمغفرة ؟ كلا .

إن العبد يبكى خوفاً من العقوبة .

أما الإبن فيبكى من حساسية قلبه تجاه أبيه .

فن منا بكى مثل بكاء داود ؟ من منا عوم سريره بدموعه ليلة واحدة ، وليس فى كل ليلة مثله ؟ لقد ظل داود يبكى على خطيئته طول حياته . ولم يسترح من بكائه إلا عند موته . فحينما اقترب من الموت قال « إرجعنى يا نفسى إلى موضع راحتك ، فإن الرب قد أحسن إلى . وأنقذ نفسى من الموت ، وعينى من الدموع » (مز ١١٤) . أنقذه من الموت الأبدى بقبول توبته . وأنقذ عينيه من الدموع ، لأنه نقله إلى «الموضع الذى هرب منه الحزن والكآبة والتهد» . وأنقذه الرب من الدموع هناك ، لأنه بكى ههنا بما يكفى .

بذكرنا هذا بقصة القديس أرسانيوس الذى بكى كثيراً .

بكى وهو فى حالة القداسة ، وهو عمود فى البرية . بكى حتى تساقطت رموش عينيه من كثرة البكاء . وكان فى الصيف يبلى خوصه بالدموع . وكان يضع منشفة على حجره وهو جالس يستقبل فيها الدموع ... وساعة موته بكى كثيراً . فقال له تلاميذه « حتى أنت يا أبانا تخاف من هذه الساعة ؟! » . فقال لهم « إن خوف هذه الساعة ملازم لى منذ دخلت إلى الرهينة » ...

فإن كان هذا القديس يبكى ، على الرغم من فضائله الكثيرة ، وعلى الرغم من تواضعه ومن حكمته وصمته ، وسهره طول الليل فى الصلاة ، وعلى الرغم من أن البابا كان يطلب زيارته ملتصقاً منه كلمة منفعة ... فإذا نقول نحن عن أنفسنا ؟! ذلك حينما سمع القديس الأنبا بيمن عن نياحة القديس أرسانيوس ، قال :

طوباك يا أبانا أرسانيوس لأنك بكيت على نفسك فى هذا العالم .

وتابع عبارته قائلاً « لأن الذى لا يبكى على نفسه فى هذا العالم، لا يد
سيبكى إلى الأبد فى العالم الآخر. أما بكاؤه ههنا فباختياره. ولكن هناك بسبب
العذابات التى سينالها. ومن المستحيل على إنسان أن يفلت من البكاء هنا وهناك...
وكان هذا البكاء هو نصيحة القديس مكاريوس قبل وفاته .

قال القديس بلاديوس : سمعت أن الشيخ الذين فى نتريا، أرسلوا إلى أبأ
مقاريوس الكبير الذى كان يسكن فى الإسقيط، وتوسلوا إليه قائلين « نرجوك يا
أبانا أن تأتى إلينا حتى نراك قبل أن ترحل إلى الرب، لكي لا ينتقل كل الناس
إليك ». ولما ذهب إليهم تجمعوا كلهم معاً إليه. وطلب إليه الشيخ متوسلين أن
يقول للأخوة كلمة منفعة. فبكى الرجل القديس وقال لهم :

فلنبك يا إخوتي ، ولتفض عيوننا بالدموع ، قبل أن نذهب إلى المكان
الذى نحرق فيه دموعنا أجسادنا.

فبكوا كلهم ، وسقطوا على وجوههم قائلين : صلّ عنا أيها الأب .

ماذا فعل القديسون من خطايا ، حتى بكوا هكذا !؟ ... وحتى كانت النصيحة
المألوفة التى يقوها كل شيخ لمن يأتي طالباً إرشاده «إجلس فى قلايتك ، وابك على
خطاياك» ... إن كان هذا هو منهج القديسين ، فكم بالأولى نفضل نحن ، ولنا خطايا
لا نحصى ...

أنظروا أيضاً إلى بكاء رجل شيخ مثل بطرس الرسول ، هذا الذى لما أحس
بنكراته للرب «خرج إلى خارج ، وبكى بكاء مرأ» (متى ٢٦ : ٧٥) . إن بكاء
الشيخ أكثر تأثيراً فى النفس من بكاء الصغار والأحداث .

ومن الذين اشتهروا بالبكاء أيضاً ، القديس ايسيدوروس .

إنه قس القلاى العظيم ، الذى كان تحت إرشاده الروحى حوالى ثلاثة آلاف
راهباً . وكان هو أب اعتراف القديس موسى الأسود . وكان رجل رؤى وعجائب ،
وكان الشياطين يخافونه ويهابونه جداً ويهربون منه ... ومع ذلك كان هذا القديس
يبكى بدموع غزيرة ، ويجهش بالبكاء بصوت عال . لدرجة أن تلميذه الذى يسكن
إلى جواره سمعه مرة يبكى ، فدخل إليه وسأله «لماذا تبكى يا أبى ؟» فأجاب « أنا
يا إبني أبكى على خطاياى » . فقال التلميذ «حتى أنت يا أبانا ، لك خطايا تبكى

عليها؟!» فأجابه القديس : صدقتي يا إبني ، لو أن الله كشف لي كل خطاياي ، ما كان يكفي ثلاثة أو أربعة ليكون معي عليها...!

إنها حساسية في القلب المرهف ، والضمير الدقيق .

يبكى لأنه أغضب الله المحب ، ولأنه نزل عن المستوى الروحي اللائق به كصورة الله ، ولأنه سقط وما كان ينبغي أن يسقط . ويبكى خجلاً من حاله . ومهما غفرت الخطية ، هذا لا يمنع أنها حدثت...

لقد غفر الله نكران بطرس ، ولكن التاريخ لا يزال يتحدث عن ذلك النكران . وغفر الله لراحاب ، ومع ذلك فالكتاب المقدس يتحدث عنها بلقب «راحاب الزانية» (عب ١١ : ٣١) .

والكنيسة تعملنا أن نبكي ، في كل يوم ...

فكل منا يقف ليصلي في الهجعة الثانية من صلاة نصف الليل في كل يوم ليقول «أعطني يارب ينابيع دموع كثيرة، كما أعطيت منذ القديم للمرأة الخاطئة...» . وتعطينا الكنيسة فصل الإنجيل الخاص بهذه المرأة التي بليت قدمي المسيح بدموعها ومسحتها بشعر رأسها (لو ٧ : ٣٦ - ٥٠) ، لكي نقرأه ، ونتخذ هذه المرأة مثلاً لنا في البكاء على الخطية «لكي نفتق لنا عمراً نقياً بالتوبة» .

فإن صليت هذه الصلاة في نصف الليل ، قل : «أعطني يارب ينابيع دموع كثيرة، لأبكي على كذا وكذا...» ، واذكر أمام الله كل خطاياك وضعفائك ونقائصك وسقوطك ... وليتك تذكرها بدموع قدامه .

تقول : ولماذا أذكرها ، وقد غفرها المسيح ؟ ... هنا ، ويناسبنا جداً أن نتذكر قول القديس العظيم الأنبا أنطونيوس :

إن ذكرنا خطايانا ، ينساها لنا الله ،

وإن نسينا خطايانا ، يذكرها لنا الله .

نعم أذكر خطاياك لكي تعرف ضعفك فتحتس وتدقق في حياتك . واذكرها لكي تعرف كم غفر الله لك ، وكم حل عنك على الصليب ، فتحبه . وتكون دموعك علامة حب ، كما كانت دموع المرأة الخاطئة .

القلب الرقيق هو الذي يبكي . أما القلب القاسي فلا يبكي .

فليكن قلبك رقيقاً في توبتك . وليكن بكأوك نوعاً من الإعتذار تقدمه للرب الذى أخطأت إليه ، وليكن بكأوك دليلاً على خجلك مما فعلت . وثق أن الذى ييكى على خطاياها ، لا يرجع إليها بسهولة مرة أخرى . لأنه ذاق مقدار الألم الذى تجلبه الخطية للقلب وللضمير...

والله يدعونا إلى بكاء التوبة هذا ...

فيقول في سفر يوثيل النبي « إرجعوا إلتى بكل قلوبكم ، وبالصوم والبكاء والنوح . ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم ، وارجعوا الى الرب إلهكم... » (يوه ٢ : ١٢ ، ١٣) . ويقول في سفر ملاخى النبي « مغطين مذبح الرب بالدموع بالبكاء والصراخ » (ملا ٢ : ١٣) . كما يقول أيضاً « طوباكم أيها الباكون الآن » (لو ٦ : ٢١) ، « طوبى للحزاني ، لأنهم يتعزون » (متى ٥ : ٤) .

إبك إذن على خطيتك . وحينئذ سيعزيك قول المزمور :

الرب سمع صوت بكائى ... الرب لصلاقي سمع (مز ٦) .

قال داود هذا بعد قوله « ودموعى أبل فراشى » ...

إن الدموع علامة للتوبة ، ولها استجابة عند الرب . لها صوت يسمعه الرب ، فيحن قلبه . وما أجل قول المرتل :

الذين يزرعون بالدموع ، يحصدون بالإبتهاج (مز ١٢٦ : ٥) .

هذا الإبتهاج هو التفرجة التى يحصدها الإنسان من دموعه .

ولكن إحذر من أن تكون دموعك مصطنعة ، أو أن تكون سبباً للبر الذاتى ، بدلاً من أن تكون دموعك سبباً لانسحاق القلب ، أو نتيجة له ، أو علامة على التوبة . وعلى رأى أحد القديسين « إذا أتتك الدموع ، فتذكر السبب الذى من أجله جاءت » . أى تذكر خطيتك التى سببت لك الدموع . حينئذ لا ترتفع بدموعك بل تنسحق ...

ولكن ربما يقول أحدهم : ومن أين لى الدموع ؟ وهل إذا لم أبك لا أكون تائباً ، أو لا يقبل الله توبتى . كلا ، يقبلك الله . ولكن إبحث لماذا هربت منك الدموع .

إن للدموع أسباباً تجلبها ، وأسباباً تمنعها .

ولعل السبب الأول هو نوعية القلب . فالقلب الرقيق بطبعه ، يكون سهل التأثر وسهل البكاء ، مثل قلب أرمياء النبي و مثل قلب داود... وهناك قلوب أخرى ليس من السهل أن تبكى . وإن بكت ، فلا بد أن يكون هناك سبب دفعها إلى البكاء كان أقوى من مقاومة طبيعها . ويكون تأثيرها أكثر .

رقة القلب إذن تجلب الدموع . وتمنعها القسوة والعنف .

إذن إسع إلى هذه الرقة في حياتك ، وابعد عن العنف . واعرف أن القسوة لا تتفق مطلقاً مع حياة التوبة . فالتائب إنسان يترجى مراحم الله . والكتاب يقول « طوبى للرحماء فإنهم يرحمون » (متى ٥ : ٧) . فعليه إذن أن يكون رحيماً ، لكي يعامله الله بنفس الرحمة . لأنه يقول « بالكيل الذى به تكيلون ، يكال لكم » (متى ٢ : ٧) .

وإدانة الآخرين أيضاً تمنع الدموع .

لأن الذى يدين غيره ، لا يكون منشغلاً بخطاياها ، وإنما بخطايا الآخرين . ويكون ناسياً لضعفاته وسقطاته ، ومركزاً على ضعفات غيره ، فكيف يبكى مثل هذا ؟ وعلى من ؟ ويزداد مثل هذا بعداً عن الدموع ، إن كانت إدانته لغيره فيها قسوة أو عنف أو تحجج ، أو كان شديداً في توبيخ غيره على أخطائه .

ومن الأسباب التى تمنع الدموع : الغضب .

فالمفروض أن يغضب الإنسان التائب على نفسه وليس على غيره . فإن غضب على غيره ، تتركز كل عواطفه وأفكاره في اخطاء غيره . وحينئذ تفارقه الدموع حتى إن كانت له من قبل . وفي الغضب أيضاً قسوة وعنف...

ومن الأشياء التى تمنع الدموع أيضاً : المتعة واللذة .

فالذى يحيا في رفاهية ومتعة ، في ملاذ العالم المتنوعة ، من الصعب أن تأتيه الدموع . وعموماً أمثال هذه الأمور لا تتفق مع حياة التوبة ، التى يضيق فيها الإنسان على نفسه ، ويعاقب ذاته ، ويجرمها من كثير من المتع ، ويفرض عليها أصواماً . ولهذا كانت التوبة عند كثيرين مصحوبة بالصوم والمسوح والتذلل وأشياها ، كما في الصوم أيام يوثيل ، وكما في صوم نينوى . وهذه تتفق مع التوبة ومع الدموع .

وطبعاً مما يبعد عن الدموع : الضحك والفرح .

حقاً إن لكل شيء تحت السموات وقت « فللضحك وقت ، وللبكاء وقت »
(جا ٣ : ٤) . ولكن الضحك والمزاح ليس هو زمان التوبة ولا وقتها . وحياة اللهو
والتهكم والفرح ومباهج الدنيا المختلفة ... كل هذه لا تتفق مع الدموع ، بل تعوقها ،
لأن الذى يبكى على خطاياها ، هو إنسان يعصره الحزن على سقطاته ...

ومن الأشياء التى تجلب الدموع ، الشعور بغربة العالم .
شعور الإنسان إنه غريب على الأرض ، لا يصح أن يضع آماله فيها . بل على
العكس عليه أن يزهد العالم وكل ما فيه ، ويستعد لأبديته ... كل ذلك يساعد على
الدموع .

وهكذا تذكارات الموت والدينونة والعالم الآخر .
كل ذلك يجلب الدموع . ولذلك وضعت لنا الكنيسة أن نتذكر الموت فى صلاة
النوم ، ونتذكر مجيء المسيح الثانى فى صلاة نصف الليل ، ونتذكر فى كليتها وفى
صلاة الستار أيضاً الدينونة العتيدة أن تكون ... وهذا كل يوم ... لأن كل هذه
التذكارات نافعة لنا ، تساعدنا على التوبة والإستعداد ، كما أنها تجلب الدموع .
وهكذا كانت زيارة القبور تجلب الدموع أيضاً ، إذ فيها يقول الثائب مع داود النبي
« عرفنى يارب نهايتى ، ومقدار أيامى كم هى ، لأعلم كيف أنا زائل » (مز ٣٩ :
٤) .

كذلك حياة الإنضاع والإنسحاق تساعد على الدموع .
بينما الكبرياء والعظمة ومجبة المديح ... كل هذه لا تتفق مع مشاعر التوبة ، ولا
تتفق مع الدموع .
ولهذا يحسن أن تنتقل إلى هذه النقطة من علامات التوبة .

٤- الانسحاق والارضاء

الثائب الحقيق يعيش بنفس منسحقة ، يعصره الخجل والندم ، ويشعر بجذلة
الخطية . ويسلك بهذه المذلة داخل نفسه ، وأمام الله . ويظهر ذلك فى معاملاته
للناس .

وهو في انسحاقه ييكت ذاته باستمرار على ما اقترفته .

ييكثها على أيام حياته التي ضاعت بلا ثمر ، وييكثها على ضعفها وسقوطها وخيانتها للرب . ويقول لها « كثيرون غيرى سبقونى من زمان ، ووصلوا إلى علاقات حب عميقة مع الله ... وأنا مازلت أجاهد لأتوب... ! فإلى متى هذا التوفى والكسل؟! » .

ينوح هذا التائب على ذاته التي سقطت ، متذكراً قول مار اسحق « التائب الذى لا ينوح فى كل يوم بسبب خطاياها ، فليعرف أنه أضاع ذلك اليوم ، ولو صنع فيه كل خير» ...

ونيكته لذاته ، يجعلها تتضع ، مهما تغيرت حياتها فى التوبة .

ومهما فعلت فى توبتها من حسنات ، فإنها لا ترتفع ، لأن خطيتها أمامها فى كل حين . والإنسان يذكر نفسه بسقطاتها حتى لا ترتفع ، وحتى لا تدفعها ثمار التوبة إلى أفكار المجد الباطل . وكما قال مار اسحق أيضاً « إذا حوربت بأفكار المجد الباطل فلا تقبلها . إنما ذكر مرمر بزناها ، واسرائيل بانغلابه» ...
وبلومك لنفسك ومعرفتك لضعفك ، تقتنى اتضاع الفكر .

والتائب المتضع يرى أنه مستحق لكل حزن يصيبه .

لذلك فإنه يقبل كل ما يأتى عليه فى هدوء ورضى ، وبغير تذمر ولا تعب ولا شكوى ، شاعراً فى أعماقه أنه يستحق أكثر من هذا بكثير . بل يرتل مع داود قائلاً « خير لى يارب أنك أذللتنى ، حتى أتعلم حقوقك » (مز ١١٩) .

وكلما طالت فترة إنسحاق التائب ، تزداد توبته عمقاً .

لأنه يدرك مذلة الخطية ، وبشاعتها ، ونتائجها داخل نفسه . كما يدرك أيضاً ضعفه ، فيتعود فى حياته الإحتراس والتدقيق . ومسكين هو الإنسان الذى فى التوبة ، يرى أن حياته قد تغيرت ، فيظن أنه لم يعد فى حاجة إلى جهاد وإلى إحتراس ، ناسياً ضعفه السابق... !

خطورة على التائب ، أن يترك الإنسحاق بسرعة إلى الفرح .

فالخطية التي لم تأخذ فى التوبة حظها من الإنسحاق والمذلة ، ما أسهل أن يعود الإنسان إليها ، لأن خطورتها وبشاعتها لم تنغرس طويلاً فى أعماقه .

إن داود لم يسرع في توبته إلى الفرح، بل بقى منسحقاً تشهد مزاميره على
انسحاقه. ومريم القبطية استمرت سنوات طويلة في انسحاق نفسها. ويعقوب
المجاهد استمر حوالي ١٨ سنة يبكي على خطاياها...

وفي حياة التوبة، ما أخطر الذين ينتقلون بسرعة من الخطية إلى الخدمة،
أو إلى اشتهاى المواهب.

وقد يقف إنسان حديث التوبة على منبر الكنيسة، ليحكى خبراته الروحية،
فيقول في بساطة «حينما كنت خاطئاً» أو «حينما كنت أعيش في الخطية»... كما
لو كان حالياً لا علاقة له بالخطية، التي هي من أخبار الماضى وحده...! وتساله
مثل هذا الإنسان «والآن، ألا تخطيء؟» فيقول لك «الآن نشكر المسيح» يقصد
أنه يشكره على البر الذى يعيش فيه... بل قد يتحدث بكل جرأة عن النور الذى
يضىء في قلبه حالياً، والحب الذى يملأ قلبه من نحو الله...

ما أخطر عبارة «حينما كنت خاطئاً...» .

إنها خالية من الاتضاع. بل تدل على عدم معرفة حقيقية للنفس. وهى لا
تتفق مع توبة العشار وصلاته في الهيكل، ولا مع قول بولس الرسول «الخطاة
الذين أولهم أنا». ولا تتفق مع كل قصص التوبة في سير القديسين.

أنت يا أخى كنت خاطئاً، ومازلت خاطئاً.

والفرق بين حالتك السابقة، وحالتك الآن: أنك كنت خاطئاً ومستمراً في
الخطية، وربما ماكنت تدرى بنفسك. أما الآن فأنت خاطيء، وتشعر أنك
خاطيء، وتجاهد بنعمة الرب معك أن تتوب. والتوبة قد تستمر معك طول الحياة،
إلى أن تصل إلى النقاوة^(١).

إن الذى لا يشعر أنه خاطيء، إنما يرتكب بهذا خطية أكبر.

لأنه لا يوجد أحد بلا خطية، ولو كانت حياته يوماً واحداً.

كلنا نخطيء، في كل يوم. وكلنا نقف في كل ساعة أمام الله كخطاة. وفي
الصلاة الربية التي نصلها باستمرار، نقول «إغفر لنا خطايانا...». ونردد هذا في

(١) أنظر الباب الخامس الخاص بحياة النقاوة في هذا الكتاب ...

باقى صلواتنا. حتى لو كنت صديقاً، هوذا الكتاب يقول «الصديق يسقط سبع مرات ويقوم» (أم ٢٤ : ١٦) .

ربما أنت الآن تائب . ولكنك لست معصوماً . ولن تصل إلى نقاوة القلب إلا بانسحاق النفس .

والذى لا يقتنى الإنسحاق ، ليس هو تائباً بالحقيقة .

إنه - لا شك - لا يعرف نفسه . وهو إنما يبنى على أساس خاطيء يقوده إلى العجرفة . ما أجل تلك المديحة التى نقول فيها للرب «الخطية دى طبعى . وانت طبعك الغفران» .

اقرأ عن القديسين الذين تابوا ، واحتفظوا بمسكنة قلوبهم .

بل احتفظوا أيضاً بمذلة نفوسهم . وإن جاءهم فكر إنهم تابوا ، كانوا يرجعون الفضل إلى الله «المقيم المسكين من التراب، والرافع البائس من المزبلة» (مز ١١٢) . ويصرون على اعتبار أنفسهم خطاة طول أيام حياتهم . مثل القديس العظيم الأنبا شيشوى الذى شاهده فى ساعة موته يطلب فرصة لكى يتوب .

لذلك مهما نموت فى النعمة ، الأفضل لك أن تقول :

أريد أن أبقى فى مشاعر التوبة طول عمري .

عش فى انسحاق القلب ، لأنه « قريب هو الرب من منسحقى القلب » (مز ٣٣) . وإن حاربك الشيطان أن تصعد إلى الدرجات العليا، وأن تجلس فى السماويات ، وأن تحصل على المواهب... فقل : أنا لم أصل بعد إلى شيء من هذا . كل ما أعرفه عن نفسى أننى خاطيء يريد أن يتوب .

وإن دخلت فى الخدمة ، لا تجعلها تنسيك خطيتك .

ولا تجعل نجاحك فى أى عمل روحى ، ينسيك دموعك وانسحاقك . بل على العكس وبخ نفسك وقل : من أنا حتى أخدم . أنا لم أصل إلى روحيات الخادم ، مهما كانت لى من معلومات... والمعلومات ليست هى التى تخلص النفس...

إن بولس الرسول ظل منسحقاً حتى بعد الرسولية .

ظلت خطيته أمامه ، حتى بعد الرؤى والإستعلانات والعجائب، وحتى بعد أن صعد إلى السماء الثالثة، وبعد أن تعب أكثر من جميع الرسل (١ كو ١٥ : ١٠) .

ففي حديثه عن ظهور الرب لتلاميذه بعد القيامة ، يقول « وآخر الكل كأنه للسقط ظهر لي أنا ، لأني أصغر الرسل ، أنا لست أهلاً أن أدعى رسولاً ، لأني اضطهدت كنيسة الله » (١ كو ١٥ : ٨ ، ٩) . ثم يقول في رسالته الأولى إلى تلميذه تيموثاوس « أنا الذي كنت قبلاً مجدفاً ومضطهداً ومفترياً . ولكنني رُحمت لأني فعلت ذلك بجهل في عدم إيمان » (١ تي ١ : ٣) .

ولعلنا نقول له : لست أنت أيها القديس العظيم بولس الرسول ، إنه شاول الطرسوسي . أما أنت فشخص جديد في المسيح يسوع ، كارزاً ومبشراً ورسولاً وبانياً للملكوت . ولكن هذا القديس يظل في انسحاقه ويقول « أنا الذي لست مستحقاً أن أدعى رسولاً ... » .

خطيته القديمة إنتهت من جهة العقوبة ، وليس من الذاكرة .

مازالت في ذاكرته ، تمنحه الإنسحاق ، والشعور بعدم الإستحقاق . وعلى الرغم من السنوات الطويلة في الخدمة ، يحيا فيها كمبتدئ ، كأصغر الرسل ، كأول الخاطئة ...

عش أنت أيضاً كمبتدئ ، كل أيام حياتك .

وكأنك لاتزال طفلاً في حياة الروح . ويكفيك أن « الرب يحفظ الأطفال » (مز ١١٤) . ولا تظن مطلقاً أنك وصلت إلى هدفك الروحي . فبولس الرسول العظيم يقول « لست أحسب نفسي قد أدركت أو نلت شيئاً ... لكنني أسعى لعل أدرك » (في ٣ : ١٢ ، ١٣) . بل إن القديس العظيم الأثينا أرسانيوس كان يصلي قائلاً « هيني يارب أن أبداً » ... كأنه لم يبدأ بعد ... !
الإنسحاق علامة من علامات التوبة . ومن علاماتها أيضاً :

٥ - إصدار نتائج الخطأ

لا يكن مطلقاً أن تترك الخطية وتوب عنها ، وتعترف بها وتنال الحل ... إنما يجب أن تصلح نتائج خطيتك على قدر ما تستطيع ... وستضرب لذلك بعض أمثلة :

لنفرض أن إنساناً سرق ، هل يكنى أن يعترف بالسرقة ؟

هل اعترافه يكنى للمغفرة ، بينما لا يزال يوجد عنده مال حرام حصل عليه

بالسرقة؟ كلا. بل على قدر طاقته يعيد الشيء المسروق إلى أصحابه، إن كان بإمكانه أن يفعل هذا، ولو بطريقة غير مكشوفة...

وإن كان قد ظلم أحداً، يحاول معالجة هذا الظلم. وهذا أمامنا مثل واضح لتعليمنا هوزكا رئيس العشارين. هذا لما تاب، قال للرب علانية «ها أنا يارب أعطى نصف أموالى للمساكين. وإن كنت قد وشيت بأحد، أرد أربعة أضعاف» (لو ١٩: ٨). فإن كنت لا تستطيع أن تفعل مثل زكا وترد أربعة أضعاف، فعلى الأقل رد المسروق نفسه، أو رد الظلم وعالجه، بدون أضعاف....

إنك تشعر بجمال التوبة، إن كنت فيها ترد الحق لأصحابه. ألمك تشعر بخجل في ذلك، إذ تعترف عملياً أنك ظلمت وسرقت. هذا خير لك، لأن مثل هذا الخجل يكون كحصن لك يمنعك من ارتكاب هذه الخطية مرة أخرى. كما أنك في داخلك، ستشعر بأن توبتك مبنية على قيم لها احترامها، فيفرح قلبك ويتعزى...

كذلك إن كنت قد شهت بأحد، وأسأت إلى سمعته. ليس من حقه - في توبتك - أن ترد إليه اعتباره، مادمت قد ظلمته وأسأت إليه، وبخاصة من يشيع على أحد كلام كذب تكون له نتائج سيئة في حياته...

فإذا إن كان إصلاح نتائج الخطية غير ممكن؟ إن كان بالحق غير ممكن، فعلى الأقل تنسحق نفسك لهذا السبب، أنك ارتكبت خطايا من الصعب علاجها...! علامة أخرى من علامات التوبة وهى:

٦- الانسحاق على الخطيئين

قال مار اسحق «الذى ينوح على نفسه، ليس يعرف سقطات غيره، ولا يلوم أحداً على إساءة».

إن تاب إنسان، ففى شعوره بالانسحاق وعدم الإستحقاق، لا يفكر مطلقاً فى خطايا غيره، ولا يدين أحداً، إذ هو نفسه واقع تحت الدينونة بسبب خطاياها. وكما

قال السيد للذين أرادوا رجم المرأة الخاطئة « من كان منكم بلا خطية ، فليرمها أولاً بحجر » (يو ٨ : ٧) .

حقاً إن المشغول بإخراج الخشبة التي في عينه ، لا يستطيع أن يدين القذى الذي في عين أخيه (متى ٧ : ٥) . وكلما يأتيه فكر إدانة لأحد ، يقول لنفسه : أنا سقطت في كذا وكذا . وهذا الإنسان أبر مني ، لأن خطاياي أكثر منه بكثير...

إن الإنسحاق ينزع من قلب التائب كل قسوة ، ويعطيه رحمة على كل أحد مهما أخطأ...

وتذكره لخطاياها يجعله يشفق على المخطئين ولا يدينهم ، بل يبكي لأجلهم كما كان يفعل القديس يوحنا القصير في اتضاع قلبه . إذ كان حيناً يرى أحداً في خطية يبكي ويقول : إن كان الشيطان قد أسقط أخى اليوم ، فقد يسقطني غداً . وقد يفسح الرب لأخى فيتوب . وربما أسقط أنا ولا أتوب ... (ويبكي) .

ما أروع الكلمات التي قالها في ذلك بولس الرسول :
« أذكروا المقيدون كأنكم مقيدون معهم ... » (عب ١٣ : ٣) .
« واذكروا المذلين كأنكم أيضاً في الجسد » .

إن الذي لم يخطيء ، قد يدين الخطاة بنزعة من الكبرياء . أما الذي أخطأ ، وجرب ضعف الطبيعة البشرية ، فإنه يشفق عليهم .

ولنا مثال واضح في سيرة القديس موسى الأسود .

هذا الذي لما دعى إلى مجمع رهباني لإدانة أخ أخطأ ، ذهب إلى هناك وهو يحمل خلفه زنبقاً مثقوباً مملوءاً بالرمل . فلما سألوه عن هذا ، أجاب : هذه خطاياي وراء ظهري تجرى وأنا لا أبصرها . وقد جئت إلى ههنا لأدين أخى ...
التائب لا يذكر خطايا غيره ، حتى لو كانت ضده .

ذكر القديس الأب أموس أنه من علامات التوبة « الصفح عن خطايا القريب ، وترك دينونة الآخرين ، وتمسك القلب » .

ويقول مار اسحق إن التائب يكون له صبر كامل على الإهانة والملامة . ويقول القديس العظيم الأنبا أنطونيوس « إذا لامك أحد من الخارج ، عليك أن تلوم نفسك من الداخل . فيكون هناك توازن بين خارجك وداخلك ... »

التائب يغفر لغيره ، كما غفر الرب له .

أو كى يغفر الرب له ، حسب قوله الإلهى « إغفروا يغفر لكم » (لو ٦ : ٣٧) . ولما علمنا الرب الصلاة الربية ، لم يعلق إلا على طلبية واحدة منها وهى الخاصة بطلب المغفرة ، فقال « فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم ، يغفر لكم أبوكم السماوى . وإن لم تغفروا للناس زلاتهم ، لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم » (متى ٦ : ١٤ ، ١٥) . ولتكن هذه المغفرة فى حب ، تتفق مع وصية « أحبوا أعداءكم » (لو ٦ : ٢٧) . وتتفق مع حياة الإلتضاع اللاتقة التوبة .

٧- ساعر أفرى

الإنسان التائب الباكى على خطاياها ، يكون دائماً وديعاً هادئاً ، لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته (أش ٤٢ : ٢ ، ٣) . والتائب يشعر برغبة فى الصمت ، إذ يرى أنه ليس أهلاً للكلام ، وإنه من الخير له أن يسمع . فالإستماع أفضل من التكلم .

وهكذا فإن التائب يبعد عن التعليم ، متذكراً قول يعقوب الرسول « لا تكونوا معلمين كثيرين يا إخوتى ، عالمين أننا نأخذ دينونة أعظم ، لأننا فى أشياء كثيرة نعتز جميعنا » (يع ٣ : ١ ، ٢) . ويقول لنفسه : من أنا حتى أعلم غيرى . التعليم درجة فوق مستوى ... ما هى خبراتى الروحية ، حتى أعلم الآخرين أيضاً ؟ !
التائب يشعر أن آفاقاً روحية ، قد فتحتها الله أمامه ، وأنه بدأ يدخل فى مذاقة الملكوت ، لذلك غالباً ما نرى التائبين يتصفون بالحرارة الروحية .

٨- الحرارة الروحية

إن التوبة حرارة تسرى فى الإنسان ، تشعله بالرغبة فى تغيير حياته إلى أفضل . وصدق الشيخ الروحانى فى قوله عن التوبة « كل من وُلد منها ، أنبتت له أجنحة من نار ، ومع الروحانيين يطير إلى العلاء » ...
والتوبة تلد داخل القلب محبة جبارة نحو الله .

لأننا كلما تأملنا في الحمل الثقيل الذى رفعه عنا ، وحمله عنا . وكلما نتأمل في بشاعة الخطايا الكثيرة والمريرة التى غفرها لنا ... حينئذ تزداد محبتنا له بالأكثر . مثل تلك المرأة الخاطئة التى بللت قدميه بدموعها ، وقال عنها إنها أحببت كثيراً ، لأنه غفر لها الكثير (لو ٧) . إن الخطاة الذين يشعرون بثقل خطاياهم ومغفرة الرب لها ، هم الذين يحبون الله بالأكثر ، وهم الذين يفهمون عمق الصليب وعمق الفداء .

وفي هذا الحب يكون مستعداً لبذل نفسه من أجل الله .

تملكه حرارة عجيبة ، تدفعه إلى قدام بشدة ... هذا الدفع الذى حوّل كثيرين من الخطاة إلى قديسين ، مثل بيلاجية ومريم القبطية وأوغسطينوس . هؤلاء هم الذين تابوا ، وشعروا بلذة هذه الحياة ، وغفوا فيها . مشكلة كثيرين إنهم يفقدون حرارة التوبة التى بدأوا بها .

الحرارة التى كانت تشعل قلبهم بالحب ، والتى تدفعهم إلى تعويض كل ما سبق من ضياع في حياتهم ... هذه الحرارة ، إن لم يحتفظ بها التائب ، ويشعلها باستمرار ، ما أسهل أن يفقدها ، ويتطور إلى الفئور ، وربما تبرد مشاعره بعد أن ينسى خطاياها ويبعد عنها بعض الوقت ... !

التائب يشعر أن عينه قد تفتحت على حياة جديدة .

كأن باب الفردوس قد فتح أمامه ، ورأى هناك ما لم يره من قبل ... وهذه الحياة الجديدة تجذبه إليها بشدة ، حتى أن بعض آباء الاعتراف يخافون على أبنائهم المعترفين من تطرف الإندفاع في تلك الفترة .

وما أكثر الذين يندرون أنفسهم لله في حرارة توبتهم .

مثل القديسة بيلاجية والقديسة مريم القبطية ، وآخرين .

لأن هؤلاء في توبتهم وندمهم على خطيتهم شعروا بزهد في العالم كله ، ولم يعد فيه شيء يغريهم بعد أن ذاقوا محبة الله .

وفي الحرارة الروحية التى تصاحب التوبة :

يشعر التائب بقوة فيه ، ما كانت عنده قبلاً .

كان في خطيته ضعيفاً أمام الشيطان وحروبه ، أما في توبته فإن روح الله يعطيه نعمة خاصة ، وقوة على حياة التوبة . يذكرنا بالمرضى الذى من ضعفه نقلوا له دماً ، فتقوى بهذا الدم الجديد . أو أن الله أعطى هؤلاء التائبين قلوباً جديدة ، يجرى منها دم جديد قوى ، مشبع بمحبة الله . فتنتطبق عليهم نبوءة أشعيا :
فتنتطبق عليهم نبوءة أشعيا :

« يجددون قوة . يرفعون أجنحة كالنسر... » (أش ٤٠ : ٣١) .

« يركضون ولا يتعبون . يمشون ولا يميون » وقوله أيضاً « يعطى المعنى قدرة ، ولعديم القوة يكثر شدة » (أش ٤٠ : ٢٩) .

أترك يا أخى لمست هذه القوة فى توبتك ، وشعرت كيف أن يمين الرب قد انتشلتك إلى حياة النور، وأن الله « يجدد مثل النسر شبابك » (مز ١٠٣ : ٥) . فتفتى مع داود قائلاً « يمين الرب صنعت قوة ، يمين الرب رفعتى . يمين الرب صنعت قوة ، فلن أموت بعد بل أحيا » (مز ١١٧) . وهذه القوة تحيا حياة فاضلة .

٩- السير فى الحياة الفاضلة

لا توجد توبة بدون تغيير فى الحياة . فالتوبة ليست مجرد اعتراف وتناول ، إنما هى ترك للخطية للسير إيجابياً فى حياة البر . وهذا ينال الثائب المغفرة ، حسب قول القديس يوحنا الرسول :

« إن سلكتنا فى النور ، كما هو فى النور ،

فلنا شركة بعضنا مع بعض ، ودم يسوع المسيح إبنه يطهرنا من كل خطية » (١ يوا : ٧) . إذن سلكتنا فى النور شرط أساسى لتطهيرنا من الخطية . هو إذن من علامات التوبة .

ويعبر القديس بولس الرسول عن هذا السلوك ، الذى يظهر من الخطية ، ويرفع الدينونة ، فيقول إنه « لا شىء من الدينونة الآن على الذين هم فى المسيح يسوع ، السالكين ليس حسب الجسد ، بل حسب الروح » (رو ٨ : ١) .

إذن من شروط هذه الحياة الجديدة ، أن تسلك فى النور ، وأن تسلك حسب الروح . أو كما قال القديس بولس « أن تسلكوا كما يليق بالدعوة التى دعيتم إليها » (أف ٤ : ١) . وقال « لتسلكوا كما يحق للرب... متمرين فى كل عمل صالح » (كو ١ : ١٠) . « اسلكوا فى المحبة ، اسلكوا كأولاد للنور » (أف ٥ : ٢ ، ٨) .

إذن التوبة ليست مجرد ارتداء عند قدمى المسيح ، كما يقول البعض ... إنما هى تمييز بسلوك روحى خاص ، ومحفظ وصايا الرب .

قال القديس يوحنا الرسول « من قال إنه ثابت فيه ، ينبغى أنه كما سلك ذاك يسلك

هو أيضاً» (١يو ٢ : ٦) . وقال كذلك «من قال قد عرفته ، وهو لا يحفظ وصاياها ، فهو كاذب وليس الحق فيه» (١يو ٢ : ٤) .

إننا نرتضى على قدمي المسيح ، لناخذ منه معونة ونعمة . وليس معنى النعمة أن نكسل أو أن نستمر في حياة الخطية ، إنما نحفظ وصاياها ، ونسلك كما سلك ذلك ، نسلك في النور كما هوفي النور . وهذا يقودنا إلى العلامة الأخيرة للتوبة :

١٠- النقاوة

إنها العنصر الإيجابي في حياة التوبة ، ثمر تغيير الحياة .

فيها تختفى شهوة العالم والجسد والخطية ، وتصبح شهوة القلب مقدسة في حياة ابن ومحنة الله . ولا يعود التائب يفعل مرة أخرى بمحبة الخطية .

ومن علامات النقاوة أن الإنسان يعمل الفضيلة بدون جهاد ، بدون تعب ، بدون صراع . لأنه لا يوجد داخله ما يقاومها .

إن كنت تجد صراعاً في داخلك بين الخير والشر . فأنت لم تصل إلى النقاوة بعد ، ولكنك تجاهد لكي تصل . وإن كنت تتعب من أجل الوصول إلى حياة البر ، فأنت ما تزال في فضيلة الجهاد ، ولم تصل إلى النقاوة بعد .

بالنقاوة يملك السلام على قلبك ، ويبطل الصراع بانتصار الخير .

بالنقاوة تصبح راحتك في الله ، وشهوتك في الله ، وسعادتك فيه . وتشمل النقاوة كل حياتك : ألفاظك ، حواسك ، جسديك ، قلبك ، أفكارك ... وتصير مسكناً للروح القدس ، تظهر منه ثمار الروح ...

إن موضوع النقاوة موضوع طويل ، نظلمه إن جعلناه مجرد فصل من هذا الباب ، كعلامة من علامات التوبة .

لذلك أستأذنك في أن نفرّد له باباً خاصاً .

نحدثك فيه عن النقاوة ، وكيف تكون ، وكيف تختبر ؟ وما هي عناصرها ؟ وإلى أي حد تصل النقاوة على الأرض ؟ وما هي النقاوة التي نالها في الأبدية ؟

نقاوة القلب

- * النقاوة من الخطية .
- * إختبار النقاوة .
- * النقاوة من الأفكار والأحلام .
- * النقاوة من الأباطيل .
- * إيجابية النقاوة .
- * النقاوة من معرفة الخطية .

(١) نقاوة القلب

مادام كمال التوبة ، هو كراهية الخطية ، أى أن يكون القلب قد تنقى تماماً من كل حجة للخطية أو تجاوب معها...

إذن فنقاوة القلب علامة من علامات التوبة الكاملة .

ولكن ما هو المقياس الذى نستطيع أن نقيس به نقاوة القلب من الخطية ؟ وكيف يعرف الإنسان أنه قد وصل إلى كمال التوبة ، أى إلى كراهية الخطية ؟ ... فلننحصر هذه النقطة معاً...

النقاوة من الخطية

١ - ربما يظن إنسان أنه تائب ، لأنه ترك الخطية الرئيسية المتعبة التى كانت تقلق ضميره ، ولم يعد يسقط فيها الآن .

أى لم يعد يزن مثلاً ، أو يسرق ، أو يفش ، أو يسكر . ولم يعد يرتكب خطايا فى هذا المستوى . لذلك استراح ضميره . وظن أنه تاب...! وذلك لأن الخطايا الكبيرة التى كان يركز عليها قد غطت رؤيتها على الخطايا الأخرى التى لم يكن يلتفت إليها .

وربما فى نفس الوقت يكون واقعاً فى خطايا كثيرة يعتبرها طفيفة ، ولا تدخل فى مقياسه الخاصة بالتوبة . مثل الحديث عن النفس ، والفرح بالمديح ، وتبرير الذات باستمرار ، وكثرة الجدل ، والسلوك حسب الهوى الخاص ، والتشبث بالرأى الذى

(١) مصدر هذا الفصل هو :

١ - محاضرة أقيمت فى كنيسة الملاك ميخائيل بدمهور سنة ١٩٦٦ ، ضمن سلسلة عن حياة التوبة والنقاوة .

٢ - محاضرة أقيمت فى القاعة المرقسية بالأنا رويس (الجمعة ١٩٦٦/٥/٢٨) .

٣ ، ٤ - محاضرتان أقيمتا فى الكاتدرائية الكبرى بالقاهرة الأولى مساء الجمعة ١٦/٢/٧٣ ، والثانية مساء الجمعة ١٩٧٣/٧/٦ عن حياة النقاوة .

٥ - محاضرة عن (معرفة الخطية) أقيمت بالكاتدرائية (الجمعة ١٩٧٧/٣/١١) .

يقود إلى العناد. مع إهمال بعض الصلوات، وتقصير في القراءات الروحية. وربما عدم احتمال الإساءة، وعدم تقديس يوم الرب ...
ومع هذا كله ، ضميره لا يوبخه ، لأنه لم يصل إلى المستوى الذى يتبكت فيه على أمثال هذه الأمور. فهل نعتبر مثل هذا تائباً؟!

إنه ولا شك محتاج أن ترتق مقاييسه ، لكى يتوب عن أمثال هذه الخطايا التى يعتبرها طفيفة، أو لا يلتفت إليها باهتمام.

فتى إذن نعتبره تائباً ؟ أليس إن ترك كل الخطايا ، حتى التى تبدو فى نظره صغيرة. يتركها بالفعل ، وأيضاً يطردها من قلبه ومن فكره.

وهنا يصعد الإنسان سلباً فى التوبة ، كلما نضج روحياً. ويصير ضميره حساساً جداً ، لا يتغاضى عن شىء. وهذا يدخل إلى التوبة الحقيقية .

فهل إذا وصل إلى هذا ، نحكم عليه بأنه وصل إلى نقاوة القلب ؟
هنا نبدى ملاحظة هامة ، لكى تكون لنا دقة الحكم ، وهى :

٢ - ربما هو لا يخطئ ، لأن الشيطان قد تركه إلى حين .

إن الشيطان حكيم فى عمل الشر . يعرف متى يحارب ، وكيف يحارب ، وفى أية خطية يركز قتاله ... فإن وجد شخصاً متحمساً جداً ومستعداً ، يتركه فترة حتى يثق هذا الإنسان بنفسه ثقة ربما تدفعه إلى التهاون والتراخى وعدم التدقيق . ثم يرجع إليه الشيطان فى وقت يكون فيه هذا الإنسان أقل استعداداً وحرصاً ، فيسهل إسقاطه .

وهذه الفترة لا تكون فترة إنتصار على الخطية ، إنما فترة عدم قتال . إنها فترة راحة من الحروب الروحية ، وليست إنتصاراً ونقاوة .

وهناك فرق كبير بين الإنتصار وعدم القتال .

فإن وجدت نفسك لا تسقط فى خطية معينة ، فقد لا يعنى هذا أنك تنقيت منها تماماً ، إنما عدم سقوطك فيها قد يعنى أن الشيطان لا يقاتلك حالياً بها . أو ربما لا تسقط فيها الآن ، لأن ظروفها غير مؤاتية . فلا توجد حرب ، ولا توجد عشرات ، ولا يوجد ما يشرك للخطية .

والشيطان لا يقاومك الآن ، ليس حباً في راحتك ، وإنما لأنه يجيز لك فحماً
من نوع آخر...

وبالإضافة إلى ذلك الفخ الآخر ، ربما يأتيك شيطان المجد الباطل ليقول لك
«ويلاه منك . لقد أفلت مني . وقد تجددت وتقدست ، وصرت خليقة جديدة ،
والأشياء العتيقة قد مضت» . فلا تسمع له ، ولا تردد في ذهنك ما يقوله لك ،
فأنت تحت الضعف طالما أنت في الجسد . والشيطان لا يكف عن قتاله .
والأليق بك أن ترد على تلك الأفكار وتقول «أنا أعرف ضعفي . وكل ما في
الأمر ، أن الرب من حنوه قد ستر هذا الضعف» ...

لا تقل إذن إنك قد وصلت إلى النقاوة ولم تعد تسقط . إنما قل «لولا أن الرب
كان معنا ... لا ابتلعونا ونحن أحياء» (مز ١٢٤ ، ٢ ، ٣) ... أنا في الواقع أضعف من
أن أقاتل أصغرهم ، كما قال القديس الأنبا أنطونيوس . ولكن شكراً للرب أنه
سترنا ...

ومن الملاحظ أن بعض الخطايا لها مواسم ، وليست دائمة .
إنها مثل دورات الألم أو الوجع ، تلف دورتها في عنف وشدة ، ثم تهدأ ، ثم
تلف دورة جديدة ... وهكذا ... أو كنبات ، له أحياناً موسم ركود ، وفي وقت آخر
موسم إزهار وإثمار ...

٣ - أو من الجائز أن الله أراد أن يريحك فترة من إرهاق الخطية ، حتى لا
تبتلع نفسك من اليأس .

لأن توالى السقوط المتلاحق ، قد يجبر الخاطيء إلى اليأس . لذلك تدركه مراحل
الله وترجحه ولو قليلاً ، وترفع الحرب عنه . تحفظه النعمة وتسنده ، ولو إلى حين . فتتم
عليه فترة هدوء لا ترعجه فيها الخطية . ليس لأنه قد تنق ، وإنما لأنه غير مُقاتل .

٤ - أو جائز أنت مستريح الآن ، لأن صلوات رفعت لأجلك .

سواء من قديسين في السماء ، أو من أحياء لك على الأرض . واستجاب الرب
لهم ، وأمر برفع القتال عنك . فاسترحت من الخطية وضغطاتها ، لهذا السبب وليس
لأنك وصلت إلى النقاوة . أنت إذن في فترة هدوء وسلام ، وعدم قتال مع
الشيطان . وليست هذه هي درجة النقاوة .

ومناسبة الفرق بين النقاوة وعدم القتال ، نورد ملاحظة هامة وهي :

هناك فرق بين نقاوة الأطفال ، ونقاوة الناضجين سناً وروحاً .

حقاً إن الأطفال لهم قلب نقي بسيط لم يعرف الخطية بعد . ولكن هناك فرقاً كبيراً بين نقاوتهم ونقاوة الأشخاص الناضجين في السن . هذا الفرق هو أن الأطفال لم يدخلوا حرباً روحية ، ولم تختبر إرادتهم بعد . أى أنهم لم يصلوا إلى السن التي تختبر فيها إرادتهم . وهم غير الكبار الناضجين الذين دخلوا في حروب العدو وقتلوا وانتصروا ، ورفضت إرادتهم الحرة كل إغراءات الخطية . هؤلاء لهم مكافأة « الغالبين » التي ليست للأطفال .

ما أعظم الذين يصلون إلى نقاوة الأطفال ، بعد حروب لم يعرفها الأطفال .

ونقاوتهم نتيجة صراعات وحروب ، خرجوا منها منتصرين ...

إن نقاوة القلب درجة عالية جداً . وحتى إن حورب إنسان بخطية معينة ، وتنق منها ، فليست هذه هي النقاوة الكاملة .

النقاوة الكاملة هي النقاوة من جميع الخطايا .

بكل صورها وأنواعها ، سواء كانت بالعمل ، أو بالفكر ، أو بالحواس ، أو بمشاعر القلب ، أو بسقطات اللسان . سواء في العلاقة مع الله ، أو مع الناس ، أو مع الذات .

إنها نقاوة شاملة ، وليست مجرد تخلص من خطية معينة كانت تحاربك .

فالغريسي الذي صلى في الهيكل في وقت صلاة العشار ، كان يظن أنه صار من الأنقياء ، لأنه « ليس من الظالمين الخاطفين الزناة » وليس من المقصرين في الصوم أو في دفع العشور (لو ١٨ : ١١ ، ١٢) . بينما أنه لم يكن قد تنق من الكبرياء ، ولا من إدانة الآخرين ، ولا من الإفتخار والبر الذاتي ... لذلك لم يخرج مبرراً .

لا تظن إذن أنك قد وصلت إلى درجة النقاوة ، إن كنت قد تخلصت من بعض الخطايا التي كان لها سلطان عليك . إنما المقياس الحقيقي لوصولك إلى النقاوة هو أنه :

لا يكون لأية خطية من الخطايا سلطان عليك .

أنظر إلى قول السيد المسيح « من منكم يكتنى على خطية ١٩ » (يو ٨ : ٤٦) .
 أية خطية على الإطلاق... ولهذا استطاع أن يقول عن الشيطان « رئيس هذا العالم
 يأتي ، وليس له قى شيء » (يو ١٤ : ٣٠) .
 فهل وصلت إلى هذه النقاوة من جميع الخطايا ، بحيث لا يوجد للشيطان شيء
 فيك ، كبيراً كان أم صغيراً؟! حتى ولا من الثعالب الصغار المفسدة للكروم ، ولا
 من الخطايا التي تتكرر في ثياب الحملان... ٠٢

النقاوة الحقيقية تبدأ بالكراهية الكاملة للخطية .

عن معرفة واستنارة حقيقية ، وفهم صحيح بالروح القدس لما هو الخير وما هو
 الشر « للبالغين الذين صارت لهم الحواس مدربة » (عب ٥ : ١٤) ، بحيث يكون
 الضمير سليماً تماماً في أحكامه ، لا يندعه الشيطان في شيء ، وتكون جميع أعمال
 الإنسان نقية .
 على أن هناك ما هو أهم من أعمال الإنسان الظاهرة ، وهو :

أن تكون النقاوة نابعة من القلب ، وليست مظهرية .

نقول هذا لأن كثيرين يهتمون بمظهر النقاوة لا بجوهرها . ومثال ذلك أن كثيراً
 من الوعاظ حينما يتكلمون عن حشمة المرأة ، يركزون على ملابسها وزينتها ، دون أن
 يهتموا بالباعث القلبي الذي بسببه تركت الفتاة حشمتها . بينما لو اهتموا بعلاج
 القلب من الداخل ليصل إلى النقاوة ، لكان من نتائج ذلك تلقائياً حشمة الملابس
 والزينة... ونفس الكلام يقال عن الشبان الذين يطيلون شعرهم...

إننا لا نريد بالنقاوة تنظيف خارج الكأس . فقط (متى ٢٣) .

ففي علاج خطايا اللسان ، لا يقتصر الأمر على تداريب الصمت . لأن الكلام
 الخطيء له سبب داخل القلب . والكتاب يقول « من فضلة القلب يتكلم اللسان »
 (متى ١٢ : ٣٤) . إذن نهم بنقاوة القلب ، فتكون الألفاظ نقية تلقائياً .

خذوا الكذب مثلاً . لا يكفي فقط أن نبعد عن تركه من الخارج ، إنما ينبغي
 أن نعالج أسبابه داخل القلب ، سواء كانت خوفاً ، أو كبرياء ، أو وصولاً إلى
 غرض معين . لأن الكذب كان نتيجة هذه الأخطاء الداخلية التي تحتاج إلى تنقية...
 إهتموا إذن بالداخل . وهنا يسأل البعض :

هل أُوْجَلِ النقاوة الخارجية ، إلى أن أصل إلى نقاوة الداخل ؟
 كلا ، طبعاً . إنما المقصود أنك لا تكفى بالنقاوة الخارجية ، فالله يريد القلب
 قبل كل شيء . إحترس من الخطأ الخارجى بكل قوتك ، لأن له نتائج غالباً ما
 تشمل غيرك أيضاً ... وفي نفس الوقت عالج الداخل بكل قوة ، وبكل صبر ، وبكل
 معونة من النعمة .

وهكذا تكون أعمالك النقية صادرة من قلب نقي . ويشترط لنقاوتها :

أن يكون العمل النقي ، أهدافه ووسائله نقية أيضاً .

فيكون كل عمل عمله : نقياً في ذاته ، ونقياً في الدوافع التي تدفع إليه ، ونقياً
 في الوسيلة التي يتم بها ...

فهل تكون هذه هي النقاوة الكاملة ؟

النقاوة الكاملة موضوع طويل . إنما هذه هي النقاوة من الخطية .

اختبار النقاوة

إن عدم السقوط في الخطية ، ليس هو نقاوة القلب .

فقد تكون لعدم السقوط أسباب أخرى غير حالة القلب الداخلية ، شرحنا
 بعضها . كأن يكون الإنسان في وقت ما غير محارب بالخطية ، أو تكون النعمة قد
 تدخلت - حتى بدون استدعاء لها منا - وانتصرت هي فينا . ولذلك نقول من جهة
 اختبار النقاوة :

يعتبر الإنسان نقياً تماماً ، لو دخل في كل حرب مع الخطية في عمق

الحرب وشدها ، ولم يهتز ...

ليس فقط لم يسقط ، وإنما لم يهتز ...

كثيرون من الناس محاربون بالخطية من شهواتهم ومن أفكارهم ، وليس من
 الشيطان . لأن حروب الشياطين صعبة جداً . مثال ذلك قصة الشاب الذي شكَا
 إلى القديس الأنبا بيشوى قائلاً له « إن حروب الشيطان اشتدت عليّ » . بينما قال
 الشيطان « أنا لم أحس بعد أن هذا الشاب قد ترهب » ... إن الشيطان قاس جداً

في حربه . ولو أمكن أن يأخذ حريته كاملة ، لجاهد أن يضل حتى المختارين أيضاً
(متى ٢٤: ٢٤).

فإن انتصرت في حرب روحية ، قل : لعلها حرب بسيطة ...

لأن الله من حنوه ، لا يسمح أن نحارب فوق طاقة احتمالنا . وربما نجوز حروباً
خفيفة ونتصر فيها ، ليس بسبب قوتنا أو نقاوة قلوبنا ، إنما بسبب ضعف الحرب .
ولو كانت الحرب قد ثقلت علينا أو اشتدت ، لسقطنا ... لذلك نشكر الله على عظم
مراحه ، بدلاً من أن نفتخر باطلاً بادعاء النقاوة ...

إذن تختبر نقاوتك بالحرب الشديدة القاسية .

هل تصمد فيها أم تسقط ؟ خير لك أن تصرخ في اتضاع وتقول : لست أنا أقوى
من سليمان أحكم أهل الأرض . ولست أقوى من داود مسيح الرب ورجل الزمار
والقيثار . ولست أقوى من بطرس الرسول في غيرته . ومادامت الخطية قد « طرحت
كثيرين جرحى ، وكل قتلها أقوياء » (أم ٧ : ٢٦) ... فأفضل وضع هو أن
أعرف ضعفي ، وأقول إنني لم أصل إلى النقاوة بعد . وأنا أصلي كل يوم قائلاً « لا
تدخلنا في تجربة ، لكن نجنا من الشرير » .

أدخلت في الحروب الشديدة وانتصرت ؟ ... إذن فاعرف هذه الحقيقة :

الحرب الشديدة تختبر الإنسان باستمرارها وإلحاحها ...

فقد ينتصر الإنسان في إحدى المرات في حرب شديدة . ولكنها لو استمرت معه
مدة طويلة ، ربما يضعف أمامها ، ولا يقوى على المقاومة . مثل شمشون الذي لما كثر
الإلحاح عليه ، ضعف أخيراً واستسلم (قض ١٦ : ١٦ ، ١٧) .

والحرب الشديدة تختبر الإنسان أيضاً بتنوعها ومفاجأتها ...

فقد ينتصر الإنسان في حرب معينة . ولكنه في نوع آخر من الحروب تقل
مقاومته ولا يصمد . والشيطان يختبر كل شخص ، ويدرس نواحي الضعف فيه ،
ويضغط بشدة على نقطة الضعف . وتزداد حروبه قسوة ، حينما يهجم فجأة بدون
استعداد من الإنسان لمواجهته . وهنا تُختبر النقاوة ...

إذن ما هو التعريف السليم للشخص الذي اقتنى نقاوة القلب ؟

هو الشخص الذى تنق من كل أنواع الخطايا ، فكراً ، وقلباً ، وحواساً ،
ولساناً ، وجسداً ، وعملاً... ودخل فى حروب العدو، بكل تنوعها، وكل شدتها،
وكل إلحاحها واستمرارها، وجاهد، وسندته النعمة، وانتصر... واستمر منتصراً...
هى إذن درجة عالية جداً . ليست هى بدء الحياة الروحية ، إنما قد تكون فى
نهاية المطاف، حتى تستحق الطوبى التى قال فيها الرب « طوبى لأتقياء القلب، لأنهم
يعاينون الله » (متى ٥ : ٨).

ومن مقاييس هذه النقاوة :

النقاوة من الإفطار والأصوام

بالإضافة إلى النقاوة من الخطية ، توجد النقاوة من الأفكار والظنون.
قال أحد القديسين « ليست فقط أعمالك الخارجية هى التى تظهر حقيقتك،
إنما بالأكثر أفكارك وظنونك»... وضرب لذلك مثلاً فقال : ربما يكون إنسان واقفاً فى
مكان فى الظلام، يراه ثلاثة أشخاص . فيفكر أحدهم إنه سارق يختبئ إلى أن
يتحين الفرصة للسرقه، والثانى يظنه سىء الخلق ينتظر امرأة . بينما الثالث يفكر أن
هذا الإنسان يقف فى الظلام، فى مكان لا يراه أحد، ليصلى...

وهكذا حسب حالة القلب ، تكون الأفكار والظنون .

وفى ذلك يقول الكتاب « الإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يُخرج
الصالح . والإنسان الشرير من كنز قلبه الشرير يخرج الشر » (لوقا ٦ : ٤٥). وكما
يقول المثل « كل إناء بما فيه ينضح »...

لذلك إن كانت ظنونك سيئة ، فقلبك لم يتنق بعد .

فالإنسان ذو القلب النقي ، دائماً تكون أفكاره نقية ، ولا يظن السوء . وعلى قدر
إمكانه يأخذ الأمور ببراءة وطهارة . وهكذا لا يعثره شىء ، ولا يدين عملاً ما، إلا
الخطية الواضحة التى تحمل دينونها فى ذاتها .

والأمور التى تحمل وجهين ، يأخذ الوجه المنير منها .

من أجل هذا ، أمثال هؤلاء الأشخاص يكونون فى علاقة حسنة مع الناس ،

لأنهم لا ينسبون خطأ لأحد، ويعذرون كل إنسان في تصرفاته .

لعلك تسأل : هل معنى هذا أن القلب النقي لا تحاربه ظنون وأفكار

شريرة؟

نقول : نعم قد تحاربه من الخارج ، دون أن تنبع من داخله . بل على العكس يكون من الداخل رافضاً لها . لا يقبلها ، بل يطردها بسرعة . والخديعة التي يتعرض لها البعض هنا ، هي أن يستبق الفكر الشرير ، ولو بحجة فحصة أو محاربهته ، أو بنوع من الفضول ليرى إلى أين ينتهى ! فتكون النتيجة أن يدنس الفكر ، ويفقده نقاوته . والوضع السليم هو طرد الفكر بسرعة ، لأن القلب النقي يشمئز من الأفكار الخاطئة ، ولا يقبل حتى مجرد فحصها .

من ضمن مقاييس النقاوة إذن ، نقاوة الظنون والأفكار .

والمقياس الثانى للنقاوة ، هو نقاوة الأحلام .

فقد يوجد إنسان عقله الواعى محترس ، يراعى نقاوة أفكاره ، بينما تكون أحلامه فيها الكثير من الأخطاء ، لأن عقله الباطن يحوى رصيداً قديماً من الخطايا ، لم يتنق بعد من صورها وقصصها وذكرياتا . فإما أن تكون ذاكرته لا تزال مدنسة بخزيتها الرديء ، أو أن هناك بعض مشاعر فى القلب ، كامنة فى أعماقه لم تتنق بعد ، وهى مصدر أحلامه الخاطئة التى تعكر نقاء ذهنه .

يحتاج هذا أن يتنقى من ماضيه ، كنهو نقاوته من حاضره .

وعلى أية الحالات ، قد تحتاج نقاوة الأحلام إلى فترة من الزمن ، إلى أن يصبح الإنسان فى وضع بعيد تماماً عن الأحلام الشريرة . فبالوقت وبعدم التكرار ، تختفى مصادر هذه الأحلام من الذاكرة . ويحتزن العقل الباطن بدلاً منها أموراً نقية طاهرة ، تتناسب مع حياة التوبة والنقاوة التى يحياها ، وتكون مصدراً لأحلام نقية تماماً .

إذن من مقاييس نقاوة القلب ، نقاوة الأفكار والظنون والأحلام ... تبقى درجة

أخرى للكاملين أو للناضجين ، وهى :

النقاوة من الأباطيل

أى النقاوة من الأمور الزائلة أو الباطلة .

ونقصد بهذه الأمور الزائلة أو الباطلة، من يقضى مثلاً وقتاً طويلاً يتحدث في أمور تافهة، لا هى خطية، ولا هى بر... أو يقضى وقتاً يفكر في أمثال هذه الأمور أو ينشغل بها... ويدل بذلك على أن فكره أو قلبه يمكن أن يتشغل بهذه التافهات، ويمكن بسببها أن يضيع وقتاً كان يمكن أن يقضيه مع الله، في صلوات أو تأملات أو قراءات روحية أو تسابيح، أو أى أمر ذي قيمة، يناسب حالة القلب النقي ...

هذه الأمور الزائلة لا هى خير في ذاتها، ولا هى شر في ذاتها. ولكنها تفاهات تعطل العمل الروحي الإيجابي.

هذه الأباطيل هى التى منعنا عنها الرسول بقوله « غير ناظرين إلى الأشياء التى تُرى، بل إلى التى لا تُرى. لأن الأشياء التى تُرى وقتية، أما التى لا تُرى فأبدية» (٢ كو ٤ : ١٨). والإنسان الذى لا ينظر إلى المرئيات، هو الذى يقول مع داود النبى «أما أنا فخير لى الإلتصاق بالرب» (مز ٧٣ : ٢٨). والإلتصاق الكامل بالرب، لا يأتى إلا بنقاوة القلب.

إن النقاوة من الخطية حالة مقدسة، لا يسميها الآباء نقاوة القلب.

إنما يسمونها الطهارة. والتهارة أقل من النقاوة في الدرجة.

الطهارة - في كثير من مفوماتها - سلبية في قداستها، تعنى البعد عن النجاسة والخطية. أما النقاوة فقداستها إيجابية، وهى الإلتصاق الدائم بالله فكراً وقلباً وعملاً. وتأتى كمرحلة بعد الطهارة. ومن مميزات النقاوة من الأباطيل... فاهى هذه الأباطيل.

إننا نعيش في عالم مملوء بهذه المرئيات الزائلة. فهل نغمض أعيننا حتى لا نرى، عملاً بقول الرسول «غير ناظرين إلى ما يُرى»؟

كلا، لا نغمض أعيننا. وإنما لا نهم بما نرى ونسمع.

أى أن تقع أعيننا على شىء تراه، فتجوز مقابله، وهكذا باقى حواسنا. والمعروف أن «الحواس هى أبواب الفكر». وأن ما تجمع حواسنا، تفكر فيه

عقولنا ، أو على الأقل يدخل فكره إلى أذهاننا . وهنا نكون أمام أحد تصرفين :
إما أن يمر فكر هذه الأمور بسرعة ويعبر كالدخان . وهذه حالة من حالات
نقاء القلب . وإما أن يستقر الفكر قليلاً أو طويلاً فينا ، ويشغل في داخلنا
بدرجات تتفاوت في الحدة وفي المدة ، حسب نقاوة كل منا .

الإنسان الذي لم يتنق بعد ، قد تجلب له هذه المرئيات أفكار خطية ، وتتحول
فيه إلى رغبات وشهوات ... ولست عن هذا أتكلم ، فالحديث عنه خاص بالنقطة
الأولى وهي « النقاوة من الخطية » .

ولكني أقول إن مثل هذه المرئيات قد تجلب لإنسان الله ، لا أفكار الخطية ،
وإنما بعض الإنشغال أو الإهتمام ، تختلف حسب نقاوة القلب ، حسب موته عن
العالميات ، أو موت العالميات في القلب .

هذه الأفكار الزائلة ، هي على الأقل تضيع الوقت .

والوقت هو جزء من حياتك . لم يعطه لك الله لكي تضيعه ، إنما لكي تستفيد
منه ، لأجل خلاص نفسك ، ولأجل تنقية قلبك وفكرك ، ولأجل ربط مشاعرك
بالله ... فلا تضيعه في التافهات .

والعقل المشغل بالتافهات يدل على قلة محبته لله .

إذ أن قلبه ليس متحداً بالله اتحاداً كاملاً مستمراً ، وتوجد أمور تافهة تشغل عقله
عن الله ، ولو في ثرثرة لا فائدة منها . فتى تنتق من كل هذا ، ولا يصبح في قلبك
إلا الله وحده ؟

القلب النقي نقاوة كاملة ، هو القلب الذي مات بالتام عن أباطيل العالم
كلها ، لكي يحيا بالتام للرب .

وعقله أصبح غير متفرغ لهذه الأشياء التي تُثرى ، من فرط انشغاله بما لا يُرى .
إن العقل دائب العمل ودائم التفكير . إنما يختلف تفكيره بحسب المادة التي ينشغل
بها ، وهي واحدة من إثنين : إما مرئيات ، وإما أمور لا تُرى . والإنشغال بالأمور
الإلهية التي لا تُرى هي حالة النقاوة المثالية .

وقد يكون التفكير في الأمور الزائلة ، هو حالة متوسطة بين أفكار الخطية
والأفكار الإلهية .

إنها ليست خطية بالنسبة إلى الشخص العادى ، ولكنها حالة نقص فيه . وقد تتطور فتنحول إلى خطية . والقديسون يهربون من هذا النقص ، الذى يدل على أن القلب لم يتنق بالكمال من العالميات .

القديس بولس الرسول - فى حديثه عن المتزوج - قال إنه « يهتم فيما للعالم » (١ كو ٧ : ٣٢ ، ٣٣) . وهناك أمور أخرى غير الزواج تسبب اهتماماً بالعالميات ، ربما الوظيفة ، أو الأسرة ، أو الدراسة العالمية ، أو بعض النشاط الإجتماعى ، أو المال ، أو شهوات الجسد عموماً ... فيفحص كل منا ذاته ، وليعرف الأبواب التى يدخل منها العالم إليه بأباطيله ، ويجد له مكاناً فى الفكر أو فى القلب .

وهنا أحب أن أفرّق بين كلمتين : العمل والإهتمام .

قد يعمل الإنسان فى المرئيات ، دون أن تعمل المرئيات فيه

ويكون قلبه مع الله . كما كان الآباء القديسون يعملون فى الخوص فى البرية ، وقلوبهم يعمل عمله الإلهى فى التزمير والصلاة والتسبيح . كانوا يعملون فى هذه الأشياء ، وهم « غير ناظرين إليها » أى غير منشغلين بها .

إن الرب لم يوجه اللوم إلى مرثا لأنها كانت تعمل ، وإنما لأنها كانت بالعمل فى حالة اهتمام واضطراب (لو ١٠ : ٤١) . العمل لم يكن فى يديها فقط ، وإنما وصل إلى الفكر والقلب فانشغلا به . وفى انشغالها عجزا عن أن يتفرغا للرب « فلازما الواحد ، واحتقرا الآخر » لأنه لا يقدر أحد أن يخدم سيدين فى وقت واحد (متى ٦ : ٢٤) .

فهل يمكن إذن أن نعمل عملاً ، دون أن نشغل ونضطرب ونهتم ؟ إن هذا هو المطلوب من القلب النقى « أريد أن تكونوا بلا هم » (١ كو ٧ : ٣٢) . وكيف يكون هذا ؟

بأن تكون علاقتنا بالمرئيات سطحية ، لا تدخل إلى العمق .

وهذا يتوقف على مدى تقييمنا للأمور .

كلما ازدادت قيمة الأمر فى نظرنا ، ازداد عمقه فىنا واهتمامنا به . لذلك فإن آباءنا الذين مات العالم فى نظرهم ، وحسبوه نفاية لكى يريحوا المسيح (فى ٣ : ٨) ، هؤلاء لم تعد لكل أمور العالم قيمة عندهم ، مهما كانت قيمتها خطيرة فى أعين

الآخرين الناظرين إلى ما يُرى... وبالتالي لم تعد هذه الأمور تشغلهم، ولا يضطربون لها، بل يجيئون في سلام. وينطبق عليهم قول القديس بولس الرسول: «والذين يستعملون هذا العالم، كأنهم لا يستعملونه» (١ كو ٣١:٧).

ولكننا كثيراً ما ننسى أنفسنا وروحياتنا. فنسمع مثلاً خيراً معيناً، أو نقرأ عن حادث ما، أو نضل في إحدى المناقشات... وهنا ننسى أن قلبنا وعقلنا كليهما للمسيح. ونظلم نتكلم ونعلق ونناقش، ونبدى الآراء، ونتمحس في الرد على المعارضين. وقد يكون الأمر لا يستحق شيئاً من هذا. ولكنه مع ذلك يملك - لا على ألسنتنا فقط، ولا على فكرنا فحسب - وإنما أيضاً على أعضابنا وعواطفنا... وهنا تكون المياه قد دخلت إلى أنفسنا. وأصبحنا نهم ونضطرب لأجل أمور كثيرة. أما الواحد الذى الحاجة إليه، فلا نكون متفرغين له، بل مفكرين أننا «عندما يحصل لنا وقت نستدعيه» (أع ٢٤: ٤٥).

وقد نرجع إلى بيوتنا، وما يزال الموضوع في أذهاننا، وقد نصبه أيضاً في عقول غيرنا، فنشغل الآخرين به.

والأفكار ليست عواقف، إنما تلد أفكاراً أخرى ...

وقد يتعمق الفكر في عقلنا الباطن، ويلد أحلاماً ووطنياً. وقد نقف ونصلي، فنتطيش عقولنا في أفكار كثيرة، ذلك لأننا أعطينا تلك الأفكار عمقاً فينا، فأخذت سلطاناً علينا... فاحذر، لا تعط أمور العالم عمقاً في فكرك ومشاعرك ووقتك. وإن سرقك الإعتياد القديم، إستيقظ بسرعة، وقل للرب مع المزمع «أردد عيني لثلاث تعالينا الأباطيل» (مز ١١٨ هـ).

يقظة العقل والجهاد مع الأفكار، يسبقان نقاوة العقل والقلب .

القديس الأنبا أور كان يقول لتلميذه « أنظريا إبني، لا تدخل هذه القلاية كلمة غريبة» يقصد أية كلمة غريبة عن الله وملكوته. والقديس الأنبا يوحنا القصير كان ينفذ أذنيه قبل الدخول إلى قلايته، حتى لا تدخلها مناقشات سمعها من آخرين ...

هذا جهاد سلبى ... أما من الناحية الإيجابية فإنه :

تعوزنا الغربية عن العالم ، مع هذيد الفكر بالإلهيات .
 شعور الإنسان بقربته عن العالم ، يجعله لا يقحم ذاته في أمور العالم وحوادثه
 وأخباره وأحاديثه وارتبكاتاه . وإن وصل إليه شيء منها ، لا يتفاعل معه ولا
 يتجاوب ، قائلاً لنفسه « غريب أنا . ما شأني بهذا الأمر » .
 كذلك انشغال الفكر بالإلهيات ، يجعله غير متفرغ لأمور العالم بل نافرماً منها ،
 لأنها تعطله عن هذيده الإلهي الذي يقول فيه « محبوب هو إسمك يارب ، فهو طول
 النهار تلاوتى » (مز ١١٨ م) .

متى يصل القلب والفكر إذن إلى النقاوة ؟

عندما يتخلص الإنسان من الخطية ، وعندما يتنقى من الأحلام والأفكار
 والظنون ، وعندما يتنقى من الأباطيل ...
 كل هذا من الناحية السلبية . فإذا إذن عن الناحية الإيجابية ؟

الناحية الإيجابية في النقاوة

في نقاوة القلب ، تملكه محبة الله بدلاً من محبة العالم .
 فيفعل كل شيء من أجل محبته لله ، وليس مجرد طاعة لأمره أو تنفيذاً
 لوصاياه . حتى ترك الخطية ، يتركها لأن محبة أعمق بكثير قد حلت محلها ، وأشعرته
 عملياً بتفاهة محبة الخطية ونجاستها أيضاً . وبمحبة الله تدخل النقاوة في دور إيجابي
 جديد ...

فتظهر ثمار الروح القدس في حياة هذا التائب .

التي قال عنها الرسول « وأما ثمر الروح فهو محبة ، فرح ، سلام ، طول أناة ،
 لطف ، صلاح ، إيمان ، وداعة ، تعفف . ضد أمثال هذه ليس ناموس » (غل ٥ :
 ٢٢) . أى انتقل من مرحلة الناموس والوصايا ، إلى مرحلة الحب ...

تتحول علاقتك بالله إلى حب ...

كعلاقة صديق بصديقه ، وابن بأبيه ، وحبيب بحبيبه .

وتجد كل اللذة في الوجود مع الله . وصلاتك تتحول إلى مناجاة حب ، لا
 تكون واجباً ، ولا عملاً كنيسياً ، ولا صفة من صفات الروحانيين ، إنما تكون مجرد

تعبير عن الحب الكبير الموجود في قلبك نحو الله... وهكذا تكون باقي أعمالك الروحية...

والحبة هي أول ثمرة من ثمار الروح . وهناك ثمار أخرى ، لا بد أن تظهر في قلبك بحياة النقاوة . ولعلك تسأل :

هل كل ثمار الروح لازمة في حياة النقاوة ؟

نعم ، لأنه قال « إصنعوا ثماراً تليق بالتوبة » (لو ٣ : ٨) . ولأنه أيضاً قال « كل غصن فتي لا يأتي بشمر ينزعه . وكل ما يأتي بشمر ينقيه ، ليأتي بشمر أكثر » (يوحنا ١٥ : ٢) . إذن جاهد بكل قوتك لتحصل على هذه الثمار ...

أتريدني أن أحدثك عن نقاوة القلب ؟ إذن فسأحدثك عن كل عنصر من هذه الثمار على حدة ، وعنهما كلها معاً كوحدة متجانسة . وهذا أمر يحتاج إلى كتاب خاص أو إلى مجموعة كتب . وليس الآن وقته .

أما الآن ، فأتابع معك نقاوة القلب ، وأحدث عن قمتها :

هناك نقاوة نناها في الأبدية وهي :

نقاوة القلب من معرفة الحظية

وهذا نقسم نقاوة القلب إلى نوعين : نوع يمكن أن نناله هنا على الأرض ، وهو ما قد ذكرناه . ونوع لا نناله إلا في الأبدية في العالم الآخر ، نذكره هنا لكي نشبهه ونطلبه ، ولكي نعرف مقدار عمق النقاوة التي ستكون لنا هناك ...

إن الذي أفقدنا نقاوتنا الأولى ، هو أكلنا من شجرة المعرفة .

كنا لا نعرف إلا الخير فقط . فلما أكلنا من شجرة معرفة الخير والشر ، صرنا نعرف الشر أيضاً . ودخلنا في ثنائية الخير والشر ، البر والإثم ، الحلال والحرام .

أقصى ما نصل إليه حالياً ، هو أنه مع معرفتنا للخير والشر ، نختار الخير ونسير فيه . أما إننا لا نعرف الشر إطلاقاً ، فهذه درجة عالية لن نصل إليها على الأرض .

إنما ستوهب لنا في الأبدية ، حينما نلفظ الثمرة التي أكلناها . وحينئذ :

لا نعرف سوى الخير فقط . ونتخلص من ثنائية الخير والشر .

تصبح لها صفة البساطة والبراءة التي لا تعرف شراً .

مثل الطفل البريء الذي لا يعرف شيئاً من المكر والتدابير والحيل والشُرور التي يقدمها له المجتمع فيما بعد ، فتفقد براءته .

نقاوة مثل نقاوة آدم وحواء قبل الأكل من ثمرة الشجرة ، تلك التي أدخلت في عقله أفكاراً لم تكن فيه من قبل ، وأفقدته بساطته ، وتفتحت عيناه على أمور ، لعله يقول « ليتني ما كنت قد عرفتها » ... ثم تطور الإنسان من معرفة الشر إلى اختباره .

فإن كنت قد عرفت أشياء عن الخطيئة ، لا تكمل المسيرة .

مادامت معرفة الخطيئة تضرك ، فلا تصف إليها شيئاً جديداً . وحاول أن تنسى ما عرفته بعدم استعماله ، وعدم الحديث عنه . ولا تفكر في تلك المعلومات . وإن تذكرتها ، حاول أن تستبدلها بغيرها .

ولا تجعل معرفة الخطيئة تتحول من معرفة سطحية إلى معرفة عميقة . ولا تجعلها تتحول من معلومات إلى اختبار ، إلى مذاقة ، إلى قبول أو صراع معها . أوقف هذه المعرفة عند حد ، على قدر إمكانك .

واطلب من الله أن ينقئ أفكارك ، ويظهر عقلك الباطن وذاكرتك ، من كل ما ترسب فيها وما تسجل فيها ...

واسرح في إكليل الرب الذي سببه الرب لنا ،

في ذلك اليوم (٢ تي ٤ : ٨) . حينما تنزع منا كل معرفة للخطيئة ، ولا توجد خطيئة فيما بعد . وتصبح كل خبراتنا مع الخطيئة في هذا العالم ، كأنها حلم مزعج قد استيقظنا منه في الأبدية ، وقد نسيناه تماماً ... حقاً ما أجل هذا !

ولكن مادامت النقاوة من معرفة الخطيئة ، ليست في هذا العالم ، فإذا نفعل ؟

دربوا أنفسكم على حياة البساطة الروحية .

لا تجعلوا عقلكم وحده هو الذي يعمل ، في تعقيدات الفكر والجدل ، إنما أضيفوا إليه بساطة الروح . ولتكن لكم العين البسيطة النيرة . ولا تختلطوا بالخطيئة ولا بأفكارها وقصصها ، حتى لا تتدنس ، أذهانكم بتذكارات الشر الملبس الموت .

واصبروا على النقاوة ، مهما تأخر وصولها . واطلبوها كهبة من الله لكم . واجعلوا الشر دائماً خارجكم ، مهما كثرت حروب .

وليكن الرب معكم .

بللت فراشى بدموعى

تقال على نغمة رنى إجدبنى

بللت فراشى ، بدموعى المرة وعاهدت إلهى إلهى ، دى آخر مرة
ها اثبت فى حبك ، واثبت كالصخرة من كل قلبى قلبى ، مش راجع تانى
مش راجع تانى ، مش راجع تانى ، من كل قلبى قلبى ، مش راجع تانى

وجات علىّ ، الحرب قوية رجعت تانى تانى ، لعمق الخنطية
فبكيت من قلبى ، بتوبة نقيه لسكن لمدة لمدة ، ورجعت تانى
ورجعت تانى ، ورجعت تانى ، لكن لمدة لمدة ، ورجعت تانى

قويت إرادتى ، كترت عهودى من فرط غرورى غرورى زودت عهودى
واثق بعزمى ، واثق بجهادى خانتنى نفسى نفسى ، ورجعت تانى
ورجعت تانى ، ورجعت تانى ، خانتنى نفسى نفسى ، ورجعت تانى

فصرخت بشدة ، وقلت ارحمنى أنا عارف ضعفى ضعفى ، يارب أعنى
القوة منك ، من فوق مش منى طول ما أنت معايا معايا مش هارجع تانى
مش هارجع تانى ، مش هارجع تانى ، طول ما انت معايا معايا مش هارجع تانى

حفظ التَّوْبَةِ

- إمكانية الرجوع .
- بدأوا بالروح وكمّلوا بالجسد .
- الكنعانيون في الأرض .
- لا تعرجوا بين الفرقتين .
- الفصل بين النور والظلمة .
- الإهتمام بالروح .
- وسائل أخرى .

امكانية الرجوع

سهل أن يتوب المرء يوماً ، إنما المهم أن يتوب باستمرار .
أى أن يعيش في حياة التوبة ، أو يعيش في التوبة حياته كلها ، فلا يرجع مرة
أخرى إلى الخطية ...

سهل جداً أن يدرّب الإنسان نفسه ، وينجح في تدريب روجى لمدة يوم أو يومين
أو أسبوع . ولكن هل من الممكن أن يستمر في هذا التدريب الروجى مدى الحياة ؟
هكذا في التوبة ، المهم فيها هو حفظها ، أى استمرارها .
لأنه ما أسهل الرجوع ...

إن الشيطان الذى يرقب حياة الإنسان ، لا يستريح مطلقاً أن يفلت هذا الإنسان
من يده بالتوبة . لذلك يحاول بكل الوسائل والحيل أن يرجعه عنها ، ولو بعد فترة
طويلة ...

وعصر القضاة مثال واضح جداً لهذا الرجوع ...
كانوا يسيرون في عبادة الأوثان وفي نجاسات الأمم المختلطة بهم . وكان الرب
يخلصهم بأحد القضاة يقيمه عليهم ، فيتوبون ... ولكن « عند موت القاضى ، كانوا
يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ... » (قض ٢ : ١٩) .

وكانت فترات التوبة تستمر أحياناً عشرات السنوات ، ثم يرجعون .
نقرأ في سفر القضاة « واستراحت الأرض أربعين سنة ، ومات عشتيل ... وعاد بنو
اسرائيل يعملون الشر في عيني الرب » (قض ٣ : ١١ ، ١٢) ... « واستراحت الأرض
ثمانين سنة ... وعاد بنو اسرائيل يعملون الشر في عيني الرب ، بعد موت أهود » (قض
٣ : ٣٠ ، ٤ : ١) ... « واستراحت الأرض أربعين سنة . وعمل بنو اسرائيل الشر في
عيني الرب » (قض ٥ : ٣١ ، ٦ : ١) ...

إنها قصة تكررت في حياة هذا الشعب ، وفي حياة غيره .
سواء من الشعوب أو الأفراد ... من قلوب غير ثابتة في محبة الرب ، وغير جادة في
حياة التوبة ... لم تنته من حياة الخطية . تتركها ثم تعود إليها ، حتى شبهها الرسول
بتشبيه صعب :

كلب قد عاد إلى قبته . وخنزيرة مفتسلة إلى مراغة الحمأة .

وهكذا يقول بطرس الرسول « لأنه إذا كانوا بعدما هربوا من نجاسات العالم بمعرفة الرب والمخلص يسوع المسيح ، يرتبكون أيضاً فيها فينقلبون ، فقد صارت لهم الأواخر أشرف من الأوائل . لأنه كان خيراً لهم لو لم يعرفوا طريق البر ، من أنهم بعد ما عرفوا يرتدون عن الوصية المقدسة المسلمة لهم . قد أصابهم ما في المثل الصادق : كلب قد عاد إلى قبته ... (٢ بط ٢ : ٢٠-٢٢) .

نعم كثيرون ساروا مع الرب مرحلة ، ولم يكملوا الطريق . إما أنهم شعروا بصعوبة الطريق ، فتركوه وتركوا الرب معه ... ولم يقدرُوا أن يحملوا صليبه حتى النهاية . أو أنهم خانوا الرب ، إذ عادوا ففضلوا الخطية عليه . وهؤلاء انطبق عليهم ما قاله القديس بولس الرسول عن الغلاطيين الأغبياء (غل ٣ : ١ ، ٣) إنهم :

بدأوا بالروح وكملوا بالجسد

وقد قدم لنا بولس الرسول مثلاً آخر هو ديماس . ديماس الذي كان أحد مساعدي القديس بولس في الخدمة والكراسة ، أي كان أحد أعمدة الكنيسة . وقد قرنه الرسول مرة باسم لوقا الطبيب (كو ٤ : ١٤) ، وصرح بأنه من العاملين معه « مرقس وارسترخس وديماس ولوقا » (غل ٢٤) ... ديماس الكارز هذا ، إنتهت قصته بعبارة مؤلمة قال فيها القديس بولس الرسول :

ديماس قد تركني ، إذ أحب العالم الحاضر (٢ تي ٤ : ١٠) .

إنه مؤلم حقاً أن تعود محبة العالم الحاضر ، فتغزوا قلب كارز عظيم من مساعدي بولس الرسول . إن كان الأمر هكذا ، فليحترس كل أحد من العالم ومحبهه ، مهما تاب ...

والقديس بولس يذكر لنا أمثلة أخرى غير ديماس ، إنتهوا إلى نفس النهاية المؤلمة ، قال عنهم لأهل فيلبى :

لأن كثيرين ... ممن كنت أذكرهم لكم مراراً ، والآن أذكرهم أيضاً باكباً ،

(١) عن محاضرة أقيمت في الكاتدرائية الكبرى مساء الجمعة ١٩٧٤/٨/٩ .

وهم أعداء صليب المسيح (في ١٨:٣).

ويكمل كلامه عنهم فيقول « الذين نهايتهم الهلاك ، الذين إلهم بطنهم ، ويحدهم في خزيم ، الذين يفتكرون في الأرضيات » (في ٣:١٩).

هؤلاء لم يكونوا مؤمنين عاديين ... يكفي أن بولس الرسول كان يذكرهم في رسائله . والمؤلم أن يقول « لأن كثيرين ... » فهم إذن ليسوا واحداً أو اثنين ... والمؤلم أكثر قوله « نهايتهم الهلاك » ... ومادام الرجوع إلى حياة الخطية ممكناً لمن لا يحترسون ، فيسمحون لدخول محبة العالم إلى قلوبهم :

إذن لا تفتخر إن تبت وبدأت حياة روحية ، المهم أن تكمل .

تكمل السير في الطريق الروحي حتى نهاية الشوط ، حتى نهاية أيام غربتك على الأرض . فقد قال الرسول « أنظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم » (عب ١٣: ٧) . إذن المهم أن تستمر التوبة حتى نهاية السيرة . ولا يكون التائب كالذين بدأوا بالروح وكملاوا بالجسد ...

هل إن تبت ، وسرت مع المسيح فترة روحية جميلة ، ثم عدت إلى الخطية ... أتستطيع الأيام الروحية أن تخلصك؟! أم أن ما انتهت إليه ، هو الذي ستحاسب عليه ... ؟

إن شاوول الملك من الأمثلة الواضحة .

مسحه صموئيل النبي ملكاً ، وحلّ عليه روح الرب ، وأعطاه الرب قلباً آخر ، وتنبأ حتى تعجب البعض قائلين « أشاؤل أيضاً بين الأنبياء؟! » (١ صم ١٠ : ٩ - ١١) . ومع كل هذا ، عاد شاوول فأخطأ ، وكثرت أخطاؤه ، ورفضه الرب . وقيل عنه « وذهب روح الرب من عند شاوول ، وبغته روح رديء من قبل الرب » (١ صم ١٦ : ١٤) . لقد بدأ مع الله ، أو بدأ الله معه . ولكن شاوول لم يكمل .

وكذلك شعب اسرائيل الذي جاز البحر وتبع الرب في البرية .

تخلصوا من عبودية فرعون . وعاشوا تحت قيادة الله المباشرة ، تظللهم السحابة نهاراً ، ويهدهم عمود النور ليلاً ، وأكلوا المن والسلوى . وكانوا أول شعب أرسل له الله شريعة مكتوبة ، وتعهدوا قائلين « كل ما تكلم به الرب نفعل ، ونسمع له » (خر ٢٤ : ٧) ... ومع ذلك عادوا وأخطأوا إلى الرب كثيراً ، وتذمروا ، وعبدوا العجل الذهبي (خر ٣٢) . وغضب الرب على ذلك الجيل المتذمر ، ورفض إدخاله أرض الموعد ، ومات كله في البرية ...

هل تظنون أن كل الهالكين بدأوا طريقهم باهلاك !؟

كلا طبعاً ، فالشيطان نفسه بدأ حياته كملاك طاهر منير ، ولكنه لم يكمل . فكمل بالأولى البشر الذين عرفوا الخطية فترة ثم تابوا... إذن لا يهنا نقطة البدء ، بل نهاية المطاف .

المراطقة لم يبدأوا تاريخهم كهراطقة ...

بل إن بعضهم بدأ بداية طيبة جداً ... أوطأخى كان من أفضل رهبان القسطنطينية . كان إنساناً روحياً ، ورئيس رهبنة . ولكنه لم يكمل ، وانتهى إلى المراطقة . وأريوس كان من أفضل وأقوى كهنة الإسكندرية ... ونسطور كان من أقوى معلمى عصره ، ووصل به الأمر أن صار بطريكاً للقسطنطينية ... وانتهى كل هؤلاء إلى الضياع .

وأوريجانوس كان أعظم عالم فى عصره . وكان رجلاً زاهداً . وقد تألم كثيراً من أجل المسيح ، ودافع عن الإيمان ... وأخيراً انطبقت عليه تلك العبارة الأثيمة « أيها البرج العالى ، كيف سقطت !؟ » ... إذن فليحترس كل أحد...

وإن كنت قد تبت ، فاسمع هذه النصيحة :

لا يكفى الخروج من سدوم ، بل أكمل إلى صوغر .

لقد خرجت امرأة لوط من سدوم ، وكانت يدها فى يد الملاك . ولم تحترق مع المدينة المحترقة . ولكنها لم تكمل المسيرة مع الله ، وإنما نظرت إلى الوراء (تك ٢٩ : ١٦) . وهلكت بهذه النظرة الواحدة... باللرعب !

إحترس إذن من النظر إلى الوراء ...

لا تعد تفكر فى العالم الذى تركته من أجل الرب . ولا تحاول أن تتذكر ملاذ الخطية التى تبت عنها... لا تنظر مطلقاً إلى الوراء ، إنما « امتد إلى قدام » . وحاول أن تنموى توبتك لا أن ترجع إلى الخطية . فالذى يرجع ، يكون كمن يهدم كل ما بناه .

أنا لا أريد أن أحيقك بقول الرسول « لأن أرضاً قد شربت المطر الآتى عليها مراراً كثيرة ، وأنتجت عشباً صالحاً للذين فلحت من أجلهم ، تنال بركة من الله . ولكن إن أخرجت شوكتاً وحسكاً ، فهى مرفوضة وقرية من اللعنة التى نهايتها الحريق » (عب

ولا أريد أن أكرر ما قاله الرسول في نفس الرسالة «إن أخطأنا باختيارنا ، بعدما أخذنا معرفة الحق ، لا تبقى بعد ذبيحة عن الخطايا ، بل قبول دينونة مخيف...» (عب ١٠ : ٢٦ ، ٢٧) ... فلعل الرسول لا يقصد مجرد الخطية ، فكل إنسان معرض لها ، إنما يقصد حالة الإستمرار في الخطية ...
إنما كل ما أريد أن أقوله ، هو أن تحترس في توبتك .

إن تبت ، لا تغتر بنفسك . لا تستكبر بل خف (رو ١١ : ٢٠) .
لا تظن أن التوبة أعطتك حالة عصمة . فليس أحد بلا خطية سوى الله وحده (متى ١٩ : ١٧) . وما أسهل أن يحاربك العدو ليستطقتك . لذلك تمسك بالرب ، ولينسحق قلبك قدامه ليعطيك حياة النصر الدائمة . واذكر قول القديس بولس الرسول :

« تمموا خلاصكم بخوف ورعدة » (في ٢ : ١٢) .
ويطابق هذا أيضاً ما قاله القديس بطرس الرسول « ... سيروا زمان غربتكم بخوف » (١ بط ١ : ١٨) . وليس المقصود بهذا الخوف معنى الرعب . كلا ، بل المقصود به هو الحرص والحيطه ، والتدقيق في الحياة الروحية ، والبعد عن الغرور الذي يظن فيه التائب إنه قد تخلص من الخطية إلى الأبد ، وقد ارتفع فوق مستواها !!

في هذا الخوف أو الحرص ، لون من التواضع .
وكثيرون خلعوا بهذا التواضع ... الذي فيه يشعر الإنسان بضعفه ، وبأنه لا يزال تحت الزلل ، ويحتاج إلى حرص حتى من أبسط الخطايا ... فالذي يشعر بضعفه ، تحيط به قوة الله لتعينه وتخلصه ... وما أجل تواضع القديس بولس الرسول في قوله :
« ... أقم جسدي وأستعبده ، حتى بعد ما كرزت للآخرين ، لا أصير أنا نفسي مرفوضاً » (١ كو ٩ : ٢٧) .

فإن كان بولس الرسول يقول هذا عن نفسه ، فإذا نقول نحن عن أنفسنا ، ونحن أدري الناس بضعفنا...؟! وإن كان الرسول يقول «أقم جسدي وأستعبده» . ألا يعطينا بهذا درساً في استمرار الحرص مدى الحياة؟!

الحرص يدل على أن التائب جاد في توبته .
ويدل على أنه صادق في مواعيده التي وعد بها الله لما بدأ توبته . فكن حريصاً

باستمرار « أذكر من أين سقطت وتب » (رؤ ٢ : ٤) . إبحث عن أسباب الخطية التي اسقطت فيها قبلاً ، وابعدها بكل قوتك .
ومن الأفضل أن نفرّد لهذه النقطة موضوعاً خاصاً وهو :

الكنعانيون في الأرض

كثيرون بعد أن تابوا رجعوا إلى خطاياهم . وكان السبب هو أنهم تركوا أسباب الخطية قائمة كما هي ، وتركوا أبواب الخطية مفتوحة ... لذلك عادت إليهم الخطية ، أو عادوا هم إليها ، لأن مصدر الخطية مازال موجوداً كما هو . وهذا يذكرنا بقصة الكنعانيين في الأرض . فإلى هذه القصة وما مغزاها ؟ الكنعانيون هم بعض الأمم الذين كانوا يعبدون الأصنام ، وقد صدر الأمر بإخراجهم من الأرض حتى لا يصبحوا عشرة لجذب شعب الله إلى عباداتهم وعشرتهم . وكان الكنعانيون أقوياء جداً . والذي حدث أن يشوع لم يطردهم من بعض المناطق ، وبقوا عبيداً تحت الجزية (يش ١٦ : ١٠) . وازدادت شوكتهم . وكان شعب الله إذا اشتدوا « جعلوهم تحت الجزية ، ولم يطردوهم طرداً » (يش ١٧ : ١٣) . وتكررت نفس العبارة في سفر القضاة أيضاً (قض ١ : ٢٨) .

فسكن الكنعانيون في الأرض (قض ١ : ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣) .
وصار الكنعانيون شركاءً لشعب الله ومضايقين له (قض ٢ : ٣) .
فاختلطوا بهم ، وتزاوجوا معهم ، وعبدوا آلهتهم (قض ٣ : ٥ - ٧) .
وأصبح الكنعانيون هنا رمزاً لبقايا الشر الموجودة في الأرض ، التي لم تنزع من جذورها ، فصارت سبباً لنسيان الله والبعده عنه والرجوع إلى الخطية مرة أخرى .

هنا ونسألك : حينما تبت ، وسمح لك الله أن تأكل في حياتك الجديدة لبناً وعسلًا ، هل استبقيت بعضاً من الكنعانيين في الأرض ، ولو كعبيد يخدمونك وهم تحت الجزية . تظنهم خاضعين لك ، بينما ينتهي الأمر أن تقع في نجاستهم وتعبد عباداتهم !!
هل استبقيت بعضاً من طباعك القديمة وأنت في حياة التوبة ؟
أقول هذا ، لأننا في بعض الأحيان ، نجد خداماً في الكنيسة ، وربما مكرسين

(١) عن محاضرة أقيمت في الكاتدرائية الكبرى مساء الجمعة ١٣/١٠/١٩٧٨ .

للخدمة، وطبعاً هؤلاء يرون أنفسهم أنهم ليسوا فقط في حياة التوبة، بل ربما بالأكثر في حياة البر، ومع ذلك لهم طابع تشبه أهل العالم تماماً! أخلاقهم علمانية وليست روحية! فكيف حدث ذلك؟ وكيف جمعوا بين الخدمة وهذه الطباع معاً؟ فلنضرب لذلك أمثلة:

١ - إنسان قبل أن يعرف المسيح كان غضوباً ... ثم تاب . ولكنه استبق معه الغضب!

قبل أن يتوب، وقبل أن يدخل في حياة الخدمة، كان يفض، ويحتد، ويعلو صوته، ويشتم، ويتشاجر... ثم تاب، واستبق الكنعانيين في الأرض. ترك معه هذه الطباع كما هي وتراه في الخدمة، وعلم الرغم من مسؤولياته الكثيرة فيها، يثور ويضج ويحتد، ويأمر وينهى بصوت عالٍ، ويشعل الجوناراً...

وتعاتبه على غضبه، فيقول لك إنه الغضب المقدس! ... أنا أغضب من أجل الله وحقوقه! وأثور من أجل إصلاح الأوضاع الخاطئة... من أجل الوصية... من أجل أن أعلمهم ماذا ينبغي أن يكون!

وفي الحقيقة إنه يثور، لأنه عاجز عن مقاومة الغضب داخله.

وفي الحقيقة ليس هذا غضباً مقدساً، لأنه ضد الوصية التي تقول «الحبة تتأني وترفق ولا تحتد» (١ كو ١٣: ٤، ٥). وضد الوصية التي تقول «غضب الإنسان لا يصنع بر الله» (يع ١: ٢٠). وأيضاً ضد الوصية التي تقول «ليرفع من بينكم كل مرارة وسخط وغضب وصياح... وكونوا لطفاء بعضكم نحو بعض» (أف ٤: ٣١، ٣٢).

والغضب المقدس يجب أن يكون مقدساً في وسيلته أيضاً.

وليس فقط في هدفه وغرضه. فالذى يثور بهذا الشكل يدل على أن أعصابه ليست سليمة، ويعطى قدوة سيئة ومظهراً غير مشرف للخدمة، ويدل على عدم نقاوة في الأسلوب وفي طريقة التعامل...

وكل ما في الأمر أن هذا الشخص استبق معه بعض طابع رديئة وأراد أن يسبق عليها صورة مقدسة، ويستخدمها بنفس أخطائها داخل الكنيسة. وأصبحت توبته وخدمته معثرة، وهي كمن يضع رقعة جديدة على ثوبه العتيق (متى ٩: ١٦). وكان الأولى به أن يترك كل الغضب القديم بكل صورته. وهنا يسأل: وهل لا أذافع عن

الحق ؟ فنجيبه :

إذا أراد الله أن يعطيك غضباً مقدساً للدفاع عن الحق ، فسيكون غضباً آخر مختلفاً في الجوهر والصورة والأداء والتعبير .
سيكون غضباً روحياً ، غير غضبك العلماني هذا . تغضب فيه ولا تخطيء (مز ٤) .

لقد دافعت أيجاييل عن الحق لما كلمت داود ، ولكن في أسلوب رقيق ومؤدب وحكيم (١ صم ٢٥) . والسيد المسيح كشف للمرأة السامرية أخطاءها ، ولكن بأسلوب روحى غير جارح (يو ٤) . وأولاد الله دائماً يعبرون عن احتجاجهم على الخطأ بطريقة روحية ليس فيها صخب ولا ضوضاء ولا نرفزة ، كل هذه الأمور التي من بقايا الكنعانيين في الأرض .

المشكلة هنا ، هي أن المقاييس الروحية غير سليمة .

إن المقاييس التي تحيز هذا الغضب الخاطيء ، وتعتبره مقدساً من أجل الله ، لا شك أنها مقاييس غير سليمة ، أو هي مجرد تبرير لوجود خطية قديمة لم يتطهر منها القلب بعد ، ولا تتفق مع حياة التوبة ، ولا مع ما يليق بالتوبة من تواضع وانسحاق ... ويمكن أن تتطور حتى تتلف روحيات الإنسان كلها ، وكأنه لم يتب .

٢ - مثال آخر هو الخلط بين الشتيمة والتوبيخ الروحى .

نفس الوضع . إنسان كان شتاماً قبل التوبة . ثم تاب ، أو ظن أنه تاب ، بينما استبق بعض أخطائه القديمة . ومن ضمنها الشتيمة وبعض الألفاظ الجارحة . واعتبر إنها نافعة له يمكن أن يستخدمها في توبيخ الخطاة . ومع نسيانه أن التائب ليس له أن يوبخ إلا نفسه ، وليس له أن ينسى خطاياها ، لكى يهتم بخطايا غيره ويكنه عليها ... إلا أنه مازال يتمسك بقول بولس الرسول « وبيخ إنتهر عظ » (٢ تي ٤ : ٢) .

وينسى ما هي الطريقة الروحية للإنتهار ...

إن القديس بولس الذى قال هذه النصيحة لتلميذه الأسقف تيموثاوس ، هو نفسه الذى قال لكهنة أفسس « ثلاث سنين ليلاً ونهاراً ، لم أفر عن أن أذبر بدموع كل واحد » (أع ٢٠ : ٣١) . فهل أنت تنذر الناس في حب ودموع ، أم في كبرياء وتسلط وفي احتقارهم ولمشاعرهم !؟

إن التائب لا ينهر أحداً . وإن انتهر ، لا ينسى روح الوداعة .

تلك التي قال عنها الرسول « أيها الأخوة ، إن انسحق إنسان فأخذ في زلة ما ، فاصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة ، ناظرأ إلى نفسك لئلا تجرب أنت أيضاً » (غل ٦ : ١) . نعم ، فنحن كلنا تحت الزلل . والتائب المتذكر لخطاياها ، إن تعرض لإصلاح أحد ، لا ينسى مطلقاً أنه أخطأ مثل هذا الإنسان قبلاً . فإن نسي ، يعرض نفسه لفقدان توبته ، وتدخله روح الكبرياء ...

أما الذي في انتباره يتناول ويشتم غيره ، فهذا لم يتب حتى الآن ، وعليه أن يتذكر قول الرسول :

« ... لا شتامون ... يرثون ملكوت الله » (١ كو ٦ : ١٠) .

الذي يستبق الشتيمة في طباعه ، إنما يستبق الكنعانيين في الأرض لإتلافها . والشتيمة لا يليق إستعمالها في الخدمة ، لأن وسائل الخدمة ينبغى أن تكون طاهرة .

لا يليق بالتائب أن يغطى خطاياها بآيات يسىء فهمها .

أو يسىء إستخدامها قصداً . الأفضل أن يعترف أن بعض ضعفاته مازالت موجودة لم يتخلص منها بعد ، مثل الغضب والنرفزة وحدة الطبع والشتيمة . وقد حملها معه في حياته الجديدة ، تعكر هذه الحياة ، وتمنعه من حفظ التوبة .

لا تقل « الروح القدس يبكت الناس على لسانى » . فالروح القدس له أسلوبه الخاص وألفاظه النقية .

هناك إنسان آخر يظن أنه تاب ، بينما يكون قد استبق خطية أخرى :

٣ - يكون قد استبق في توبته ما في طبعه من عناد .

والعناد يرتبط دائماً بالكبرياء . فهو نتيجة للثقة الخاطئة بالنفس ، والشبث بالرأى الخاص ، واحتقار آراء الآخرين ، وعدم المبالاه بنتائج صلابه رأيه ...

وقد يكون هذا العناد وهذه الصلابه في محيط الكنيسة والخدمة ومدارس الأحد . ويقول الجميع « فلان من الصعب التفاهم معه » ... ومع ذلك فهو ليس مجرد تائب ، إنما هو خادم ، وربما مسئول كبير في الخدمة ، ونشيط ، ويعظ ، ويتكلم في الروحيات واللاهوتيات والعقيدة وقصص القديسين . له معلومات . ولكن الكنعانيين لا يزالون في الأرض .

ويعاود أن يسمى عناده باسم (الدفاع عن الحق) .
بينما الحق يدعو أن يكون متواضعاً ومتفاهماً ومحترماً لآراء غيره... ولكنها ثياب
الحملان تلبسها بعض الخطايا . وحقيقة الأمر أن (الذات) ماتزال قائمة . وهذا الإنسان
ربما يكون في توبته قد تخلص من خطايا كثيرة ولكنه ...

ولكنه لم يتخلص من [الذات] ، حملها معه في توبته .
وما أكثر الذين يفشلون في توبتهم بسبب (الذات) ، وربما تسقطهم في عديد من
الخطايا ، وترجعهم إلى حالة ما قبل التوبة . ولكن كثيرين من الذين تابوا ، لا يحسون
بجرب الذات هذه ، وربما لا يرون إنها أكبر خطاياهم .

٤ - وهناك من يتوب ، ويستيقظ خطية الإذانة والانتقاد .
إنسان كان واقعاً في هذه الخطية إلى حد بعيد . ثم دخل في حياة التوبة . وشغلته
إلى حين الخطايا الكبيرة التي تركها . ثم مالبت خطية الإذانة التي كانت عنده أن
ظهرت مرة أخرى ... والعجيب أن هذا الإنسان كلما يحس أنه غا في التوبة ، واقترب
إلى الله ، وبعد عن الخطية ، على هذا القدر تزداد خطية الإذانة ظهوراً في حياته ...
وأصبح ينتقد كل شيء ، وكل أحد ، ولا يعجبه شيء !

البصيرة الروحية التي وهبت له في التوبة ، صار يوجهها إلى أعمال غيره وليس إلى
أعماله ! والمثالية التي أحباها في التوبة ، أصبح يقيس بها تصرفات الناس وليس تصرفاته
هو ! وإذا به ينتقد الكل ...

المسألة في واقعها ليست حرصاً على المثالية ، إنما هي عدم قدرة على ترك خطية
الإذانة والانتقاد التي تركها معه من ماضيه ، وإذا بالكنعانيين لا يزالون في الأرض .

وهذه الروح تدخل حتى في الخدمة والتعليم .
ففرع من فروع الخدمة ، يرفض المنهج العام ، ويظل ينتقد : هذا المنهج فيه أخطاء
كذا وكذا ، وينقصه كذا وكذا . ومنهج فرعنا أفضل ! ... ويتحول هذا الفرع إلى
«قطاع خاص» في محيط الخدمة ، ولا تهمة وحدة التعليم في الكنيسة . [الذات]
لا تزال باقية . لم تمت حين بدأت التوبة ...

وروح الانتقاد تجعل جماعات منغلقة على نفسها .

كانها جزائر داخل الكنيسة ، لا تتصل بأرض أخرى . قد تخرج منها سفن إلى هذه الأرض أو تلك ، وقد تأتيها سفن من أراض أخرى . ومع ذلك هي جزائر قائمة بنفسها ، داخل الذات ، التي ظلت باقية بعد التوبة .

ولا تكنف بهذه الإنفرادية ، وإنما تنتقد كل وضع آخر ، بكل عنف . فإن سألت واحداً منهم « لماذا كل هذا ؟ » يجيبك بعبارة أرمياء النبي « لست عينى ينبوع دموع ، فأبكي نهاراً وليلاً قتلى بنت شعبي » (أر ٩ : ١) .

يا أخى إيلك على خطاياك ، قبل أن تبكى على الشعب .

ولكن هذا النوع للأسف ، لا يرى له خطايا تحتاج إلى بكاء ... !

إنه بعد أن بدأ التوبة ، لم يعد مشغولاً إلا بخطايا غيره ، ولذلك يحيا باستمرار في جو مشبع بالإدانة والانتقاد للآخرين ، في غير رافة . أما من جهته هو ، فيضع نفسه تحت عبارة « لا يحتاجون إلى توبة » (لو ١٥ : ٧) . لذلك يعيش في منهج الفريسي لا العشار (لو ١٨ : ٩ - ١٤) ... الفريسي الذى يصوم ويعشر أمواله ، وليس هو من الظالمين الخاطفين الزناه . ولكنه يستبق الكنعانيين في الأرض ...

٥ - وقد يتوب الإنسان ، ولكنه يستبق في طباعه : الكسل .

ربما يكون إنساناً كسولاً ويتوب . ولكنه يترك خطاياها الأخرى ، ويحفظ بالكسل . فترى هذا الكسل واضحاً في خدمته ، في عبادته ، في تداريبه ، في قراءاته ، في حضوره للإجتماعات ، في مواظبته على الاعتراف . وإن سأله أحد كيف يسمح لنفسه بالبقاء في هذا الكسل ؟ يجيب « يكفينى إني أحب يسوع » !

وتتعجب ، هل محبته لرب المجد سبباً لكسله ؟!

هوذا الرسول يدعوننا أن نكون « حارين في الروح . غير متكاسلين في الاجتهاد . مواظبين على الصلاة » (رو ١٢ : ١١ ، ١٢) . ولكن يبدو أن محاولات تغطية الخطايا تكاد تصبح عادة عند البعض ... أما الإدعاء « بكفاية محبة الرب ، فالرد عليها بسيط ، وهو أن الرب نفسه قال : من يحبني يحفظ وصاياي (يو ١٥ : ١٠) . فأين حفظ الوصايا بالنسبة إلى هذا الكسل ؟!

٦ - وربما إنسان يتوب ، ويستبق معه خطية (التحايل) .

قبل أن يتوب ، كان هذا الطبع . يعرف أن يصل إلى غرضه بالأساليب

الملتوية، باللف والدوران، بالحيل البشرية، بالدهاء، بطرقه الخاصة... وبعد أن تاب، استبقى هذا الطبع معه... وصار يلجأ إليه أحياناً، كما لجأ يعقوب إلى خديعة أبيه لأخذ البركة!!

ربما تقع الكنيسة في مشكلة، أو تقع الخدمة في مشكلة. ويختار الكل كيف يكون حل الموضوع، فيتدخل هذا الإنسان ويقول «أتركوا لي هذا الموضوع لأحله»... وكيف تحله؟ «أحله بطرق الخاصة... أنا أعرف هذه اللعبة جيداً»... طبعاً يعرفها لأنه كان يلعبها من قبل، قبل أن يتوب. ولا مانع من أن يلعبها الآن...

ويتساءل البعض كيف أتى بذلك الحل؟ والجواب واضح. من الكنعانيين الذين لا يزالون في الأرض، يعطونه المشورة (الطيبة)!

وتشعر في حله للمشكلة أنه لم يتب بعد...

ومع ذلك ضميره لا يتعبه! قديماً كان يلجأ إلى اللف والدوران وإلى الطرق الملتوية من أجل أمور العالم... أما الآن فيلجأ إلى كل هذا من أجل الله!! لا داعي إذن لأن يوبخه ضميره! وهكذا ينحدر خارج التوبة. ولا يشعر في توبته أنه قد تغير... الشخصية القديمة مازالت كما هي لم تغير أساليبها... وبنفس الوضع ينحدر إلى ما هو أسوأ...

ويبقى معه الاعتماد على الذراع البشري، حتى في توبته. ويؤثر هذا الأمر على روحياته كلها، وقد ينتهي إلى فشله في حياة التوبة. ولكن ما كان يتنبه إلى هذه النقطة، إذ كان يظن أن التوبة هي مجرد ترك الخطايا (الكبار) أمثال الزنا والسرقه والسكر والقمار... الخ

٧ - وربما شخص يكون قد (تاب) ولكنه استبقى تبرير الذات.

اعتبر أن الدفاع عن النفس شيء عادي. ولكنه صار يدافع عن نفسه في كل شيء، كأنه لا يخطيء في شيء، حتى أبعد عنه كل ذى نصيحة أو عتاب. وربما عن طريق تبرير الذات يقع في أخطاء لا تحصى، مهما وصل إلى درجات في الخدمة... وهناك نوع آخر غير كل هؤلاء. كان محارباً بالكآبة...

٨ - ويتوب هذا الإنسان، ويستبقى الكآبة وباقي حروبها.

وإذا بك تجده يتعب في حياته الروحية بسبب أية مشكلة، وينهار، ويضطرب

ويفقد سلامه . ويقول : « لا فائدة منى . لقد يئست . لقد تعقدت من الموضوع الفلانى » .

إن الكآبة حرب من الشيطان ، أو تعب فى الأعصاب . وليست هى صفة من صفات أولاد الله ، لأن من ثمار الروح : فرح وسلام (غل ٥ : ٢٢) . ويمكن بهذه الكآبة ينحرف الإنسان عن طريقه الروحى ، ويفضل الطريق عن الله ...

إذن علينا أن نفحص أنفسنا جيداً ، لنرى ما الذى قد استبقيناها من حياتنا الأولى قبل التوبة ، لتتخلص منه .

لثلا نلظن أننا قد دخلنا كنعان فعلاً ، بينما نكون لانزال تائهين فى البرية . والذى يظهر نفسه من كل رواسب الحياة القديمة ، يمكنه أن يشق طريقه إلى الله بسهولة ، ولا ينتكس فى توبته .

وبالذات بالنسبة إلى الخطايا التى قد تأخذ صورة غير صورتها .

٩ - مثال حب المال أو حب القنية .

وقد يقول شخص : ولكن هذا الأمر واضح . كيف يمكن أن ينخدع به إنسان فى التوبة ؟ أقول لكم كيف تتم الخدعة ...

إنسان كان يحب المال ، أو كان بخيلاً لا يجب أن يصرف مما معه . ثم تاب ، أو ظن أنه تاب . وعاش فى الحياة الجديدة مع الله . وربما صار خادماً معروفاً ، أو راهباً فى دير . ثم تجد هذه الخطية القديمة تأخذ مظهراً كئيباً .

يرجع حب المال ، ولكن ... من أجل الكنيسة ، من أجل الدير ! ويكون ذلك بأسلوب قد لا يتفق مطلقاً مع حياة التوبة ، أو مع الروحيات عموماً . وقد يعتذر بقوله : أنا لا آخذ لنفسى شيئاً . أنا أجمع لله ! هذا حق ، ولكنه يجمع بطريقة علمانية غير روحية ، لا تتفق مع عدم محبة المال ، ولا مع النسك والزهد ! وقد ترى عجباً من بعض المسؤولين عن مال الكنائس والجمعيات . وتساءل أين حياة التوبة ؟ ولكن أمثال هؤلاء قد استبقوا بعض الكنعانيين فى الأرض .

وينطبق على هذا ، الكنائس الغنية التى لا تساعد الكنائس الفقيرة . ليس المال كله هو مال الله . وسواء عند الله تم الصرف على هذه الكنيسة أو تلك . ولكن محبة المال تدعو إلى جمعه هنا ، وليس هناك ... وما أكثر أمعاء الصندوق

قال إيليا النبي للشعب « حتى متى تعرجون بين الفرقتين ؟ إن كان الرب هو الله فاتبعوه . وإن كان البعل فاتبعوه » (١ مل ١٨ : ٢١) .

التعرج بين الفرقتين ، يدل على أن القلب غير ثابت في محبة الله ، وعلى أن التوبة غير صادقة أو غير كاملة .

إن وصلت التوبة إلى كماها ، لا يعرج الإنسان بين الفرقتين ، بين الله والعالم . أما إن بدت نظراته تهتز بين هنا وهناك ، فإن هذا يدل على أنه بدأ يعادود النظر في التوبة . فمتى يحدث هذا ؟

يحدث أحياناً إن الإنسان يقدم الإرادة لله ، من أجل الطاعة . ولكنه لا يقدم القلب ، كل القلب . يسلم يده للملاك ليقوده خارج سدوم ، وقلبه لا يزال داخلها . قد تكون توبته مجرد محاولة لإرضاء الله ، وليست محبة للبر .

أوربما يكون قد ترك الخطية من أجل غمافة الله فقط ... لأجل خوف العقوبة ، مجرد الحرص على أبعده ، دون أن تكون محبة الله أو محبة البر ثابتة في قلبه . لذلك فإن أية هزة تتعبه من العدو ، إما أن ترجعه إلى الخطية أو تميل قلبه ...

ويحدث هذا أيضاً إن كان هدف التوبة غير سليم .

حنانيا وسفيرا باعا ممتلكاتها وقدا الثمن للرسول ، ليس زهداً في المال وحباً لله ، إنما لكي يجاريا الجوى الروحى السائد في العصر الرسول ، مجرد مجارة ، مع عدم إيمان قلبى بتفاهة المال ... لذلك لم يقدم المال كله ، وإنما احتجزا منه جزءاً ، لأن محبة العالم كانت لا تزال داخل القلب (أع ٥) .

فهل أنت كذلك ؟ هل دخلت التوبة مجارة للجوى الروحى ؟

أقصد مجرد المجارة أو التقليد ، دون أن يتطهر القلب في الداخل من محبة الخطية ، ودون أن تقتنع تماماً بدنس الخطية وبشاعتها ... !

إن التوبة بسبب المجارة ، قد تدعو إلى التعرج بين الفرقتين .

إن راحيل تركت بيت أبيها لابان ، وذهبت مع يعقوب ، ربما محبة ليعقوب ومجارة

له في ترك ذلك الوسط المتعب . ولكن الهدف الأساسي - الذي هو ترك مكان تُعبد فيه الأصنام- لم يكن موجوداً . ولهذا أمكن أن تخرج راحيل من بيت لابان ، وتأخذ معها أصنام أيها لابان... ! وهكذا كانت تعرج بين الفرقتين (تك ٣١ : ٣٤) ...

وأنت : هل دخلت الحياة الجديدة بحبة لشخص كيعقوب أم بحبة لله ؟
ربما بحبة شخص روحى ، تقود إلى الطريق الروحى . ولكن هذه ينبغي أن تكون نقطة البدء فقط ، وتتحول إلى بحبة لله . لأنه لو بقي هذا الدافع وحده ، بقيت الحياة الروحية معلقة بحبة هذا الشخص الروحى . وأصبح التائب عرضة للرجوع .

بنو اسرائيل تركوا مصر تابعين موسى . ولكنهم ما كانوا قد كونوا علاقة ثابتة مع الله . لذلك تفلقلوا ورجعوا .

بمجرد أن غاب موسى عنهم أربعين يوماً ، حينما كان مع الله على الجبل ، جعل هذا الشعب يعيدون التفكير في علاقتهم مع الله ، وانتهوا إلى عبادة عجل ذهبي (خر ٣٢) . بل إن أية ضيقات كانت تحدث لهم في البرية ، كانت تدعوهم إلى التذمر ، وإلى اشتاء العودة مرة أخرى إلى مصر... واشتاء اللحم والبطيخ والكرات (عدد ١١ : ٤ ، ٥) .

إذن لا بد من تكوين علاقة ثابتة مع الله خوف الإنتكاس .
نقطة البدء في التوبة ، لا يصح أن تبقى حيث هي . إنما ينبغي أن ينمو التائب في روحياته ، ودوافعه ، وعلاقته مع الله ، حتى لا يعود القلب فيشتاق الحياة السابقة في الخطية . وكلما كانت العلاقة ثابتة مع الله ، لا يتعرض التائب إلى مشاعر التعرّيج بين الفرقتين ، وشهوات الرجوع إلى الخطية .

وما أسهل أن يُحارب بالجمع بين الأمرين معاً : الله والعالم !
على الرغم من صراحة قول الكتاب « بحبة العالم عداوة لله » (يع ٤ : ٤) .
شمشون حاول أن يجمع بين كونه نذير الرب ، وصديقاً للدليلة في نفس الوقت ، ففشل وفقد نذره . ولوط حاول أن يجمع بين بحبة الأرض المعشبة الخاطئة وكونه رجل الله ، ففقد كل ما كان له في سدوم . حقاً إنه لا شركة بين النور والظلمة (٢ كو ٦ : ١٤) .

كذلك ملاك كنيسة ساردس حاول أن يجمع بين الخدمة والإهمال . وملاك كنيسة

لاودكية حاول أن يجمع بين الخدمة والفتور. وكل منها أرسل إليه إنذار من الله (رؤ ٣ : ١٦) .

عجيب إن شاول الملك أراد اللجوء إلى العرافة ، وإلى صموئيل النبي ، في نفس الوقت (١ صم ٢٨ : ١١) !

على التائب أن يكون دقيقاً في البعد عن العاليات .

فقد قال الرب في وضوح إنه لا يستطيع أحد أن يخدم سيدين (لو ١٦ : ١٣) . وفي البعد عن العاليات اتقاء للتأثير المضاد الذي يجذب الإنسان بعيداً عن التوبة... حقاً إنه تاب . ولكن العاليات لا تزال لها حروبها وضغطاتها ، وليس الإنسان معصوماً في التعامل معها . لذلك يجب الحرص والدقة .

وقد يحاربه العدو بما يسمونه « الطريق الوسطى » .

ومعروف المثل القائل « الطريق الوسطى خلصت كثيرين » . ويستخدمه بعض الآباء الروحانيين في نصيح الذي يندفع في تطرف روحي قد يتعبه . ولكننا نقول إن البعد عن التطرف ، ليس معناه البعد عن التدقيق . فالذي يبعد عن التدقيق إنما يحاول الوصول إلى الله من الباب الواسع والطريق الرحب . وهذا ضد الوصية (متى ١٣ : ٧) .

كل ما نخشاه في هذا الأمر أن التائب يتعود التساهل في حياته . وهذا التساهل يحدره إلى أسفل حتى يفقد حرارة التوبة ، ثم يفقد التوبة ذاتها ويخطيء... .

وقد يحارب التائب أيضاً بشكلية العبادة ، وشكلية الروحيات .

إنسان تائب تدفعه حرارة التوبة إلى النوفى العبادة . وقد يأخذ هذا النمو مقياس الطول وليس مقياس العمق . فيكثر من الصلوات ولو بغير روح ، ويكثر من القراءات ولو بغير فهم ، ويكثر من تناول ولو بغير استعداد ، ويكثر من إرهاق الجسد ولو بغير فائدة... وشيئاً فشيئاً قد يتحول إلى شكلية العبادة . وهذه الشكلية لا تنفعه ، وقد يشعر بهذا فيتركها ، ثم يسأم الحياة الروحية ، فيشتاق إلى حياته الأولى !

والتائب هنا يحتاج إلى قيادة وإلى إرشاد روحي .

لكي يعرف ما هي روحانية العبادة ، وكيف يسلك فيها ؟ وكيف أن الله كان يرفض العبادة الشكلية والمظهرية . وأنه يريد القلب أولاً . وكل صور العبادة من صلاة

وتأمل وقراءة وصوم وتناول واحتراف ، ينبغي أن تكون صادرة من قلب محب لله ،
وينبغي أن تمارس بفهم وبعشق وروحى ومحبة نحو الله . وتكون صادرة من القلب .
وليضع التائب أمامه توبيخ الرب للعبادة الخاطئة بقوله « هذا الشعب يعبدنى بشفتيه .
أما قلبه فبتعد عني بعيداً » (متى ١٥ : ٨) .

إن مظهرية الحياة الروحية ، تبعد عن حياة التوبة .

فالروحيات ليست مظاهر وشكليات . وهذه لا تدل على علاقة مع الله . وقد وبخ
الرب الكتبة والفريسيين ، على الرغم من تدقيقهم الشديد فى حفظ الوصايا ، تدقيقاً
وصل بهم إلى الحرفية والبعد عن الروح ! ولم يقبله الله منهم وقال لهم إنهم يهتمون
بتنظيف خارج الكأس فقط ... و يقيناً لم يكن الكتبة والفريسيون تائبين . على الرغم
من كل ما كانوا يفتخرون به من دقة فى تنفيذ الناموس ، كانوا يعيدون عن التوبة .

فلا تكن فى توبتك حرفياً ، ولا تهتم بالمظهرية .

لأنك إن فعلت هذا سترتد وتفقد توبتك . إنما اهتم بالروح قبل كل شىء . إهتم
بحبة الله . ولتكن كل روحياتك صادرة عن هذه المحبة . بهذا تحفظ توبتك . وهذا
تضمن أنك سوف لا تعرج بين الفرقتين .

إن بلعام كان يهيم أن يكون مظهره من الخارج سليماً ، لا تُمسك عليه خطية ولا
كلمة خاطئة ، بينما قلبه من الداخل لم يكن مع الله (عدد ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٥ ، ٢٥) . كان
يريد أن يتمتع بالخطية ، دون أن يظهر بمظهر الخطية . ولكن الله هو فاحص القلوب ...
قلب بلعام لم يكن سليماً أمام الله . كان يعرج بين الفرقتين . يجب أموال بالاق ،
و يريد أن يرضيه . وفى نفس الوقت لا يقول بلسانه كلمة تغضب الرب . وهلك بلعام .
إن الذى يعرج بين الفرقتين ، قد يصل إلى هذا الوضع :

فقد يرتكب الخطية ، إن وجد باباً للهروب من مسئوليتها .

الذى تشغله إذن هى المسئولية ، وليست نقاوة القلب ، وليست محبة الله . لذلك
هو بعيد عن حياة التوبة .

فلا تكن أنت كذلك . ليكون قلبك ثابتاً فى محبة الله ، لا يعرج على طريق
الخطية . ولكى يكون قلبك ثابتاً فى محبة الله ، إهتم بغذاء روحك ...

إن كنت قد تبت ، ودخل نور اله إلى قلبك :

فلكى تحتفظ بتوبتك ، إفصل نفسك عن كل أعمال الظلمة .

إنها قاعدة وضعها الله لنا منذ البدء ، يروها سفر التكوين بقوله « ورأى الله النور أنه حسن . وفصل الله بين النور والظلمة » (تك ١ : ٤) . وتستمر القاعدة في العهد الجديد إذ يقول « أية شركة للنور مع الظلمة !؟ » (٢ كو ٦ : ١٤) .

لا يمكن أن يجمع إنسان روحى بين الإثنين في حياته . لذلك فكل من يسير في طريق الله :

لا بد أن يفصل ذاته عن كل أسباب الخطية والعثرة .

فهكذا أراد الله منذ بدء الخليقة . ولكن القاعدة كسرت فتسببت الخطية . أول كسر لهذه القاعدة كان عندما جلست حواء مع الحية (تك ٣) ، ورأينا كيف طغت الظلمة على النور . ومحدثنا الكتاب عن كسر آخر خطير لهذه القاعدة ، حينما يروى قبيل الطوفان أن « أولاد الله رأوا بنات الناس أنهم حسنات ، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا » (تك ٦ : ٢) . وكانت النتيجة أن شر الإنسان قد كثر ، واضطر الله إلى تطهير الأرض من الفساد بالطوفان . إذ أن الظلمة للمرة الثانية طغت على النور .

وعاد الله ففصل بين النور والظلمة ، بواسطة الفلك .

إختار جماعة مقدسة هى نوح وأسرته ، وفصلهم عن العالم الشرير ، حتى يستبقى له مجموعة بارة لا تفسد بفساد العالم ... وبالوقت لما دخل الفساد فى أولاد نوح ، اختار الله إبرآم وفصله عن العالم الشرير ، فقال له « إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك . فأجعلك أمة عظيمة وأباركك ... وتكون بركة » (تك ١٢ : ١ ، ٢) . وكان الله يقول لعبده إبرآم :

أترك مكان الخطية ، لتحفظ بنقاوة قلبك ، بعيداً عن الشر .

يجب أن يفصل النور الذى فيك عن الظلمة التى فيهم .

وبنفس الوضع أمر الرب شعبه أن لا يصنعوا عهداً مع شعوب الأرض ، ولا يتزواجوا معهم (خر ٣٤ : ١٥ ، ١٦) . ومنعهم من النساء الغربيات الأجنبية (أم

(١) عن محاضرة ألقىت في الكاتدرائية الكبرى مساء الجمعة ١/٣١/١٩٧٦ .

٢ : ١٦) . إن الله يريد لأولاده أن يبعدوا عن كل خلطة شريرة (مز ١) .

وأمر الرسول أن لا يؤاكلوا ولا يخالطوا الخطاة (١ كو ٦ : ١١) .

وأن يعزلوا الخبيث من بينهم . وبنفس المنهج قال القديس يوحنا الحبيب « إن كان أحد يأتيكم ولا يجيء بهذا التعليم ، فلا تقبلوه في البيت ، ولا تقولوا له سلام . لأن من يسلم عليه يشترك في أعماله الشريرة » (٢ يوح : ١٠ ، ١١) .

لأنه يجب الإنفصال عن الخطية والخطاة ، سلوكاً ومعرفةً .

إن كانت التأثيرات الخارجية قد أسقطت شمشون وداود وسليمان ، فليحترس بالحرى الضعفاء وليبعدوا فهذا أسلم لهم ...

وهكذا كانت الكنيسة في العصر الرسولي ، وفي القرون الأربعة الأولى للمسيحية بوجه خاص ، تعزل الخطاة خارج الكنيسة ، ويبقى المؤمنون كلهم كجماعة مقدسة منفصلة عن الشر والأشرار . كما حدث في قصة حنانيا وسفيرا (أع ٥) . وخاطيء كورنثوس (١ كو ٥ : ٥) .

أول اعتزال يعتزله الإنسان عن الشر ، هو في المعمودية .

حيث يجحد الشيطان معتزلاً عنه وعن كل أعماله الرديئة وشروره القبيحة ، وعن كل جنده وحيله وسلطانه . وكما يعتزل عن الشيطان ، يعتزل عن الإنسان العتيق الذي يدفن في المعمودية ، ليولد بدله إنسان جديد على صورة الله . ويضع أمامه طول حياته أن يعيش منفصلاً عن الخطية والخطاة .

ولعل إنساناً يسأل : وكيف يمكننا أن نفعل ذلك ؟

إن لم تستطع أن تنفصل عن الخطاة مكانياً ، فانفصل عنهم عملياً . انفصل عنهم فكراً وأسلوباً ومنهج حياة .

أنت لا تقوى على عدم مخالطة كل الخطاة الذين في العالم ، وإلا كان عليك أن تترك العالم كما قال بولس الرسول (١ كو ٥ : ١٠) . ولكن لتكن خلطتك في حدود الضرورة فقط . وفكرك منفصل عن أفكارهم ، وأسلوبك غير أساليبهم . وحياتك غير حياتهم . بل أفاظك أيضاً غير أفاظهم ، كما يقول الكتاب « لغتكت تظهرك » (متى ٢٦ : ٧٣) .

لهذا يقول القديس يوحنا الرسول : أولاد الله ظاهرون (١ يو ٣ : ١٠) .

إذا جلسوا مع أهل العالم ، يظهر الفاصل تماماً : ليس الفاصل في المكان ، وإنما في نوع الحياة ، وفي التعامل ، بل حتى في شكلهم وملاحظهم ونظراتهم وحركاتهم ... روحهم تميزهم . وترى عملياً كيف أن الله قد فصل بين النور والظلمة .

ولكني أحب أن يكون هذا الفصل عن غير كبرياء .

لا نريد لإنسان الله الذي يجيا حياة التوبة ، منفصلاً عن الخطاة ، أن يكون انفصاله عن تشامخ وتعالٍ وكبرياء ، كأنه أفضل منهم ... ! مثلها كان الفريسيون والكتبة يفعلون ... ويلومون المسيح على مجالسته للعشارين والخطاة .

إنما نقصد ألا توجد شركة معهم في أى عمل خاطيء .

ولا توجد مجارة للأخطاء ، أو تقليد للطباع ، أو مجاملة على حساب الحق . فالرسول يقول « لا تشاكلوا هذا الدهر » (رو ١٢ : ٢) . أى لا تصيروا شكلهم ...

التائب لا يجارى الخطاة في أخطائهم . وفي نفس الوقت لا يدينهم ، بل يشفق عليهم ، ويصلى لأجل خلاصهم . ويقول من جهة عدم خلطته بهم :

أنا من أجل ضعفي ، لا أقوى على هذه الخلطة .

إنني أبعد ، لأنني سريع التأثر ، سهل الإنجذاب . تستطيع العوامل الخارجية أن تقوى على إرادتي . لذلك البعد لى أضمن ، والهروب أليق . وليس الأمر تعالياً ، لأنني لا أنسى خطاياى القريية العهد .

وهكذا يختلف عن موقف الرعاة ، الذين يزورون الخطاة ويفتقدونهم .

ويفعلون هذا لكي يجذبوهم إلى التوبة ، ويصلحوهم مع الله . على شرط أن يكون الرعاة في أمثال هذه اللحظة ، متحفظين ، لا يفقدون هيبتهم الروحية ، ولا يندمجون مع الخطاة في لهوهم وعيبتهم . بل يكونون شهوداً للحق ، وسفراء للرب ، وقدوة أمام هؤلاء ...

كان السيد المسيح يجلس في موائد العشارين ويدخل بيوتهم ، لكي يجذبهم إلى التوبة ، ولكي يرفع معنوياتهم . فيدركون أن لهم نصيباً فيه ، وأنه ليس للأبرار فقط .

أما التائب فيقول : لست أنا في مستوى الرعاة ، ولا في قوة المسيح . إنني أضعف من هذه الخلطة . فلأبعد عنها .

أنا لم أصل بعد إلى مستوى من يهدى غيره ويقوده إلى التوبة ، فأنا مازلت محتاجاً

إلى من يهينى ، ويشتنى فى توبتى .

لذلك فهو يمتاز بالخطاة، محتفظاً بانسحاق قلبه . لا يحتقر أحداً منهم . ولا يرى فى داخله إنه نور ينفصل عن الظلمة . فجرد هذا التمييز فى ذهنه لا يتفق مع مشاعر التوبة .
وفى قلبه يعرف من الذين قبل عنهم إنهم نور .

الإنسان البار ، الذى هو نور ، أو من ضمن الذين قال لهم الرب «أنتم نور العالم» (متى ٥ : ١٤) . هذا إذا حلّ فى أى مكان تحتفى الظلمة بسبب نوره . مثلما إذا وضعت مصباحاً فى أى مكان مظلم ، تنقش ظلمته ويصير مضيئاً . كذلك وجود الأبرار فى أى مكان يحلون فيه ، ينتشر فيه النور ، وتحتفى الظلمة .

هكذا هؤلاء القديسون : الذين بسبب هيبتهم الروحية ، لا تستطيع الظلمة أن تجرد مجالاً لها فى وجودهم .

بل يستحى الخطاة منهم ومن وقارهم ومن قدسيّتهم . ولا يجروء أحد فى وجودهم أن يتصرف تصرفاً شائناً ، أو يتلفظ بلفظة خارجة . بل ينجل من ذاته ومن تصرفه . ويشعر الموجودون أن جوّاً روحياً قد ساد المكان ، يحلّون أحد من هؤلاء الأبرار فيه ... وإن كان هناك حديث خاطيء قبل دخولهم ، فإنه ينتهى ويصمت الكل ، وتحتفى الظلمة . ولا يستطيع أحد أن يخطيء فى وجودهم ...

فهل أنت هكذا ؟ هل صرت بعد توبتك نوراً ؟

هل صرت ولو شمعة صغيرة ، تعطى نوراً خافئاً ، ولكنه على أية الحالات يبدد الظلام . إن لم تصر نوراً هكذا ، فاحترس كل الإحتراس من الظلمة . واذكر كل حين قول الرب «لتكن أحقاؤكم منمنطقة ، ومصايحك موقدة» (لو ١٢ : ٣٥) .

وليكن نورك أولاً من أجل ذاتك .

من أجل أن تبصر جيداً . من أجل أن تكون لك البصيرة الروحية التى تميز طريق الله ومشيبته . كما حدى العذارى الحكيمات (متى ٢٥) ، اللاتى كان لهن زيت فى مصابيحهن ، فأضأن وكن مستحقات الدخول مع العريس ...

بهذه المصابيح الموقدة ، إكشف الظلمة وابعده عنها ...

ومن أجل الإحتفاظ باتضاعك ، خذ الظلمة بمعناها الموضوعى ، وليس بالمعنى الشخصى . خذها بمعنى الخطية فى كل صورها . وافصل نفسك عنها .

إفصل نفسك عن كل فكر شرير وشهوة شريرة .

لكي تستطيع في توبتك أن تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل فكرك حسب الوصية (تث ٦ : ٥) . وكيف يكون الحب من كل القلب، إن لم يكن القلب منفصلاً عن كل شعور خاطيء، وليست له خلطة بأفكار العالم وشهواته .

وكلما يحاربك في توبتك فكر من أمور العالم ومحبه وملاذه، أذكر قول الرسول :

لا تحبوا العالم ، ولا الأشياء التي في العالم (١ يو ٢ : ١٥) .

وقوله « إن أحب أحد العالم ، فليست فيه حبة الآب » ، « العالم يمضى وشهوته معه » (١ يو ٢ : ١٥ ، ١٧) ... ولكي تبعد عن محبة العالم ، إبعد عن التفكير فيه وفي شهواته . أنت لا يمكنك حالياً أن تنفصل عنه مكانياً ، فانفصل عنه فكراً وشعوراً .

وقل للرب كما نقول في صلاة القسمة في القداس الإلهي :

كل فكر لا يرضى صلاحك ، فليبعد عنا ...

وكن دقيقاً جداً ، وسريعاً جداً ، في فصل ذاتك عن الأفكار الخاطئة ... لأن الخطيئة يمكن أن تدخل إلى قلب الإنسان ، ولو من ثقب بسيط . وتظل توسع لها مكاناً فيه حتى تضيقه .

فاجلس إلى نفسك وافحصها واسأل : هل ما زالت في داخلي أية خلطة مع أسباب الخطيئة ، ومع أفكارها ومشاعرها . وإن وجدت شيئاً من ذلك فيك ، إنتهره واطرده وقل له : لقد فصل الله بين النور والظلمة ...

(١) الإهتمام بالروح

الإهتمام بالروح هو الناحية الإيجابية اللازمة لحفظ التوبة .

فاذكرناه عن طرد الكنعانيين من الأرض ، وعدم التعرّيج بين الفرقتين ، والفصل بين النور والظلمة ، إنما يمثل الحرص من الناحية السلبية . أما الإهتمام بالروح فيمثل العمل الإيجابي . لأن الروح القوية يمكن أن تحفظ الإنسان طاهراً .

لذلك يلزم أن يهتم الإنسان بروحه ، كما هو يهتم بجسده . يهتم بالإثنين معاً ، ويحفظ

(١) عن محاضرتين ألقيتا في هذا الموضوع في القاعة المرقسية بدير الأنبا رويس مساء الجمعة ١٥/١٠/١٩٦٥ ، ومساء الجمعة ٢٢/١٠/١٩٦٥ .

النظام والتوازن بينهما . ويراعى هذه القاعدة :

إن العناية التي تبذل لأجل أحدهما ، ينبغي ألا تضر الآخر .

أقول هذا لأن البعض ربما في اهتمامه بالجسد وصحته ، يمنع عن الصوم ، وهكذا يضر بروحه . وكثيراً ما يقع آباء وأمهات في هذا الخطأ في تربية أولادهم ، وكأنهم يربون أجساداً فقط بغير أرواح... ! إننا في تربية الحيوانات إنما نهتم بأجسامها ، فإما أن نعمل على تقويتها لأجل الشغل ، أو نعمل على تسمينها لأجل الذبح . ولكن هل نفعل نفس الأمر بالنسبة إلى الإنسان ، فنرى له جسداً لكي يأكله الدود . عار أن نهتم بالجسد الإنساني فقط . لذلك إهتموا بصحة أولادكم جسدياً ، واهتموا أيضاً بصحتهم الروحية . وكذا بصحتكم .

إن صحة الروح نافعة للجسد وللجسد أيضاً .

فإذا مرضت الروح ، يمكن أن يمرض الجسد معها ، وبعض أمراض الجسد ترجع إلى أمراض روحية .

وإن كان مرض الروح يضر الجسد ، فليس بالضرورة أن يمرض الجسد يضر الروح . بل على العكس غالباً ما ينفعها . إن أشد أمراض الجسد يمكن أن تنفع الروح ، وتقود الإنسان إلى التوبة ، وإلى الصلاة ، وتوقظ نفسه ونفوس الذين حوله ، وتعلمهم الزهد في الحياة . إهتم إذن بصحة روحك أكثر مما تهتم بصحة جسدك .

لا تكن حنوناً جداً على جسدك ، بينما تهلك روحك .

فإن السيد المسيح طلب عكس هذا ، حينما قال « إن كانت عينك اليمنى تعثرك ، فاقطعها والحقها عنك... وإن كانت يديك اليمنى تعثرك ، فاقطعها والحق عنك » (متى ٥ : ٢٩ ، ٣٠) . وأرانا بهذا أن الروح هي الأهم . ومن أجلها تضحي بالجسد...

روحك هذه هي صورة الله ومثاله . وهي غالية عنده جداً .

من أجلها تجسد . ومن أجلها بذل دمه الطاهر على الصليب . إذن ثمن روحك هو دم المسيح ، وكل ما تحمله المسيح من آلام لأجلك .

روحك أيضاً وحيدة ، لا يوجد لديك غيرها .

إن فقدتها فقدت كل شيء ، وإن ربحتها ربحت كل شيء . إنها أعلى من العالم

كله . لذلك قال الرب « ماذا ينتفع الإنسان ، لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟! أو ماذا يعطى فداء عن نفسه » (متى ١٦ : ٢٦) .

روحك هذه ، لا يستطيع أحد أن يؤذيها ، إلا أنت .
قد يتمكن إنسان من أن يحبس جسدك . ولكنه لا يستطيع أن يحبس روحك .
حتى في السجن تبقى طليقة . وقد يستطيع إنسان أن يقتل جسدك ، ولكنه لا يقدر أن يقتل روحك ...

روحك عنصر سماوى . هى التى تعطى الحياة للجسد .
إذا اهتممت بها يمكن أن ترفع الجسد إلى فوق ، وتجعله فى حالة روحية سامية .
وتصير أنت شبه ملاك أرضى . ينبغى إذن أن تهتم بها ، حتى لو ضعف جسدك فى سبيل ذلك .
فهوذا الرسول يقول « إن كان إنساننا الخارج يفتى ، فالداخل يتجدد يوماً فيوماً » (٢ كو ٤ : ٦) . إنساننا الخارجى هو هذا الجسد . والداخلى هو الروح ...
هذا الجسد شبه الرسول بخيمة نحن ساكنون فيها (٢ كو ٥ : ١) . والأهم أن الساكن فى الداخل هو الله . لئتنا إذن نهتم بأرواحنا هذه ، حتى لا نخطئ ، ونخطئ الجسد معها ...

أنت تغذى جسدك كل يوم . فيجب أن تغذى روحك أيضاً .
إن الروح تتغذى كما يتغذى الجسد . يقول الرب « طعامى أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى » (يو ٤ : ٣٤) . وتتغذى الروح أيضاً « بكل كلمة تخرج من فم الله » (متى ٤ : ٤) .
فهل روحك تتغذى بكلام الله وبصنع مشيئته . وتأخذ هذا الغذاء كل يوم ؟
الجسد يتغذى بثلاث وجبات كل يوم .
فى أول النهار وفى المساء وما بينها . فهل تحرص أن تعطى روحك غذاءها مرات كل يوم أم تهملها فتضعف ؟

والجسد يتناول أنواعاً متعددة من الأغذية ليستوفى كل العناصر اللازمة .
إنك تعطيه غذاءً كاملاً فيه المواد الدهنية والسكرية والكربوهيدراتية ، وفيه البروتينات والفيتامينات والمعادن ... وتحرص ألا ينقصه شىء مما يلزمه . فهل تعطى روحك مثلاً تعطى الجسد كل ما يلزمها ؟ هل تعطىها غذاءها من الصلوات والتسابيح

والتأملات والقراءات الروحية والمطانيات؟ وهل تعطيتها ما يلزمها من محبة الله؟ وهل هذا الغذاء تأخذه كل يوم، ودفعات في اليوم؟ مع باقي الأغذية الأخرى... وأنت لا تكتفى بأن تعطى جسدك غذاء كل يوم، ومرات في اليوم، وعناصر متنوعة متكاملة. وإنما في غذائه أيضاً:

تعطيه طعامه بكميات كافية، بقدر ما يحتاج من سعرات حرارية. فهل تعامل روحك بنفس المعاملة؟ هل تعطيتها من الصلوات ما يشبعها، أم تصلى دقائق معدودة وتسام؟ وهل تعطيتها من القراءات الروحية ما يشبعها من الكتاب المقدس وسير القديسين والموضوعات الروحية؟ أم أنت غير مواظب وغير مهتم، ولا يهيك أن تستوفى الروح غذاءها، بينما هي تجوع وتعطش إلى البر (متى ٥: ٦).

والجسد لا يكتفى بكل الكميات والأنواع السابقة من الطعام، إنما يشترط: أن يكون الطعام جيد الطهي حسن المذاق لتقبله شهيته. فهل أنت تقدم لروحك أطعمة جيدة حسنة المذاق، أم تقدم لها صلوات سريعة بلا فهم بلا عاطفة بلا حرارة بلا روح وممزوجة بطياشة الفكر؟! هل تظن هذه الصلوات يمكن أن تستفيد بها الروح؟ وهل أنت تقدم لها قراءات بلا تأمل بلا عمق بلا فهم بلا تطبيق؟ أتستطيع الروح أن تهضم هذا الغذاء وتستفيد به لنموها؟ وهكذا في باقي الوسائط الروحية... إهتم إذن بروحك، واعلم أنه:

كما يضعف الجسد ويمرض لقلّة الغذاء، كذلك الروح أيضاً. الجسم يهزل لقلّة الغذاء، والروح تفتر وتفقد حرارتها. ما أكثر الذين يصابون بأنيميا روحية أو يهزال روحي. وكما يمرض الجسد لسوء التغذية وبالعدوى، كذلك الروح تمرض بهذه جميعها. وتحتاج إلى وقاية وحصانة كما يحتاج الجسد تماماً.

والجسد إذا مرض يحتاج إلى أطباء، وكذلك الروح... وأطباء الروح هم آباء الإعراف والمرشدون الروحيون. والأدوية الروحية معروفة وكثيرة، ويحتاج إلى تناولها كل من يشعر بنقص في ناحية معينة. ونحن نقول للرب في القداس الغريغوري «ربطتني بكل الأدوية المؤدية إلى الحياة»... ونقول له «أيها الطبيب الحقيقي الذي لأنفسنا وأجسادنا...» لا شك أن الجسد يلاقى من الإنسان إهتماماً كبيراً لا تلاقىه الروح. ولذلك فإن

أحد الآباء قرأ مرة في سفر الجامعة قول الحكيم :

رأيت عبيداً على الخيل ، ورؤساء ماشين على الأرض كالعبيد (جا ١٠ : ٧) . فقال إن العبيد الراكبين على الخيل هم الأجساد التي نكرمها أزيد مما يلزم . والرؤساء الماشين على الأرض كالعبيد هم الأرواح التي لا تجد إكراماً كالأجساد ، بل تجد إهمالاً من كل ناحية ... الروح التي لها السيادة بحكم طبعها ، نهملها حتى تفقد سلطتها وتخضع للجسد ، وتمشي على الأرض كالعبيد... !
إننا نهم بالجسد فنعطيه غذاءه . ونجمله بالزينة .

وكما يتزين الجسد ويلبس ، ينبغي أيضاً أن تتزين الروح .

والروح تتزين بالفضائل ، زينة الروح الوديع الهاديء كما يقول الرسول (٢ بط ٤ : ٤) . وتلبس «لباس العرس» (متى ٢٢ : ١١ ، ١٢) . الذي يستحق لابسوه الدخول مع الرب في ملكوته . وتلبس البز (الحرير) الذي هو تبررات القديسين (رؤ ١٩ : ٨) . وتقف أمام الله في ثياب بيض ...

فهل أنت تزين روحك بكل ثمار الروح (غل ٥ : ٢٢) . أم تقف أمام الله عرياناً مثل ملاك كنيسة لاودكية (رؤ ٣ : ١٧) . واعرف أن كل زينة الجسد من الخارج لا تنفع ، كما يقول المزمور :

كل مجد إبنة الملك من داخل (مز ٤٥) .

مع أنها «مشملة بأطراف موشاة بالذهب ، ومزينة بأنواع كثيرة» ، فلتقف روحك في اليوم الأخير بكامل زينتها أمام الله «كعروس مزينة لعريسها» (رؤ ٢ : ٢١) .

ومن جهة لباس الروح ، ما أجل تلك العبارة التي قيلت عن المعمودية «لأن جميعكم الذين اعتمدتم للمسيح قد لبستم المسيح» (غل ٣ : ٢٧) ، يوم خرجت الروح من المعمودية في أكمل بهائها... ويضاف إلى هذا أيضاً :

ما تلبسه الروح من أكاليل ، نتيجة لجهادها وانتصارها .

فا الذي تلبسه روحك من كل هذا ؟ هل أنت مثل تابوت العهد الذي كان مصفحاً بالذهب من الداخل ومن الخارج (خر ٢٥ : ١١) ؟

* وفي الإهتمام بالروح ، ضع أمامك هذه الوصايا :

١ - اسلكوا بالروح ، فلا تكلوا شهوة الجسد (غل ٥ : ٦) .

٢ - إمتثلوا بالروح (أف ٥ : ١٨) .

٣ - حارن في الروح (رو ١٢ : ١١) .

وهكذا تعبد الله بالروح (في ٣ : ٣) . وتصلي بالروح ، وتوتل بالروح (١ كو ١٤ : ١٥) . وتثمر ثمار الروح (غل ٥ : ٢٢) ، علماً أن « من يزرع للروح ، فمن الروح يحصد حياة أبدية » (غل ٦ : ٨) . إن سرت هكذا يمكنك أن تحفظ توتبك ولا ترجع إلى الوراء ...

إعط روحك غذاءها . أما جسدك فاعطه ما يقوته ، لا ما يشتهيه .

إن تقويتك لروحك تحفظك من السقوط ...

إن التجارب والإغراءات والحروب الروحية يتعرض لها الكل . ولكن يثبت الأقوياء روحياً كالبيت المبني على الصخر (متى ٧ : ٢٤ ، ٢٥) . هؤلاء الذين تغذت أرواحهم بكلمة الله ، وقويت بكل التداريب الروحية ، وأصبحت لها خبرة بحروب الشياطين ، وقدرة على قتالهم ... صاروا أقوياء من الداخل ، كمدن محصنة . ولكن لماذا يسقط البعض ؟

يسقطون ، لأنه لا توجد مقاومة في الداخل ، ولا حصانة .

كمرض يهاجم بلدة بأسرها ، فيصمد له الأقوياء ، ويقع الضعفاء .

إن كان الأمر هكذا ، حاول إذن أن تتقوى بالروح ، حتى إن أتتك الخطية ، لا تجد قبولاً ولا تجد استسلاماً ، فتعبر وتمضى ... كوّن لك رصيذاً روحياً ينفعك في السنوات العجاف ...

غالبية الذين يسقطون ، والذين ينتكسون بعد توبتهم ، اكتفوا بترك الخطية في بدء التوبة . وفي نفس الوقت تركوا أرواحهم بلا تغذية ، بلا تقوية ، بلا عناية ، حتى أصبحت في حالة من الضعف تجعلها سهلة السقوط .

أما أنت فلا تكن هكذا ... فلتكن لك وسائط روحية تربطك بالله ، تسير عليها في نظام ، وبمواظبة . ولتكن لك الإجتماعات الروحية ، والأصدقاء الروحيون ، والقراءات الروحية ، وجو روحى يحيط بك من كل ناحية ، مع الأب الروحى وإرشاداته وتوجيهه ...

١ - مما يساعد على حفظ التوبة ، أن تستوفى نصيبها من الإنسحاق .

وذلك حتى يدرك الإنسان تماماً بشاعة الخطية ومرارة نتائجها ، ويختبر عذاب الضمير ، فلا يعود إلى الخطية مرة أخرى... ولقد تحدثنا في باب سابق عما يصحب التوبة من شعور بالخرى ، مع حزن ودموع ، كما في قصص القديسين... وكذلك ما يصحب الإنسحاق من بعد عن المتكثات الأولى ، ومجالات القيادة التي تجعل الإنسان ينسى خطاياها . غير أن البعض للأسف الشديد ، يحاول من بدء توبته أن يقفز سريعاً إلى الفرح ، دون أن يعبر على مرحلة الإنسحاق والندم والحزن ، ناسياً أن الفرح هو مرحلة متأخرة ، لا يحتطفها لنفسه ، إنما يمنحها الرب للذين أثبتوا بانسحاقهم صدق وثبات توبتهم...

التائب الذى يسرع إلى الفرح ، سهل رجوعه إلى خطاياها القديمة .

أما الإنسحاق فهو سور متين يحمى التوبة ، ويحفظ القلب يقظاً ، ويدعوه باستمرار إلى الحرص والتدقيق ، ويثبت فيه مخافة الله . كما أن الإنسحاق يحفظ التائب في تواضع القلب . والنعمة تعمل في المتواضعين وتحفظهم من السقوط . وطالما يكون التائب منسحقاً ، فإنه يتذكر ضعفه وسقوطه ، وهذا يدعوه إلى الإحتراس الدائم .

أما الشيطان فيحرص على سرعة الفرح ، ليقودك إلى الامبالاه .

يشعرك أنك خرجت نهائياً من دائرة الخطية ، وتقديست وتجددت ، ولم يعد للخطية سلطان عليك ، لأنك محروس ومحفوظ بالنعمة . وهكذا يجعلك لا تبالى...! حقاً إن النعمة تحفظنا ولكنها لا تلغى إرادتنا ، ولا تجعلنا مسيرين نحو الخير . فإذا يحدث إذا لم نتعاون نحن مع عمل النعمة فينا؟

لذلك إن دعيت إلى الفرح ، قل أنا لا أستحقه . وإن أنعم الله عليك بهجة خلاصه (مز ٥٠) ، فلتكن هذه الهجة سبباً لمزيد من الإنسحاق ، مع توبيخك لنفسك...

في نظام الآباء الأول ، كانت هناك قوانين عقوبات شديدة . ونتيجة لهذه العقوبات ، كان كل تائب يشعر بمقدار الخطأ الذى وقع فيه فينسحق

قلبه ، ويشعر بعدم استحقاقه حتى لدخول الكنيسة . وفي ذلك الزمان كانت الكنيسة أكثر قداسة ، وكان المؤمنون أكثر جدية وتدقيقاً في حياتهم . ولما وقفت تلك العقوبات دخل الاستهتار إلى نفوس كثيرين . فياليت كل تائب يضع أمامه قول القديس أبا مقار الكبير «أحكم يا أخى على نفسك ، قبل أن يحكموا عليك» ...

لأننا إن كنا نندم على خطايانا كما ينبغي ، فإن الندم على الخطية ، سيساعدنا على عدم الرجوع إلى الخطية . إذ كيف نرجع إلى ما نندم عليه ...

٢ - ومن أسباب النكسة الروحية ، والرجوع إلى الخطية ، المفاهيم الخاطئة عن الروحيات وعن محبة الله ...

كثيراً ما يركز البعض على محبة الله وغفرانه ومسامحته ، تركيزاً ينسيهم صلاح الله و قداسته ، وينسيهم مخافة الله أيضاً . فلا يكون عندهم الخوف الذى يدفعهم إلى الحرص . وإن سقطوا لا يندمون كثيراً . معتمدين على محبة الله . وهكذا تصبح الخطية سهلة أمامهم ...

ومن المفاهيم الخاطئة أن يظن البعض أن الإعتراف ، هو مجرد أن يذكر خطاياهم للكاهن ويأخذ عنها حلاً وينتهى الأمر... دون أن يقرن الإعتراف بالتوبة الصادقة ، وبالندم الشديد ، وتبكيك النفس ، والعزيمة الصادقة على ترك الخطية والبعد عن كل أسبابها ...

إن سهولة الإعتراف ، ربما تكون سبباً في رجوع الإنسان إلى الخطية .

ومن المفاهيم الخاطئة أن يظن الإنسان أن التوبة مجرد تغيير سلوكه بسلوك ، من تصرف خاطئ إلى حياة الفضيلة ، دون التركيز على وجود علاقة مع الله . أما أنت فقل :

لو أننى أعطيت كل الفضائل من غيرك يارب ، لا أريدها .

إننى فى توبتى أريدك أنت . وما الفضيلة سوى تعبير عن التصاق بك ... هل أقول أعطيت قلبى كمجرد طاقة تطل بها على مشاعرى ؟ كلا ، بل أعطيت فى هذا القلب كل الحب ، لأحيا معك وأثبت فيك .

فالتوبة ليست هى وصول إلى الفضيلة ، إنما وصول إليك .

هذا الوضع يمكن للتوبة أن تثبت ... التوبة المؤسسة على محبة الله والإلتصاق به .

فإن المحبة كما قال الرسول « لا تسقط أبداً » (١ كو ١٣ : ٨) . وكما قيل في سفر النشيد « مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفىء المحبة » (نش ٨ : ٧) .

٣ - ومن أسباب النكسة الروحية أيضاً : نسيان وعودك لله .

تلك العود التي قلتها للرب يوم توبتك . وربما تكون قد قطعت مع الله بتفاصيل معينة ! لذلك إن حوربت بالخطية ارفضها ، وتذكر مواعيدك وعهودك . قل « أنا قد اتفقت مع الله . ولا يمكن أن أرجع في عهودى معه . لقد وعدت . وأريد أن أكون رجلاً حسب وصية الكتاب « تشدد وكن رجلاً » (١ مل ٢ : ٢) .
لا تكن مثل الأرض التي ألقيت فيها البذار ، وأتت الطيور فالتقطتها ... أو أحاطت بها الأشواك فخنقت ما قد نما فيها .

٤ - ومن أسباب النكسة الروحية أيضاً : الضمير الواسع .

ذلك الضمير الذى يتسع لكل شيء ، ويبرر كل شيء ، ويبلغ الجمل (متى ٢٣ : ٢٤) . وقد يساعده عقل يكون في خدمة كل انحراف تحارب به النفس ، فيقدم الأدلة والبراهين ، وربما الآيات وقصص القديسين ، لكي يؤيد بجهالة كل رغبة خاطئة للنفس ...

لذلك يعوزك الإرشاد المستمر حتى لا تنحرف .

ضع نفسك تحت قيادة إرشاد حكيم . وتذكر أن « الذين بلا مرشد يسقطون مثل أوراق الشجر » . وقد قال أحد القديسين إن أعظم سقطة لشاب هي : أن يسلك حسب هواه . وقال الحكيم « على فهمك لا تعتمد » (أم ٣ : ٥) .
والمرشد يحفظ التوازن في حياة التائب . فلا يجعله يغالى في الكآبة التي قد توقعه في قطع الرجاء . كما لا يغالى في طلب الفرح والبهجة ، فيقوده ذلك إلى اللامبالاة .

« إعمالوا للطعام البائس ، بل للطعام الباقى »

« يرو ٦ : ٢٧ »

بعض أسئلة عن التوبة

١ خطيقي أمامي كل حين

سؤال إلى أي مدى نفذ عبارة « خطيقي أمامي كل حين » (مز ٥٠) ؟
هل معنى هذا أن نتذكر خطايانا باستمرار؟

الجواب : المفروض أن نتذكر باستمرار أننا خطاة ، وتكون خطايانا أمامنا كل حين ، لكي تجلب لنا الإلتضاع وانسحاق القلب ، وتشعرنا بضعفنا فنزداد حرصاً ، ونطلب معونة الله بالصلاة...

أما إن كان التذكار يعيد إلينا الخطية ، فلنمتنع عنه ...
متذكرين ما نقوله في القداس الإلهي : « تذكر الشر الملبس الموت » .
وحسب تعليم الآباء ، من الصالح لنا أن نبعد عن تذكر الخطايا الشهوانية والخطايا الإنفعالية ، لأن تذكرها قد يعيد إلينا حروب الخطية .

فإن تذكرنا خطية شهوانية ، لا ندخل في تفاصيلها لأنها معثرة .
خطية الزنا مثلاً ، لا يجوز للتائب أن يتذكر تفاصيلها وخطوات ارتكابها ، لئلا تعود إليه شهوة الخطية مرة أخرى . حتى إن لم تحاربه الشهوة في أول مرة يذكر فيها هذه التفاصيل ، يمكن أن تحاربه فيما بعد .

ومثل شهوة الزنا أيضاً ، شهوة العظمة والمناصب ، وشهوة المتكآت الأولى ، وما يتبع كل ذلك من أحلام اليقظة .

فإن دخل التائب في تفاصيل آماله هذه وأحلامه ، وما كان يشتهي من أوضاع ومراكز وشهوة وتقدم على الآخرين وحب للمديح والكرامة ، ما أسهل أن ترجع إليه هذه المشاعر مرة أخرى ، وتدغدغ حواسه ، ويطيش فيها بلذة ، وربما تكون سبب لأحلام من هذا النوع أو تطيش فيها أفكاره وقت الصلاة . والأحرى به أن يهرب من كل هذا .

لذلك فخطية الحسد ، لا يجوز الدخول في تفاصيلها .

إذ سيتذكر من كان يفوقه في شيء ما ، أو يتمتع بشهوة كان هو يريد بها ولم يستطع . وهذه التذكريات تعيد إليه حروب شهواته القديمة ، بل قد تعيد مشاعر عدم محبة نحو ذلك المحسود...

وبالمثل خطايا الغضب من إساءات الناس ، ظاهراً أو مكبوتاً .

مع تذكر أسباب تلك الإساءات ومظاهرها ، وما تحرك في القلب من مشاعر الغيظ أو الحقد أو الرغبة في الانتقام .

إن تذكر التائب هذه التفاصيل ، ربما يشعر أنه بدأ يسخن من الداخل و يتفعل ، بدلاً من أن يتبكت على غضبه ! هذا إن دخل في التفاصيل .

على أية الحالات ، فليكن الإنسان رقيقاً على مشاعره .

الخطايا التي يذكرها أو يذكر تفاصيلها بطريقة ألمية تعيده إلى مشاعر الخطية ، فليبعد عنها . أما التذكار الذي يجلب له الندم والدموع وانسحاق القلب ، فليستمر فيه مادام هو داخل مشاعر التوبة .

٢ قراءات التائب

سؤال أنا إنسان حديث العهد بالتوبة . ما هي القراءات التي تنصحني بها لفائدتي الروحية في هذه الفترة ؟ وعن أي شيء أمتنع ؟

الجواب إبعد عن القراءات المعثرة ، والتي تجلب الفتور وإدانة الآخرين

وكذلك القراءات التي تثير فيك الجدل أو حب التعليم ، أو الشعور بالتفوق وسعة الاطلاع . وأيضاً القراءات التي تبرد حرارتك الروحية ، وتجفف دموعك ، وتدخلك في جو من اللهو والهزل ...

ومن النافع لك جداً قراءة سير القديسين . وكذلك شخصيات الكتاب المقدس - لأن هذه القراءات تقدم لك مثاليات عملية

تشتاق أن تحيا مثلها ، فتعطيك طاقة وحرارة روحية .

وكذلك تنفك قراءة الكتب الروحية والكتب النسكية .

لأنها تنير لك الطريق ، كما أنها تحفظ فكري في جو روحى نقي . والمهم أن تختار الكتب التى لها عمق ، والتي تتأثر أنت بها ، وتدفعك إلى الالتصاق بالله ، وتبكتك على خطاياك ، وتفتح أمامك آفاقاً سامية ، وتجعلك تتضع مهما بلغت في توبتك .

ومن النافع لك أيضاً قصص قديسى التوبة .

مثل سيرة القديس أوغسطينوس واعترافاته ، وسيرة القديس يعقوب المجاهد ، والقديس الأنبا موسى الأسود وغيرهم . وكذلك سير القديسات التائبات مثل مريم القبطية ، وبيلاجية ، ومرثا ، وأفدوكية ، ومريم ابنة أخى ابراهيم المتوحد... .

ومن الكتاب المقدس تخير لك فصولاً معينة تتأثر بها .

مثل سفر الجامعة ، وسفر الأمثال ، ويونان ، ويوثيل ، وسفر التثنية... ومن العهد الجديد : الرسالة إلى فيلبى ، وإلى أفسس ، والرسالتين إلى كورنثوس ، وإلى تيموثاوس . واكتب في مذكرة الآيات التى تأثرت بها لتحفظها...

٣ التداريب الروحية ومحبة الله

سؤال أيها أصلح لى في فترة التوبة : التداريب الروحية ، أم الدخول في محبة الله بقوة تجعل الطريق قصيراً .

الجواب في هذه النقطة ، ليس جميع الناس نوعاً واحداً .

البعض ينعم عليه في توبته ، بمحبة ملتبه في قلبه ، تكتسح أمامها كل الضعفات السابقة وكل الخطايا والتفاصيل .

على أن هناك من يشق طريقه وسط صخر ، ويحتاج إلى جهاد كبير يقاوم به كل خطية ، بتداريب قاسية شديدة ، وبسهر منتبه جداً على خلاص نفسه ، مثلما نبه القديس بولس العبرانيين قائلاً :

لم تقاوموا بعد حتى الدم ، مجاهدين ضد الخطية (عب ١٢ : ٤) .

وهنا يدرب الإنسان نفسه ، ويحاسبها كيف سلكت في كل تدريب .
 والتدريب عاش فيها القديسون أيضاً في الأمور الخاصة بحياتهم الروحية وبنموهم
 الروحي . فيقول القديس بولس الرسول : « لذلك أنا أيضاً أدرب نفسي ، ليكون لي
 دائماً ضمير بلا عثرة من نحو الله والناس » (أع ٢٤ : ١٦) . وقال أيضاً « في كل
 شيء ... قد تدربت أن أشبع وأن أجوع ، أن أستفضل وأن أنقص » (في ٤ : ١٢) .

لذلك حسباً يمنحك الرب ، هكذا أسلك .
 إن أشعلك بالحب ، سر في طريق الحب ... وإن قادك خطوة خطوة بجهد وتعب ،
 جاهد أنت أيضاً واتعب ، لكي تصل ...

٤ الأصدقاء القدامى

سؤال هل تظن أنه من السهل التخلص من الأصدقاء الذين عشت بينهم
 سنوات طويلة قبل التوبة ، بعشرة لاصقة بالقلب وعلاقة عميقة ، وكانوا موضع ثقتي
 وعندهم أسرارى ... كيف أتركهم ؟

الجواب صديقك الحقيقي ، هورفيقك في طريق الملكوت ، يشترك معك
 في الحياة الروحية ، ويشجعك عليها ، وتشجعه أنت أيضاً .
 أما كل علاقة أو عشرة خارج محبة الله ، فينبغي التخلص منها . لأن الرب يقول
 « من أحب أباً أو أمأ أكثر مني ، فلا يستحقني ... » (مر ١٠ : ٢٩) . فإن كان
 أصدقاؤك القدامى يعثرونك ، أو يقودونك بعيداً عن حياة التوبة ، إبعد عنهم ، باقتناع
 وفي حزم .

إن استطعت أن تحذبهم معك إلى التوبة ، فلا مانع .
 وإن لم تستطع ، فاجعل علاقتك بهم سطحية . وإن كانوا خطراً عليك ، فينبغي أن
 تفضل علاقتك بالله على علاقتك بهم .
 حتى إن وجدت صعوبة ، إحتمل من أجل الرب . وتذكر أن ابرام أبا الآباء ، لما
 دعاه الرب ترك أهله وعشيرته وبلده وسار وراء الله (تك ١٢ : ١) .
 وأنت أيضاً ، لتحفظ بتوبتك ، أترك من أجل الله كل من يعوقك ...

قصيدة كيف أنسى

وسأنسى فترة في العمر قد ضاعت سدى
حين قال القلب يوماً في ارتباك كيف أنسى

حين كان القلب رنخواً كلما قام كبا
كلما يشرب كأساً يملأ الشيطان كأساً

وأراني قلبه الحاني أنا الهارب منه
كان قلبي في صدري مثل صخر كان أقسى

فأعاد القول في رفق وعطف فضجرت
لم تكن في القلب أشواق لكي أحضر عرساً

قائم ضدى في صحوى وأيضاً في هجومى
إيه يا ظلمة نفسى هل ترى أبصر شمساً

قال لى هيا اصطلاح بالرب هيا فاصطلحت
حسن يا قلب أن أنسى ولكن كيف أنسى
كيف أنسى الرب مصلوباً وقلبي صالِباً

سوف أنسى الأمس واليوم وقد أنسى غداً
غير أنى سوف لا أنسى سؤالاً واحداً

كيف أنسى فترة الطيش وآثام الصبا
أسكرته خمرة الإثم فنادى طالباً

كم دعانى الرب يوماً فأشحت الوجه عنه
قال كن صدراً لقلبي غير أنى لم أكنه

قال هل تحضر يا صاحب عرمى فاعتذرت
فتولى بعد أن قال انتظرنى فانتظرت

كجحيم ذلك الماضى كشياطين مريع
كم مضى الليل وقد بللت فراشى بدموعى

قرأ الكاهن جلاً فوق رأسى فاسترحت
قلت أنسى الأمس لكن صرخ العقل فصحت
كيف أنسى فترة الطيش وآثام الصبا

كتبت هذه القصيدة حوالى سنة ١٩٦٠ .

محتويات الكتاب

صفحة	
٥	قصة هذا الكتاب
٧	الباب الأول : ما هي التوبة
٨	١ - ما هي التوبة ؟
١٤	٢ - نمو التوبة وكماها
١٧	٣ - دعوة إلى التوبة
٢١	٤ - لا تيأس
٢٥	٥ - التوبة بين الجهاد والنعمة
٢٧	٦ - أهمية التوبة
٢٨	٧ - عوائق التوبة
٣٠	٨ - التوبة والكنيسة
٣٣	الباب الثاني : دوافع التوبة
٣٤	الفصل الأول : إن عرفت من أنت ، تسموعن الخطية
٣٤	أنت نفخة قدسية خرجت من فم الله
٣٥	أنت ابن الله ، أنت صورته ومثاله
٣٨	أنت مسكن الله ، وهيكلك للروح القدس
٤٠	أنت أخ للمسيح ، شريك للمسيح ، ووارث معه
٤٢	أنت شريك للروح القدس ، شريك للطبيعة الإلهية
٤٣	أنت عضوفى جسد المسيح ، من لحمه وعظامه
٤٥	أنت الذى تتناول جسد الرب ودمه

الفصل الثاني : إن عرفت ما هي الخطية تهرب من الخطية ٤٧

٤٧ الخطية هي موت

٤٩ الخطية ضلال وضياح

٥٠ الخطية هزيمة لا نصره

٥٣ الخطية إنفصال عن الله

٥٤ شتان بين دالة وخصومة

٥٩ الخطية حرمان من الله

٦٠ الخطية معاندة للروح القدس

٦١ الخطية فساد للطبيعة البشرية

٦٢ الخطية نجاسة وزنى وعار

الفصل الثالث : إن عرفت نتائج الخطية ، تنفر من الخطية ٦٥

٦٥ الخوف والقلق

٦٧ عذاب الضمير

٧٠ نتائج أخرى للخطية

الفصل الرابع : إن عرفت عقوبة الخطية ، تخاف من الخطية ٧٣

٧٤ لطف الله وصرامته

٧٦ عقوبات الله المخيفة

٧٩ عذاب الأبدية المرعب

٨٣ عقوبتان للخطية : أرضية وأبدية

٨٧ عقوبات لأحباء الله القديسين

الفصل الخامس : دوافع أخرى للتوبة ٩٥

الباب الثالث : وسائل التوبة (كيف تتوب) ٩٩

١٠١ - ١ - إجلس مع نفسك وحاسبها

١٠٨ - ٢ - لا تستخدم أسلوب التبريرات والأعذار

١٢٤ - ٣ - لا تؤجل التوبة

١٣٣ - ٤ - إبعد عن قساوة القلب

- ١٤٩ ٥ - إبعاد عن الخطوة الأولى ، واحترس من الثعالب الصغار
- ١٦٢ ٦ - إبعاد عن العثرات
- ١٧٩ ٧ - إبعاد عن التساهل مع الخطيئة
- ١٨٧ ٨ - أعد تقييم سلوكك ، واحترس من ثياب الحملان
- ١٩٦ ٩ - إهرب من خطاياك المحبوبة . وعالج نقط الضعف فيك
- ٢٠٢ ١٠ - إهتّم بخلص نفسك ، واحسب حساب النفقة
- ٢٠٦ ١١ - إقتنِ محبة الله ، لتطرد منك محبة الخطيئة
- ٢١١ ١٢ صارع مع الله ، وخذ منه معونة
- ٢١٩ **الباب الرابع : علامات التوبة**
- ٢٢٠ ثمار تليق بالتوبة
- ٢٢٠ ١ - الإعتراف بالخطأ
- ٢٢٦ ٢ - الخجل والخزي
- ٢٢٨ ٣ - الندم والألم والدموع
- ٢٣٠ الدموع
- ٢٣٦ ٤ - الإنسحاق والإتضاع
- ٢٤٠ ٥ - إصلاح نتيجة الخطأ
- ٢٤١ ٦ - الإشفاق على المخطئين
- ٢٤٣ ٧ - مشاعر أخرى
- ٢٤٣ ٨ - الحرارة الروحية
- ٢٤٥ ٩ - السير في الحياة الفاضلة
- ٢٤٦ ١٠ - النقاوة
- ٢٤٧ **الباب الخامس : نقاوة القلب**
- ٢٤٧ النقاوة من الخطيئة
- ٢٥٣ إختبار النقاوة
- ٢٥٥ النقاوة من الأفكار والأحلام والظنون
- ٢٥٧ النقاوة من الأباطيل

٢٦١	الناحية الإيجابية في النقاوة
٢٦٢	نقاوة القلب من معرفة الخطية
٢٦٤	ترتيلة « بللت فراشى بدموعى المرة »
٢٦٥	الباب السادس : حفظ التوبة
٢٦٦	إمكانية الرجوع
٢٦٧	بدأوا بالروح وكمّلوا بالجسد
٢٧١	الكتعانىون فى الأرض
٢٧٩	لا تعرجوا بين الفرقتين
٢٨٣	الفصل بين النور والظلمة
٢٨٧	الإهتمام بالروح
٢٩٣	وسائل أخرى
٢٩٦	بعض أسئلة عن التوبة
٣٠٠	قصيدة كيف أنسى
٣٠١	محتويات الكتاب

صدر مع هذا الكتاب

① كتاب : سنوات مع أسئلة الناس « الجزء الثانى »

« خاص بالأسئلة اللاهوتية والمقارناتية
يسأل أكثر من ثلاثين سؤالاً ، فى ثمانين صفحة »

② الطبعة الثانية من كتاب : الرجوع إلى الله

فعل الكتاب



بسم الآب والابن والروح القدس
الإله الواحد آمين

ليست التوبة مرحلة تختارها
وننسى منها. إذا هي حياة
إننا عمل يوم نمارسه كل يوم.
لأننا في كل يوم نخطئ، ونحتاج إلى
توبة. كلنا بلا استثناء.

إذن فهذا الكتاب لجميع الناس.
لكل إنسان يعترف أنه خاطئ.
تفرغ فيه: ما هي التوبة؟ وما
كسالتها؟ وما أهميتها؟ والدواعي التي
تدفع الإنسان إلى التوبة.

وبشرح أيضاً: كيف نتوب؟
وما هي علامات التوبة؟
وكيف نحفظ توبتنا مستمرة بلا
نكسة.

وما هي حياة التقاوة وكيف
نختبر؟

ومع ذلك فإننا نضع طويلاً يحتاج
إلى تكملة. لذلك اقرأ أيضاً كتب:
البقعة الروحية، السهر الروحي
الرجوع إلى الله، عساة الله
شوده الثالث